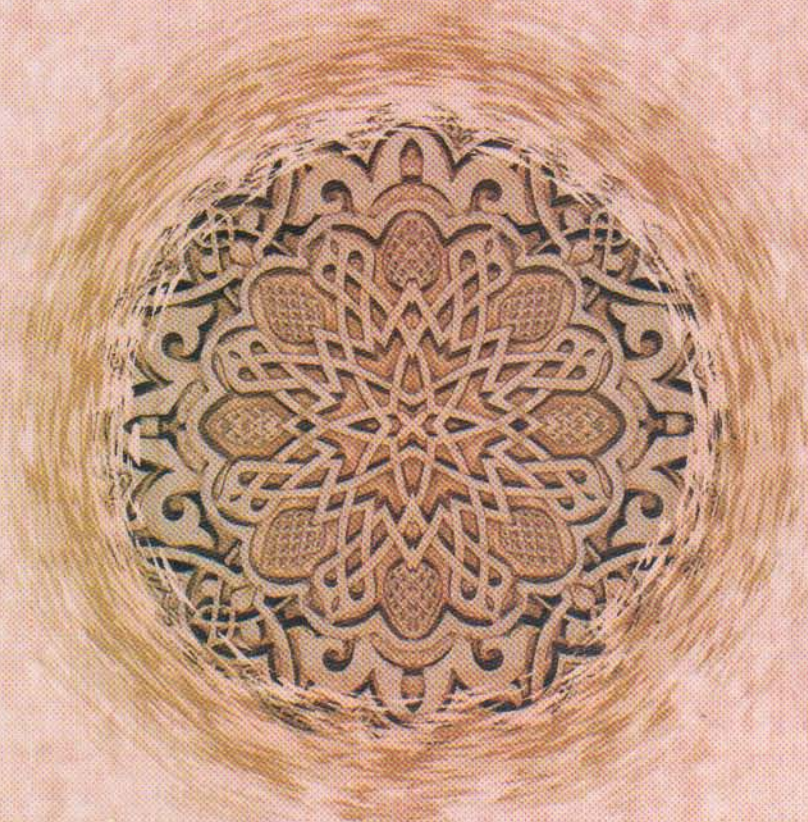
الخلل الوهابي

في فهم التوحيد القرآني



الشيخ عبد الله دشتي

المكتبة التخصصية للرد على الوهابية

بسم الله الرحمن الرحيم



الخلل الوهابي

في فهم التوحيد القرآني

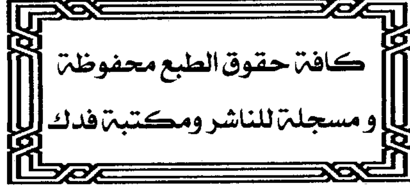
الشيخ عبد الله دشتي

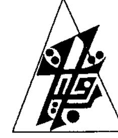


مكتبة فدك

الخلل الوهابي

الشيخ عبد الله دشّتي





- الناشر: باقيات
- الكمّية: ١٠٠٠نسخة
- المطبعة: وفا
- الطبعة: الأولى
- تاريخ الطبع: ٢٠٠٨م - ١٤٢٩هـ.ق
- القطع وعدد الصفحات: وزيري - ٣٥٩ صفحة

شابك : ١-٩٦-٦١٦٨-٩٦٤-٩٧٨

عنوان الناشر: ايران - قم - شارع معلم - رقم ٤٤ - تلفون: ٧٧٤٣٩٠٠

مركز التوزيع : ايران - قم - مجمع الإمام المهدي (عج) - الطابق الأرضي

رقم ١١٧، ١١٦ - تلفون: ٧٨٣٣٦٢٤

مكتبة فدك

الإهداء

إلى كل شهيد قتل ظلما على يد التكفيرين ... أيا كان زمانه ...

في صدر الإسلام وعلى رأسهم سيدهم وأميرهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ...

بدءا بقتيلهم الأول عبد الله بن خباب بن الأرت وزوجته وجنينها أول ضحايا إرهاب الخوارج ...

مرورا بسيد الشهداء في كربلاء والكوكبة معه ، وجميع ضحايا الإرهاب الأموي والعباسي ...

شهداء الفضيلة جميعا ... شهيدنا الأول وشهيدنا الثاني ومن سار في ركبهم ...

الشهداء الذين سقطوا على يد الحركة الوهابية في التاريخ الحديث ...

شهداء الإرهاب البعثي والبهلوي الذين قامت على دمائهم الزكية جمهورية الإسلام المباركة والفتية ...

الشهداء الذين سقطوا دفاعا عن الأقصى وفلسطين وجنوب العز والإباء في وجه الإرهاب الصهيوني ...

وأخيرا شهداء الحقد الطائفي الأعمى - ضد أهل البيت وأتباعهم في عراق الشهادة والعطاء - الذين سقطوا وما زالوا يسقطون أشلاء بفعل مفخخات الإرهابيين ...

بل إلى كل من بقي صامدا في وجههم ...

وخلاصة إلى كل شهداء الإرهاب الشرقي والغربي والتكفيري .

وفي أي مكان كانوا ... في العراق .... بغداد أو الحلة أو الكوفة أو كربلاء وغيرها من المدن ... في مصر و لبنان و فلسطين و إيران و باكستان و أفغانستان وكل بقعة أرض سفك عليها دماء الأبرياء .

سائلا الله عز وجل أن يكون لهذا الكتاب دور في ايقاف الإرهاب التكفيري .

المقدمة

إن حقيقة الإسلام التي ترسخت في نفوس المسلمين تتلخص في الشهادتين ، أي إقرار الإنسان بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا ﷺ رسوله ، وهي حقيقة يدركها أي مسلم يمتلك أدنى مستوى من الثقافة الإسلامية ، وعلى ضوء ذلك لا يخطئ في تحديد خارطة العالم الدينية فيميز البلاد الإسلامية عن غيرها .

لكن تصيبه الدهشة الشديدة ما إن يطّلع على الرؤية السلفية للتوحيد ، فهي رؤية تقلب الموازين وتغير خارطة العالم من حيث انقسامه إلى بلاد للمسلمين وأخرى للمشركين ، فعلى سبيل المثال مصر وهي من أعرق البلاد الإسلامية ستعد وفق حسابات هؤلاء من بلاد المشركين وهكذا العراق بل أي بلد حوى قبر ولي صالح يزوره المسلمون ويدعون الله عنده .

لذا من نشأ - انطلاقا من المتوارث الإسلامي - على أن حقيقة الإسلام تتحقق بمجرد الإقرار بالشهادتين يقف مبهوتا أمام تلك الرؤية ، ولكن مع ذلك استطاعت هذه الرؤية وهذا الفهم للتوحيد والشرك أن يغزو جل بلاد المسلمين في الأزمنة الأخيرة ، ولاشك أن للنفط الذي ظهر في المنطقة الحاضنة لتلك الرؤية دوراً كبيراً في نشرها .

ولكن عند تتبعي لما كتبه مؤسسو تلك الرؤية وعلماؤها رأيت أن هناك عاملا آخر غير القدرة المالية لا ينبغي إغفاله كان له دور مهم في جذب الشباب وخاصة في الجزيرة العربية وأدى إلى اتساع أتباع تلك النظرية في التوحيد والشرك وانتشارهم في بلاد المسلمين .

وخلاصة ذلك أنهم ألبسوا عقيدتهم ورؤيتهم لباسا قرآنيا من خلال الاستناد على بعض الآيات التي ادعوا أنها محكمة في مدعاهم ، وغدت مادتهم التعليمية والتربوية قائمة على تلك القراءة الخاصة لتلك الآيات .

ولم يقف أمر هؤلاء عند ذلك الحد ، بل نجحوا في توجيه التعليم الديني في المدارس الحكومية وخاصة في دول الخليج ، وأصبحت تعرض على الشباب المسلم على أنها عقيدة أهل السنة ، وأدرجت تلك التصورات القائمة على اتهام المسلم بالشرك في المناهج المدرسية ، ولا أريد أن أمثل بمناهج المملكة العربية السعودية فهي قائمة على هذا التصور بل لا تعرف معنى للتوحيد والشرك إلا ذلك ، ولكن أعرض لك مثالا صارخا في منهج التربية الإسلامية لدولة أخرى من دول الخليج ، فتقرأ تحت عنوان (معنى العبادة ومن يستحقها) :

" من دعا غير الله أو ذبح أو نذر لغير الله أو استعان أو استغاث بميت أو غائب أو بحي حاضر فيما لا يقدر عليه إلا الله فقد أشرك الشرك الأكبر ، وسواء صرف هذا النوع من العبادة لصنم أو شجر أو لحجر و لنبي من الأنبياء أو لولي من الأولياء ، فهذا كله شرك والله عز وجل لا يرضى أن يشرك معه في عبادته أحد ، لا مقرب قوم ولا نبي مرسل ولا ولي ولا غيرهم ، قال تعالى ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا** ﴾ ، وقال عز وجل ﴿ **وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** ﴾ ، وقال سبحانه ﴿ **وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا** ﴾ .

ومع الأسف الشديد فقد اتخذت القبور في بعض البلاد أوثانا تعبد من دون الله ، يذهب إليها الناس يطلبون من أصحابها قضاء حوائجهم بحجة أنهم أناس صالحون ولهم جاه عند الله ، وقد نسوا أن هذا - والله - هو قول المشركين كما ذكره في القرآن في قوله تعالى ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا**

لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴾ وقوله عز وجل ﴿ **أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ** ﴾ " [(١)] .

والمثال الآخر من منهج الصف الثاني الثانوي وصياغته أخطر لأنه يصرح بأن حكم هؤلاء هو القتل ، فكتب في المنهج تحت عنوان نواقض التوحيد : " الشرك نوعان : أ- الشرك الأكبر : وهو صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله سبحانه وتعالى كالدعاء لغير الله عز وجل أو التقرب بالذبائح والنذور لغير الله عز وجل من القبور والجن والشياطين والخوف من الموتى أو غيرهم أن يضروه أو يمرضوه وعبادة غير الله كالذين عبدوا العجل والكواكب والحجار والأصنام قال تعالى ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ** ﴾ " .

ثم يضع جدولا يفرق فيه بين حكم الشرك الأكبر والشرك الأصغر، فيذكر أنه من حيث العقيدة الشرك الأكبر يخرج من ملة الإسلام ، ومن حيث العقوبة الشرك الأكبر عقوبته هو إباحة دم المشرك وماله وخلوده في النار [(٢)] .

وهكذا كما ترى أصبح الفهم الذي بذره ابن تيمية ورعاه ابن عبدالوهاب للتوحيد والشرك هو التوحيد الذي جاء به الأنبياء عليهم السلام والشرك الذي نهوا عنه ، وأصبح جزءا من المناهج المدرسية ، ولا تخفى خطورة ذلك ، فليس اتهام المسلم بالشرك أمرا هينا ، فلذا لا بد من التحقيق في الأمر وبيان الحق ، بل هي رؤية يلزم منها اتهام الأجيال السابقة على ابن

---

(١) التربية الإسلامية للصف الأول الثانوي ص٢٢ - ٢٣ ، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ ، الكويت .

(٢) التربية الإسلامية للصف الثاني الثانوي ص٤٤ - ٤٥ ، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ ، الكويت .

تيمية بالغفلة عن معنى التوحيد الذي جاء به خاتم الرسل ﷺ ، ويكفي أيها القارئ أن ترجع إلى ما دونه المؤرخون من حوادث العقود الأخيرة كي تعرف الفظائع والمذابح التي وقعت في الجزيرة العربية وأطرافها على أيدي متبني هذا الفكر ، بل إن جزءا كبيرا مما يعرف بحركة الإرهاب في عالمنا المعاصر والتبرير الديني لقتل المدنيين والأبرياء وتفجير المساجد خاصة في العراق وباكستان يمارس من قبل أناس يحملون هذا الفكر ، فلا أعتقد أن هناك من لا يشعر بأهمية البحث والتحقيق حول هذا الموضوع .

ولقد بذل علماء الإسلام جهودا مشكورة في مواجهة هذه الرؤية الخطيرة والرد عليها وخاصة مع نشأة هذه الرؤية في سنواتها الأولى ، ومن يراجع عدد ما كتب في تلك الحقبة يلمس هذا الأمر ، ولكن أغلب تلك الكتابات إما مفقودة أو يصعب الحصول عليها ، والتمحيص فيها وتحديد المجدي والقيم منها يحتاج إلى جهد ووقت ، لذا رأيت ضرورة توفير دراسة سهلة المنال تكشف زيف التلبيس القرآني لتلك الرؤية للتوحيد والشرك ، وتبرز خللهم في فهم الآيات التي تحدثت عن الشرك والمشركين .

إن ما ستقرؤه أيها القارئ العزيز يسعى للتركيز على هذا الأمر ، واترك لك التقييم في النهاية حتى تميز نجاح هذه الوريقات في بيان وتحديد قراءتهم الخاطئة لآيات القرآن الكريم ، فالأمر خطير وتتبع خطورته من ارتباطه بأول أصل من أصول ديننا الحنيف ألا وهو التوحيد .

المؤلف

خطورة مسألة التكفير في الإسلام

لا نريد أخي القارئ هنا الاستعجال في مناقشة الخلل في تحديد الضوابط التي حددت من قبل الشرع للدخول في الإسلام ، ولكن نعرض لك الروح التي تعكسها النصوص المروية عن رسول الله ﷺ في ذلك ، وعليك أن تقارنها بالرؤية الوهابية في التكفير وسهولة الحكم على المسلم بالشرك .

فتأكيد الإسلام على خطورة التكفير أمر جلي في النصوص في مقابل مثل هذه الآراء التي قامت على التساهل في تكفير المسلم ، وتنطلق الرؤية الإسلامية السليمة من قوله تعالى ﴿ **وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا** ﴾ النساء/ ٩٤ ، فقد نهت الآية عن تكفير من يلقي إلينا السلام ، فكيف بمن يصرح بكلمة التوحيد التي تعصم الإنسان كما سيتضح من كثير من الأحاديث المروية في الصحاح .

فقد روى مسلم في صحيحه كتاب الإيمان ، باب (الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة) عن عثمان قال : قال رسول الله ﷺ : " من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة " [1] .

بل روي أن الإيمان ينفع العبد وإن زنى وإن سرق ، وهذا يعني أن الأمر القلبي من الاعتقاد بالتوحيد ينفع وإن كان عمله بمستوى الزنا والسرقة ، ففي صحيح البخاري في كتاب اللباس ، باب (الثياب البيض) عن أبي ذر قال : " أتيت النبي ﷺ وعليه ثوب أبيض وهو نائم ثم أتيته وقد استيقظ فقال : ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة ، قلت : وإن زنى

---

(١) صحيح مسلم ج١ ص٥٥ .

وإن سرق ؟! قال وإن زنى وإن سرق " [1] ، فيلاحظ أن صدر الحديث ينبئ عن مجرد القول القلبي الصادق ، وأما ذيله " وإن زنى وإن سرق " فيتحدث عن الأعمال وفعل الجوارح .

وقد حدد رسول الله ﷺ لوفد عبد القيس شرائع الدين بأنها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله مع إضافة الأحكام الضرورية التي بني عليها الإسلام ، فقد روى مسلم في كتاب الإيمان ، باب (الأمر بالإيمان بالله) أنهم قالوا : " يا رسول الله إنا نأتيك من شقة بعيلة ، وإن بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر ، وإنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر الحرام ، فمرنا بأمر فصل نخبر به من ورائنا ندخل به الجنة ، قال : فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع ، قال : أمرهم بالإيمان بالله وحده ، وقال : هل تدرون ما الإيمان بالله ؟ ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تؤدوا خمسا من المغنم ... " [2] .

فقد فسر رسول الله ﷺ في هذه الرواية أن الإيمان هو مجرد الإقرار بالشهادتين وما بني عليه الإسلام من أصول أحكام ، فأين هذا من تصويرهم للتوحيد والشرك والكفر والإسلام !

ورواية البخاري التالية هي أكثر تفصيلا وتوضيحا في تحديد من يحكم بإسلامه وحصانة دمه وعرضه فقد روى في كتاب الصلاة باب فضل استقبال القبلة عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ من صلى صلاتنا واستقبل

---

(١) صحيح البخاري ج٧ ص١٩٢ .

(٢) صحيح مسلم ج١ ص٤٧ .

قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله فلا تخفروا الله في ذمته [١] .

وفي خبر آخر لمسلم في صحيحه عن أبي مالك عن أبيه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : " من قال لا إله إلا الله ، وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله " ، وفي خبر آخر " من وحد الله " بدل " من قال : لا إله إلا الله " [٢] .

والمهم أن الأخبار صريحة في استبدال قول لا إله إلا الله بعبارة توحيد الله فأحدهما تحل محل الأخرى ، فمن يقول لا إله إلا الله يخرج عن عنوان الشرك ، ولا يؤخذ بغير هذا الظاهر .

وكذلك روي في الصحاح اعتراض عمر على أبي بكر وقوله : " كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله ، فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه ، فقال عمر : فو الله ما هو إلا أن رأيت الله عز وجل قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق " [٣] .

وما رواه عمر عن رسول الله ﷺ في الخبر السابق يؤكد أن مجرد قول لا إله إلا الله يدخل الإنسان في التوحيد ويخرجه عن الشرك ، فلم يقاتلهم أبو بكر لأنهم مشركون ، نعم هو يصرح بأنهم منعوا حقا من حقوق الله فلذا يجب

---

(١) صحيح البخاري ج١ ص١٠٨ .

(٢) صحيح مسلم ج١ ص٥٣ .

(٣) المصدر السابق ج١ص ٥١ .

قتالهم ، وصريح كلمات العلماء أن الخارجين على أبي بكر لم يكونوا كلهم مرتدين ، فالمسلم يمكن أن يستحق القتل لأسباب أحدها الارتداد ، كإنكار أصل التوحيد أو النبوة بل لو أنكر ضروريا من ضروريات الدين مثل الصلاة أو الزكاة مع انتفاء الشبهة في حقه .

وقد يكون مرجع ذلك عنوان خروجهم على الإمام الذي يدير أمور المسلمين ، وعُلل قتال أبي بكر لمانعي الزكاة بذلك فاعتبروا بغاة خارجين ، وهذا ما حدث بالنسبة لأمير المؤمنين عليه السلام حينما قاتل الخوارج ، فقد كانوا بغاة أمر الله بقتالهم كما قال عز وجل ﴿ **فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ** ﴾ الحجرات/٩ .

بل صرح الخطابي بذلك بالنسبة لأبي بكر على ما نقله عنه النووي في شرحه قال بعد أن قسم العرب الذين قاتلهم أبو بكر زمن الردة إلى صنفين صنف ارتدوا عن الدين ونابذوا الملة وعادوا إلى الكفر : " والصنف الآخر هم الذين فرقوا بين الصلاة والزكاة ... وهؤلاء على الحقيقة أهل بغي ... ، وقد كان ضمن هؤلاء المانعين للزكاة من كان يسمح بالزكاة ولا يمنعها إلا إن رؤساءهم صدوهم عن ذلك الرأي وقبضوا على أيديهم في ذلك كبني يربوع ، فإنهم قد جمعوا صدقاتهم وأرادوا أن يبعثوا بها إلى أبي بكر (رض) فمنعهم مالك بن نويرة من ذلك وفرقها فيهم وفي أمر هؤلاء عرض الخلاف ووقعت الشبهة لعمر (رض) فراجع أبا بكر ... " [1] .

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ج١ ص ٢٠٢ ، ولكن الحق أن مالكا لم ينكر أمر الزكاة وإنما لم يقبل بمبايعة الخليفة .

وقد صرح القاضي عياض في (**إكمال المعلم**) بأن تارك الزكاة يقتل حداً لا كفراً قال : " واختلف العلماء في قتل تارك غير الشهادتين فأكثرهم على أن ذلك حد لا كفر وهو الصحيح " (١) .

فمن الواضح أن الحديث هنا عن المسلم المقر بالتوحيد الذي يعصم دمه بمجرد إقراره بالتوحيد أي قول لا إله إلا الله ، وما تأذى رسول الله ﷺ بعمل مثل تأذيه من فعل أسامة حينما قتل المشرك الذي أعلن كلمة التوحيد ، فقد روى مسلم في صحيحه عن أسامة بن زيد قال : " بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة من جهينة فصبحنا القوم فهزمناهم ، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم ، فلما غشيناه قال : لا إله إلا الله ، فكف عنه الأنصاري وطعنته برمحي حتى قتلته ، قال : فلما قدما بلغ ذلك النبي ﷺ ، فقال لي : يا أسامة أقتلته بعد ما قال : لا إله إلا الله ؟ قال قلت : يا رسول الله إنما كان متعوذا ، قال : فقال : أقتلته بعد ما قال : لا إله إلا الله ؟ قال : فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم " (٢) .

وفي خبر آخر قال أسامة : " قلت : يا رسول الله إنما قالها خوفا من السلاح ، قال : أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا " (٣) .

ولذا من الواضح أنها مسألة قلبية ينطق بها الإنسان قد يكون عن إيمان أو عن نفاق فليس لنا أن نتجاوز ظاهر الناس كما قال ﷺ في خبر عمر الذي مر ذكره " وحسابه على الله " .

---

(١) إكمال المعلم ج١ ص ٢٤٣ .

(٢) صحيح مسلم ج١ ص ٩٧ .

(٣) المصدر السابق ج١ ص ٩٦ .

وأكد رسول الله ﷺ على تلك الحقيقة فيما رواه مسلم في باب (تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله) عن المقداد بن الأسود ... أنه قال : يا رسول الله أرأيت إن لقيت رجلا من الكفار فقاتلني ، فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها ثم لاذ مني بشجرة ، فقال : أسلمت لله ، أفأقتله يا رسول الله بعد أن قالها ؟ قال رسول الله ﷺ : لا تقتله ، قال : فقلت : يا رسول الله إنه قد قطع يدي ثم قال ذلك بعد أن قطعها ، أفأقتله ؟ قال رسول الله ﷺ : لا تقتله ، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله ، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال " [1] .

الاتهام بالشرك أخطر أنواع التكفير

أيها القارئ كما ترى الروايات صريحة في بيان أن المقر بلسانه بكلمة التوحيد مسلم ، ليس لك أن تتهمه بغير ذلك ، ومن يقر بالتوحيد يقر بأن الله الخالق المدبر المعبود لا يجوز له أن يرى غيره إلها خالقا مدبرا معبودا ، فالمشرك من يدعى أن غير الله يخلق أو يدبر وبقدراته الذاتية أو يدعي أن هناك معبودا غير الله يعبد مع الله .

ولا نريد أن ندعي أنه لا يمكن أن نحكم بكفر من يقر بالتوحيد وذلك إذا أنكر ما هو ضروري من الدين مع انتفاء الشبهة في حقه ، وهذا أمر قضائي يجب أن يحكم به القضاء العادل غير المنحاز ، وأما دون ذلك ومع قوله لا إله إلا الله ، بمعنى اعتقاده بأن الخالق المدبر المعبود إله واحد هو الله لا إله غيره يكفر ، فهذا ما ردع عنه رسول الله ﷺ فيما نقلنا من الأحاديث .

وبعبارة أخرى ما يريد رسول الله ﷺ بيانه أنه لا يمكنكم أن تتهموا المقر بالتوحيد بالشرك بل ابحثوا عن أدلة أخرى لتكفيره كإنكار ضرورات الدين ،

(١) صحيح مسلم ج١ ص٩٥ .

وكل ذلك لأن هناك معنى لغويا بسيطا لكلمة التوحيد عند العرب بل عند البشرية هي وحدانية الخالق المعبود.

من يقول أنا لا أعبد إلا الله وما أقوم به ليست عبادة لغيره، لا يمكن أن يقال له : لا بل أنت مشرك، أنت تعبد غير الله لأننا نحن نعرف معنى العبادة ومصاديقها وأنت لم تعرفها، هو مسلم بمجرد اعتقاده بأن العبادة لا تكون إلا لله ولم يقصد غير الله بالأعمال العبادية، فهو مسلم وإن قام بما تخيله الوهابيون عبادة لغير الله ما دام هو لا يراها عبادة لغير الله بل يقول كل ما فعلته بقصد احترام ذلك الغير وتقديره لا عبادته.

نعم اتضح عند الكثير منهم فداحة الأمر والخطأ الذي وقع به أسلافهم وخاصة مع ما روي عنه ﷺ في صحيح مسلم : " إذا كفر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما " [1]، فغيروا عباراتهم وقالوا : بأننا لا نقول بأن المسلم الذي يتوسل بالأنبياء والصالحين مشرك وكافر، بل نقول إن عمله عمل الكفار المشركين من دون الحكم بكفره.

ولكنها كلمات لا يقصد منها إلا تدارك الأخطاء الجسيمة والجرائم الفظيعة التي صدرت من أسلاف الحركة الوهابية في العصور المتأخرة، وهو سبب نفور البعض من الانتساب إلى هذا الاسم، ففضلوا الانتساب إلى السلف والتسمي باسم السلفية.

عموما تبقى بذور الخطر كامنة حتى في ذلك البعض، فدعوى أن الحجة أقيمت على شخص ما أو جماعة ما سهلة، فتعود الجرائم التي مورست في الماضي القريب، بل عادت كما نراها جلية في ممارسات الحركات الإرهابية المعاصرة في مطلع القرن الحادي والعشرين.

(١) صحيح مسلم ج١ ص ٧٩ .

إن جوهر المشكلة معهم تتلخص بأن ما ادعوه شركا ليس بشرك حتى يترتب عليه قولهم إنه وقع جهلا من المسلم فلا نحكم بكفره ، وهدفنا في هذا البحث بيان وتوضيح حقيقة كل من التوحيد والشرك الذي تحدث عنها القرآن وتحديد نقاط الخلل في فهم أصحاب هذه الرؤية ، وهو بحث مهم لكل من تأثر أو يمكن أن يتأثر بأرباب هذه الرؤية سواء كانوا مكفرين أم لا .

رسول الله ﷺ لا يخاف على أمته الشرك

وهي نكتة أخرى تنطلق من الأحاديث ويجب أن تلاحظ أيضا عند أصحاب هذه الرؤية التي تدور كثير من كلماتهم حول دعوى أن المجتمع الإسلامي تحول إلى مجتمع مشرك ، فكيف يمكن أن تكون دعوى معقولة مع ما روي في الصحيحين عن عقبة بن عامر : " أن النبي ﷺ خرج يوما صلى على أهل أحد صلاته على الميت ، ثم انصرف إلى المنبر فقال : إني فرط لكم وأنا شهيد عليكم وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن ، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض أو مفاتيح الأرض ، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها "[1] .

وهو خبر صريح في أن النبي ﷺ لا يخاف أن ترجع أمته إلى الشرك بأي أنواعه ، ولكن الذي تدعيه الوهابية أن الشرك ظاهرة عامة في أمة خاتم الرسل ﷺ .

وكذلك روى الحاكم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : " إن إبليس يئس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ، ولكنه سيرضى بدون ذلك منكم ، بالمحقرات من أعمالكم وهي الموبقات " .

---

(١) صحيح البخاري ج٢ ص ١١٤ - ١١٥ ، صحيح مسلم ج٤ ص ١٧٩٥ .

وعلق الحاكم على الخبر بقوله : "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الذهبي في (التلخيص) : صحيح ، سمعه خالد بن عبدالله منه (يعني من إبراهيم الهجري) [١] .

نعم وردت بعض الأحاديث التي دلت على وقوع الشرك ، ولكنها كلها تتحدث عن أشراط الساعة ، كما هو صريح خبر أبي هريرة المروي في صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب (تغير الزمان حتى تعبد الأوثان) أن رسول الله ﷺ قال : " لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة ، وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية " [٢] .

فهي تدل على أن عود الشرك ببعض مسمياته الأول والرجوع إلى بعض الأصنام السابقة التي كانت تعبد من علامات الساعة ، ويدل على ذلك أن مسلما بعد الرواية السابقة عن نساء دوس روى عن عائشة قولها : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى ، فقلت : يا رسول الله إن كنت لأظن حين أنزل الله ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾ أن ذلك تاما ، قال : إنه سيكون من ذلك ما شاء الله ، ثم يبعث الله ريحا طيبة ، فتوفى كل من في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فيبقى من لا خير فيه ، فيرجعون إلى دين آبائهم " [٣] .

والرواية الأخيرة واضحة في أن وقوع ذلك قبيل قيام الساعة ، إذ تصرح بأنه لا يحدث ذلك إلا عندما لا يبقى من في قلبه مثال حبة خردل من إيمان وليس في

---

(١) المستدرك على الصحيحين ج٢ ص ٣٢ .

(٢) صحيح البخاري ج٩ ص٧٣ ، ورواه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة .

(٣) صحيح مسلم ج٤ ص ٢٢٣٠ .

الزمن الذي قال عنه ﷺ كما في رواية مسلم عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله " [(١)] ، وهو يوافق ما رواه مسلم عنه ﷺ : " لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس " [(٢)] .

وعلى ذلك ينبغي حمل ما روي في المستدرك على الصحيحين - واستدل به ابن عبدالوهاب في كتاب التوحيد - عن ثوبان من قوله ﷺ : " وإني لا أخاف على أمتي إلا الأئمة المضلين ، ولن تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان " [(٣)] .

وأما ماعدا رجوع شرار الأمة إلى الأوثان قبيل قيام الساعة فالأخبار التي تصرح بأن رسول الله ﷺ لا يخاف الشرك على أمته هي الواضحة والحاكمة .

وأما ما روي من ارتداد بعض العرب زمن أبي بكر فواقعه أنه كشف عن نفاقهم وعدم إيمانهم القلبي لا بالتوحيد ولا بنبوة خاتم الرسل ﷺ ولذا لم يدخلوا في أمته حتى يقال إن بعض أمته ارتدت إلى الشرك بمعنى عبادة الأوثان ، فقد تبين بالارتداد أنهم ممن قال فيهم عز وجل ﴿ **قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾ الحجرات / ١٤ ، فالآية تصرح بأن الإيمان لم يدخل قلوبهم ، ولوضوح الآية في ذلك وضع البخاري في كتاب الإيمان من صحيحه بابا بعنوان [إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل لقوله تعالى ﴿ **قَالَتِ**

(١) صحيح مسلم ج٣ ص١٥٢٣ .

(٢) المصدر السابق ج٤ ص٢٢٦٨ .

(٣) المستدرك على الصحيحين ج٤ ص٤٩٦ - ٤٩٧ .

الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ ، فإذا كان على الحقيقة فهو على قوله جل ذكره ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ** ﴾] [١] .

ونهاية الأولوية كل الأولوية لقراءة واستيعاب هذا الخلل الكبير في فهم التوحيد والشرك ومعرفة التوحيد الذي تحدثت عنه القرآن وبينه سيد المرسلين خاليا من التحريفات والشوائب التي فرزها الفهم السقيم لآيات التوحيد والشرك في القرآن الكريم .

---

(١) صحيح البخاري ج١ ص ١٣ .

الفصل الأول

عرض عام للرؤية الوهابية

التوحيد أساس الإسلام

من الضروري أن يلتفت القارئ لأهمية الموضوع الذي يقرأه وأهمية منطلقات العرض وخطواته وتسلسله ، ولذا ننبه ونحن نتحدث عن الشرك والتوحيد هنا أننا في صدد مناقشة الرؤية الحرانية أو الوهابية [(١)] للتوحيد والشرك واعتبارهم كثيرا من ممارسات المسلمين شركا أكبر مخرجا عن الملة كما يقولون ، ونحن ملزمون بأن نستوعب الطرح الذي يطرحه هؤلاء قبل مناقشته وبيان نقاط الخلل فيه ، وغالبا ما نعبر عن أصحاب هذه الرؤية بالوهابية باعتبار أن أكبر رجالاته هو ابن عبدالوهاب وإن كانت جذورها تنطلق من ابن تيمية ، نعم أصحابها يتسمون بالسلفية أو يصفون أنفسهم بأهل الحديث وأحيانا أهل السنة والجماعة ، لكن السمة الأخيرة بعيدة عن الواقع ، فرؤاهم مبتدعة وطارئة على أهل السنة وليست منها ولا من أصولهم أبدا .

وعودا للب الموضوع ، نقول إن القرآن الكريم يصرح بأن هناك حقيقة واحدة وأساسية أرسل من أجلها الأنبياء عليهم السلام هي توحيد الله في ربوبيته وألوهيته وعبادته ، فهو الرب ولا رب سواه كما قال عز وجل ﴿ **أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ﴾ يوسف/٣٩ ، وهو الإله لا إله سواه ، وهو المعبود لا معبود معه ، قال عز وجل﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ الأنبياء/٢٥ ، وقال عز وجل ﴿ **إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** ﴾ طه/١٤ ، وهكذا يتكرر في عدة

---

(١) باعتبار أن من أسس هذا الفهم أحمد بن تيمية الحراني ، وأكبر من كان له دور في الترويج له محمد بن عبدالوهاب النجدي .

آيات – في سورتي الأعراف وهود – قول أنبياء الله ﴿ **يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** ﴾ الأعراف/٥٩ .

والمفردات الأساسية التي تدور حولها الآيات هي الرب والإله والمعبود ، وترسخ عند المسلمين أن هناك معنى فطرياً واحداً واضحاً لكلمتي الإله والرب – وإن اختلف منشأهما اللغوي – يتلخص بأنه إشارة إلى الموجود المدبر لشئون الكون تدبيرا ذاتيا مستقلا غير مستمد من أية قوى أخرى ، وهو الذي يرجع إليه في الملمات والرجوع إليه رجوع إلى القوة العظمى التي لا قوة فوقها ، هذا الوجود المقدس لا يجد له العقل ولا تجد له الفطرة السليمة إلا مصداقا واحدا ، ويترتب على ذلك أنه المعبود الوحيد الذي يستحق العبادة دون غيره من الموجودات ، هذا مجمل التوحيد وشهادة ألا إله إلا الله .

منشأ الشرك عند البشر والرؤية الوهابية

نعم الضلالات البشرية صورت إمكان تعدده فأشركوا بالله ، وليس الشرك إلا الاعتقاد بتعدد مثل هذا الموجود وخرق آلهة أخرى اعتقدوا أن لها تأثيرا مستقلا في شئون الكون ولذا كانوا يتوجهون إليها في العبادة ويدعونها ، وفي الغالب الأعم كان على نحو الاعتقاد بالإله الأكبر الذي هو الله مع الاعتقاد بآلهة أخرى معه صغيرة اعتبروها أبناء لله ، وكانت تعبد مع الله تعالى أو من دونه كما نص القرآن الكريم ، وتعبد لأنها ذات قدرات إلهية هي من قبيل قدرات الإله الأعظم .

والفكر الوهابي السلفي لا يوافق على الرؤية السابقة للشرك ويصوره على نحو آخر ، فله رؤيته الخاصة للشرك الواقع عند الأمم ، وتقوم رؤيته على محورين هما :

١- التمييز بين نوعين من التوحيد ، الأول توحيد الربوبية والآخر توحيد الألوهية .

٢- إن المشكلة الأساسية عند البشر تتركز في انتفاء المعنى الثاني للتوحيد أي توحيد الألوهية ، فالبشرية كانت تقع في شرك الألوهية دون شرك الربوبية ، وحقيقته عبادة غير الله مع عبادة الله مع اعتقاد هذا المشرك في العبادة بأن الله هو الخالق المدبر لشئون الكون فهو يوحد الله في الربوبية ، وتتركز الرؤية الوهابية حول المحور الثاني هذا ، ولكن تجد في عباراتهم ترددا في تحديد موجب الوقوع في شرك العبادة ، فتارة تشعر بأنهم يرونه في مجرد اتخاذ الوسائط في عبادة الإله الأعظم وتارة أخرى في دعاء تلك الوسائط ، ولذا يمكن القول بأنك تجد صياغتين عندهم لشرك العبادة أي المحور الثاني :

الأولى : إن عبادة غير الله والشرك به نبع من توسيط موجودات أخرى ، فقصد الله من خلال الشفعاء والأولياء هو الذي يجعلهم عبادا لغيره ومشركين به ، وبذلك يكونون قد اتخذوا هذا الموجود إلها وإن لم يعتقدوا بأنه خالق مدبر .

الثانية : أنهم أشركوا بسبب قصد بعض تلك الموجودات ببعض الأعمال العبادية التي منها النذر والذبح ، ولكن منها بل أهمها عبادة الدعاء أي الاستغاثة بتلك الموجودات وطلب ما لا يقدر عليه إلا الله منها ، فالدعاء هي العبادة التي أشرك بها هؤلاء ، فيكون كل من يدعو غير الله هو يعبد غير الله وإن لم يعتقد بأنه رب له دوره في تدبير شئون الكون أو بعض شئونه ، بل وإن لم يسم ما يقوم به عبادة ، وهي عبادة موجودة عند كثير من المسلمين الذين يدعون غير الله من الصالحين والأولياء ويطلبون منهم .

بذلك يتبين أن الشرك لا يندفع بمجرد النطق بالشهادتين وإقام الصلوات وغيرها من العبادات ، بل ابن عبدالوهاب يرى أن الشرك الواقع عند المسلمين الذين يشهدون الشهادتين أشد من شرك مشركي قريش عندما يقول :

" فاعلم أن شرك الأولين أخف من شرك أهل زماننا بأمرين :

أحدهما : أن الأولين لا يشركون ولا يدعون الملائكة والأولياء والأوثان مع الله إلا في الرخاء ، وأما الشدة فيخلصون لله الدعاء كما قال تعالى ﴿ **وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا** ﴾ ...

الأمر الثاني : إن الأولين يدعون مع الله أناسا مقربين عند الله إما أنبياء وإما أولياء وإما ملائكة أو يدعون أشجارا أو أحجارا مطيعة لله ليست عاصية ، وأهل زماننا يدعون مع الله أناسا من أفسق الناس ، والذين يدعونهم هم الذين يحكون عنهم الفجور من الزنا والسرقة وترك الصلاة وغير ذلك " [١] .

عقيدتهم بكلماتهم

قلنا إن الذي يفرض علينا هذه الكتابة هو الرؤية التي أسسها ابن تيمية وتبناها ابن عبدالوهاب مؤسس الحركة الوهابية ومن تبعه من علمائهم عندما صاغوا معنى خاصا للتوحيد والشرك ، ولذا يهمنا أن نستعرض كلماتهم التي تشرح عقيدتهم تلك حتى لا يتخيل القارئ أنها مقولات حمّلت عليهم ، فيتضح أن ما عرضناه مصرح به في نصوصهم ، فإليك صياغة عقيدتهم من خلال استعراض كلمات ابن تيمية وابن عبدالوهاب فقط ، وسنعرض كلمات مشايخ آخرين لهم عند مناقشة تلك المحاور .

---

(١) شرح كشف الشبهات ص ١٠٠- ١٠٣ .

كلماتهم حول المحور الأول

فقد أكدت الرؤية الوهابية على تقسيم الشرك إلى شرك ربوبية وشرك ألوهية ، وصرحوا بأن المشركين كانوا يؤمنون بالله الخالق الأوحد للكون فلم يكونوا مشركين في الربوبية وإنما كان شركهم في الألوهية أي العبادة التي كانت تتجلى في تقربهم لله من خلال وسائط يدعونها ويعبدونها .

قال ابن تيمية في (**مجموعة الفتاوى**) :

" فإذا تقرر ذلك فالشرك إن كان شركا يكفر به صاحبه ، وهو نوعان شرك في الإلهية وشرك في الربوبية ، فأما الشرك في الإلهية فهو أن يجعل لله ندا أي مثلا في عبادته أو محبته أو خوفه أو رجائه أو إنابته ، فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه قال تعالى ﴿ **قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ** ﴾ ، وهذا هو الذي قاتل عليه رسول الله ﷺ مشركي العرب لأنهم أشركوا في الإلهية قال الله تعالى ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ** ﴾ ، وقالوا ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** ﴾ ، وقالوا ﴿ **أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ** ﴾ وقال تعالى ﴿ **أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ** ﴾ إلى قوله ﴿ **الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ** ﴾ .

وقال النبي ﷺ لحصين : كم تعبد ؟ قال : ستة في الأرض وواحداً في السماء ، قال : فمن الذي تعد لرغبتك ورهبتك ؟ قال : الذي في السماء ، قال : ألا تسلم فأعلمك كلمات ؟ فأسلم ، قال النبي ﷺ : قل اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي .

وأما الربوبية فكانوا مقرين بها ، قال الله تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ، وقال ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ إلى قوله ﴿ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ وما اعتقد أحد منهم قط أن الأصنام هي التي تنزل الغيث وترزق العالم وتدبره ، وإنما كان شركهم كما ذكرنا اتخذوا من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، وهذا المعنى يدل على أن من أحب شيئا من دون الله كما يحب الله تعالى فقد أشرك ، وهذا كقوله ﴿ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۞ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۞ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، وكذا من خاف أحدا كما يخاف الله أو رجاه كما يرجو الله وما أشبه ذلك " [١] .

وقال أيضا :

" والمشركون من قريش وغيرهم - الذين أخبر القرآن بشركهم واستحل دماءهم وأموالهم وسبي حريمهم وأوجب النار لهم - كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السماوات والأرض كما قال ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ... .

وكان المشركون الذين جعلوا معه آلهة أخرى مقرين بأن آلهتهم مخلوقة ولكنهم كانوا يتخذونهم شفعاء ويتقربون بعبادتهم إليه كما قال تعالى ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ ... .

---

(١) مجموعة الفتاوى ج١ ص ٧١ .

وقد قال الله تعالى ﴿ قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ ... .

والمشركون من هؤلاء قد يقولون إنا نستشفع بهم أي نطلب من الملائكة والأنبياء أن يشفعوا ، فإذا أتينا قبر أحدهم طلبنا منه أن يشفع لنا ... ، ومنهم من يتأول قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ ... .

فهذه الأنواع من خطاب الملائكة والأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم وفي مغيبهم وخطاب تماثيلهم هو من أعظم أنواع الشرك الموجود في المشركين من غير أهل الكتاب وفي مبتدعة أهل الكتاب والمسلمين الذين أحدثوا من الشرك والعبادات ما لم يأذن به الله تعالى قال الله تعالى ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾ "[1] .

وفي أول (مجموعة التوحيد) لابن عبدالوهاب :

" وأما التوحيد فهو ثلاثة أنواع توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات ، أما توحيد الربوبية : فهو الذي أقر به الكفار على زمن رسول الله ﷺ ولم يدخلهم في الإسلام وقاتلهم رسول الله ﷺ واستباح دماءهم وأموالهم وهو توحيده بفعله تعالى ، والدليل قوله تعالى ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾

(١) مجموعة الفتاوى ج ١ ص ١١٧ .

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّه قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۞ قُلْ مَن بِيَدِه مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْه إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّه قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ ... .

النوع الثاني : وهو توحيد الألوهية ، فهو الذي وقع فيه النزاع في قديم الدهر وحديثه ، وهو توحيد الله بأفعال العبادة كالدعاء والنذر والنحر والرجاء والخوف والتوكل والرغبة والرهبة والإنابة ، ودليل الدعاء قوله تعالى ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ ... .

وأما النوع الثالث : فهو توحيد الذات والأسماء والصفات قال تعالى ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ... "[١] .

وقال أيضا :

" وبعد فهذه أربع قواعد من قواعد الدين يميز بهن المسلم دينه من دين المشركين .

القاعدة الأولى : أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ كانوا مقرين لله بتوحيد الربوبية يشهدون أن الله هو الخالق الرازق المحي المميت المدبر لجميع الأمور ولم يدخلهم ذلك في الإسلام والدليل قوله تعالى ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾.

---

(١) مجموعة التوحيد ص٣- ٤ .

القاعدة الثانية : إن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ ما أرادوا من قصدوا إلا قربة وشفاعة ودليل القربة قوله تعالى ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** ... ﴾ ودليل الشفاعة قوله تعالى ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ** ... ﴾ .

القاعدة الثالثة : إن الله بعث النبي ﷺ إلى أهل الأرض وهم على أديان مختلفة وعبادات متفرقة منهم من يعبد الملائكة ومنهم من يعبد النبيين والصالحين ومنهم من يعبد الأحجار والأشجار وقاتلهم رسول الله ﷺ ولم يفرق بينهم ... .

القاعدة الرابعة : إن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ كانوا يخلصون في الشدة ويشركون في الرخاء والدليل قوله تعالى ﴿ **فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ** ﴾ وأهل زماننا هذا يشركون في الشدة وفي الرخاء كذلك ... "[1] .

وقال في رسالته (كشف الشبهات) :

" اعلم رحمك الله أن التوحيد هو إفراد الله سبحانه بالعبادة وهو دين الرسل الذي أرسلهم الله به إلى عباده فأولهم نوح عليه السلام أرسله إلى قومه لما غلوا في الصالحين ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا .

وآخر الرسل محمد ﷺ وهو كسر صور هؤلاء الصالحين أرسله إلى أناس يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيرا ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله ، يقولون نريد منهم التقرب إلى الله ونريد

---

(١) مجموعة التوحيد ص ١٥ — ١٦ .

شفاعتهم عنده مثل الملائكة وعيسى ومريم وأناس غيرهم من الصالحين فبعث الله محمدا ﷺ يجدد لهم دين أبيهم إبراهيم عليه السلام ويخبرهم أن هذا التقرب محض حق الله تعالى لا يصلح منه شيء لغير الله ، لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل فضلا عن غيرهما ، وإلا فهؤلاء المشركون يشهدون أن الله هو الخالق وحده لا شريك له وأنه لا يرزق إلا هو ولا يحي ولا يميت إلا هو ولا يدبر الأمر إلا هو ... " [1] .

كلماتهم حول المحور الثاني

في هذا المحور يسعى الفكر الوهابي لبيان الشرك الواقع في العبادة ، وقلنا إنه يظهر من بعض كلماتهم أنها تتحقق بمجرد قصد الوسائط في التقرب إلى الله ، فمن وسط الأولياء والشفعاء عبد تلك الوسائط ، ويظهر من كلمات أخرى لهم - وهي الأدق في تصوير موجب الشرك عندهم - أن دعاء غير الله هو الموجب للوقوع في شرك العبادة نظرا إلى أن الدعاء أجلى مصاديق العبادة .

اتخاذ الوسائط هو الموجب لشرك العبادة

في التقرير الأول لشرك العبادة استندوا على آيتين أساسيتين .

قال ابن تيمية :

" وكان المشركون الذين جعلوا معه آلهة أخرى مقرين بأن آلهتهم مخلوقة ولكنهم كانوا يتخذونهم شفعاء ويتقربون بعبادتهم إليه كما قال تعالى ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ** ﴾ ... " .

(١) شرح كشف الشبهات ص ٢٠ - ٢٩ .

وقال أيضا :

" فكل من غلا في حي أو في رجل صالح ... وجعل فيه نوعا من الإلهية ... أو يدعوه من دون الله تعالى مثل أن يقول : يا سيدي فلان اغفر لي أو ارحمني أو انصرني أو ارزقني أو أغثني أو أجرني ... ، فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه ، فإن تاب وإلا قتل ، فإن الله إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب لنعبد الله وحده لا شريك له ولا نجعل مع الله إلها آخر .

والذين كانوا يدعون مع الله آلهة أخرى مثل الشمس والقمر والكواكب والعزيز والمسيح والملائكة واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ويغوث ويعوق ونسرا وغير ذلك لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق أو أنها تنزل المطر أو أنها تنبت النبات ، وإنما كانوا يعبدون الأنبياء والملائكة والكواكب والجن والتماثيل المصورة لهؤلاء أو يعبدون قبورهم ويقولون : إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، ويقولون هم شفعاؤنا عند الله " [1] .

فما يريد قوله هو أن الله عد تقربهم إليه من خلال الأصنام بطلب الشفاعة منها واعتبارها وسائط إلى الله عبادة للأصنام ، وهو ما يفعله المسلمون عند أصحاب القبور فهم يقصدون الله بذلك ، ولكن من خلال التقرب إلى صاحب القبر واتخاذه شفيعا لهم .

قال ابن عبدالوهاب عند رده على إشكال قرره في (كشف الشبهات) :

" فإن قال : الكفار يريدون منهم وأنا أشهد أن الله هو النافع الضار المدبر ، لا أريد إلا منه والصالحون ليس لهم من الأمر شيء ولكن أقصدهم أرجو من الله شفاعتهم .

---

(١) مجموعة الفتاوى ج٣ ص ٢٤٤ .

فالجواب : أن هذا قول الكفار سواء بسواء ، وأقرأ عليه قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ** ﴾ "[1] ، وقد ذكر ذلك في القاعدة الثانية من قواعده الأربع التي نقلناها سابقا .

دعاء غير الله هو الموجب لشرك العبادة

في التقرير الآخر لشرك العبادة يذكرون الذبح والنذر ولكن يؤكدون على الدعاء كأجلى مظاهر العبادة التي أشرك بها المشركون ، فهي المدخل الذي أضل المشركين ومعهم مشركي المسلمين الذي ساروا على دربهم كما يقول هؤلاء ، فشرك المشركين ينبع من دعاء آلهة أخرى مع الله وهو ما يفعله كثير من المسلمين بدعاء الأولياء عند قبورهم .

يقول ابن تيمية تقريرا لذلك :

" وهذا ونحوه مما يبين أن الذين يدعون الأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم وغير قبورهم هم من المشركين الذين يدعون غير الله كالذين يدعون الكواكب والذين اتخذوا الملائكة والنبيين أربابا قال تعالى ﴿ **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۞ وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ ، وقال تعالى ﴿ **قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ**

---

(١) شرح كشف الشبهات ص ٨٥ – ٨٦ .

مَحْذُورًا ﴾ ، وقال تعالى ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۞ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ ، ومثل هذا كثير في القرآن ينهى أن يدعى غير الله لا من الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم ، فإن هذا شرك أو ذريعة إلى الشرك بخلاف ما يطلب من أحدهم في حياته من الدعاء والشفاعة فإنه لا يفضي إلى ذلك فإن أحدا من الأنبياء والصالحين لم يعبد في حياته بحضرته ، فإنه ينهى من يفعل ذلك بخلاف دعائهم بعد موتهم ، فإن ذلك ذريعة إلى الشرك بهم وكذلك دعاؤهم في مغيبهم هو ذريعة إلى الشرك " [1] .

وإن كان عبارته : " ذريعة إلى الشرك " تجعله غير جازم بما جزم به في العبارات الأخرى .

وقال أيضا : " ودين الإسلام مبني على أصلين وهما :

تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فلا تحب مخلوقا كما تحب الله ولا ترجوه كما ترجو الله ولا تخشاه كما تخشى الله ، ومن سوى بين المخلوق والخالق في شيء من ذلك فقد عدل بالله ... ، وقد جعل مع الله إلها آخر وإن كان مع ذلك يعتقد أن الله وحده خلق السماوات الأرض ، فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السماوات والأرض كما قال تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ...

الأصل الثاني : أن نعبده بما شرع على ألسن رسله ... ، والدعاء من جملة العبادات فمن دعا المخلوقين من الموتى والغائبين واستغاث بهم – مع أن هذا

(١) مجموعة الفتاوى ج١ ص ١٣٣ .

أمر لم يأمر به الله ولا رسوله أمر إيجاب ولا استحباب – كان مبتدعا في الدين مشركا برب العالمين " [١].

وقال ابن عبدالوهاب في (كشف الشبهات) :

" فإن قال : أنا لا أعبد إلا الله وهذا التجاء إلى الصالحين ودعاؤهم ليس بعبادة .

فقل له : أنت تقر أن الله فرض عليك إخلاص العبادة وهو حقه عليك ، فإذا قال : نعم فقل له : بين لي هذا الذي فرض عليك وهو إخلاص العبادة لله وحده وهو حقه عليك ، فإن كان لا يعرف العبادة ولا أنواعها فبينها له بقولك قال الله تعالى ﴿ **ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً** ﴾ .

فإذا أعلمته بهذا فقل له : هل علمت هذه عبادة لله ؟ فلا بد أن يقول نعم ، والدعاء مخ العبادة ، فقل له : إذا أقررت أنها عبادة ودعوت الله ليلا ونهارا خوفا وطمعا ، ثم دعوت في تلك الحاجة نبيا أو غيره ، هل أشركت في عبادة الله غيره ؟ ...

وقل له أيضا : المشركون الذين نزل فيهم القرآن ، هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات وغير ذلك ؟ فلا بد أن يقول : نعم ، فقل له : وهل كانت عبادتهم إياهم إلا في الدعاء والذبح والالتجاء ونحو ذلك ، وإلا فهم يقرون أنهم عبيده وتحت قهره ، وأن الله هو الذي يدبر الأمر ولكن دعوهم والتجأوا إليهم للجاه والشفاعة وهذا ظاهر جدا " [٢] .

وقال في كتابه (التوحيد) :

" من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره ، وقول الله تعالى ﴿ **وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ** ﴾...

---

(١) مجموعة الفتاوى ج١ ص ٢١٨ .

(٢) شرح كشف الشبهات ص ٨٧ – ٩٠ .

فيه مسائل ... الثالثة : أن هذا هو الشرك الأكبر ... الثالثة عشر : تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو "[١] .

وفيما يتعلق بالشفاعة لم ينكر ابن عبدالوهاب شفاعة رسول الله ﷺ ولكنه أنكر طلبها من الشافع فقال : " فإن قال : النبي ﷺ أعطي الشفاعة ، وأنا أطلبه مما أعطاه الله ؟ فالجواب : أن الله أعطاه الشفاعة ، ونهاك عن هذا فقال : ﴿ **فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** ﴾ فإذا كنت تدعو الله أن يشفع نبيه فيك فأطعه في قوله ﴿ **فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** ﴾ "[٢] .

خلاصة محوري الفكر الوهابي

لنلخص مرة أخرى الأسس التي تقوم عليها الرؤية الوهابية ، ولكن ما يهمنا إبرازه هو التركيز على الآيات التي اعتبروها أدلة على ما ذهبوا إليه ، وعلى ضوء ذلك اعتبروا نظريتهم نظرية تستند إلى القرآن الكريم في بيانها لحقيقة التوحيد والشرك ، وهو ما نعتبره تلبيسا قرآنيا لرؤيتهم الخطيرة والخاطئة ، وأوراقنا التي بين يديك تقوم على مناقشة هذا الفهم لتلك الآيات :

فالأساس الأول : يقوم على التمييز بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ، فادّعوا أن مشركي العرب بل أكثر المشركين كانوا موحدين في الربوبية ولكنهم مشركون في الإلوهية ، وأهم الآيات التي اعتمدوا عليها ما كان من قبيل قوله تعالى ﴿ **قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ** ﴾ يونس/٣١ .

(١) التوحيد ص ٣٢- ٣٣ .

(٢) شرح كشف الشبهات ص ٩٢ - ٩٣ .

والأساس الثاني : إن حقيقة الشرك بالألوهية لا تقوم على رفض الله الإله الأكبر بل هي عبادة غير الله معه ، وهي تتحقق بمجرد اتخاذ الوسائط في عبادة الله ، وكثير من المسلمين باعتبار توسيط الأولياء والصالحين يعدون عبدة لأصحاب القبور ، فيشركون في الألوهية ولا ينفعهم كونهم يوحدون الله في الربوبية كما لم ينفع مشركي قريش .

وأهم ما استدلوا به على هذا المحور الثاني قوله تعالى ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** ﴾ الزمر/٣ ، وقوله تعالى ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ** ﴾ يونس / ١٨ ، وعليه قالوا : لا فرق بين المسلم الذي يقصد صاحب القبر ويدعوه قربة إلى الله والمشرك الذي يعبد الصنم قربة إلى الله .

ولكن كما قلنا ستجد صياغة أخرى وتركيز على محور آخر لموجب الوقوع في شرك العبادة يقوم على اعتبار أن الشرك تحقق بقصد غير الله بأعمال متعبد بها كالذبح والنذر والدعاء .

وكأن المدخل لذلك يبتني على تصريح آيتي الزلفى والشفعاء بأنهم عبدوا غير الله ، ولذا يجب تحديد العبادة التي مارسوها وقصدوا بها الشفعاء ، ولذا قالوا أن مجرد دعاء موجود غير الله بما لا يقدر عليه إلا الله هو عبادة لهذا الموجود ، فالعبادة تتحقق بدعاء الولي أو الصالح صاحب القبر ، ولإثبات أن الدعاء بصورة مطلقة عبادة استدلوا بمثل قوله تعالى ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾ غافر / ٦٠ ، وقوله تعالى ﴿ **وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ** ﴾ القصص / ٨٨ ، وقوله عز وجل ﴿ **وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** ﴾ الجن /١٨ .

والخلاصة أنه ينبغي البحث في مفردات أساسية هي (الرب) و(الإله) و (العبادة) و(الدعاء) .

ونحن باعتبار نرى أن جوهر خللهم يتركز في تصورات خاطئة عن العبادة والدعاء نركز على هذه المحاور ، نعم جرت العادة على تقديم الحديث عن الربوبية ، وسنتحدث عنه ولكن لن نركز عليه لأنه لا يشكل لب الخلل ، وأما البحث في الربوبية وتمييزه عن شرك الألوهية سواء ثبت صحته أو لم يثبت لا يؤثر في الخلاف الجوهري المتضمن في معرفة التوحيد في العبادة والدعاء والشرك فيهما .

فالتمييز السابق بين التوحيدين خاصة عند مشركي قريش أمر قال به كثير من القدماء ، ولكن التصوير الحراني الوهابي للشرك في العبادة هو الأمر المبتدع الذي لا تجده في كلمات السابقين ، فلا تجد في أجيال المسلمين قبل زمن ابن تيمية من ذهب إلى ما ذهب إليه أصحاب هذه الرؤية في فهم حقيقة شرك العبادة أو شرك الألوهية ، وبعبارة أخرى لم يقل أحد بأن التوجه للشفيع عبادة للشفيع أو دعاء غير الله لمجرد الدعاء والطلب عبادة للمدعو على النحو الذي أطلقه أصحاب هذه الرؤية ، خلافا لمحور الربوبية إذ تجد عددا لا بأس به من السابقين اتفق معهم في عد مشركي قريش موحدين في خالقية الله للكون وتدبيره أموره وأن شركهم كان في العبادة ولكنهم بطبيعة الحال كما قلنا لم يذهبوا إلى التفسير والتفصيل الوهابي للعبادة وخاصة فيما يتعلق بالدعاء .

ويترتب على ذلك أن البحث في محور الألوهية وحقيقة شرك العبادة لا يتقوم بصحة أو خطأ رؤيتهم القائلة بأن مشركي قريش كان يوحدون في الربوبية ، بل لو سلمنا بذلك فجوهر الخلل الوهابي في تصوير شرك العبادة .

وعليه لا بد أن نمر سريعا على ما أصروا عليه من فصل توحيد الربوبية عن توحيد الألوهية ثم ندخل في جوهر الخلل المتمثل في تصويرهم للألوهية والعبادة والدعاء.

الفصل الثاني

مشركو العرب لم يوحدوا في الربوبية
(الخالقية والتدبير)

نقطة الخلاف مع الوهابية

هذا الفصل يعقده الفكر الوهابي مقدمة للحديث عن شرك الألوهية ، لكن الحق أنها لا علاقة لهذا الفصل بخللهم الأساس في فهم موجب شرك الألوهية أو شرك العبادة ، فمشكلتهم الأساسية والرؤية التي ابتدعوها تتعلق بفهمهم للعبادة وما يرتبط بها من مفردات ، وهو ما سنركز عليه في الفصل الثاني ، ولكن من الضروري بيان أنهم اخطأوا في فهم هذا الأمر أيضا وإن كان خطئا شاركهم فيه بعض القدماء خلافا لخللهم الأساس الذي نبحثه في الفصل القادم .

فلا شك بأن مشركي قريش عرفوا الله واعتقدوا به ولكن ككبير الآلهة ومعه آلهة صغار هي بناته وأبناؤه ، وهذه عقيدة مسلمة عندهم كما هو صريح قوله تعالى ﴿ **وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ** ﴾ النحل / ٥٧ ، فحقيقة الشرك هي بوجود آلهة أخرى مع الله ، فلم يكونوا دهريين ملحدين منكرين لوجود الله ، وإن كان يوجد من البشر من هو كذلك كما هو ظاهر قوله تعالى ﴿ **وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ** ﴾ الجاثية / ٢٤ .

ويمكن صياغة الخلاف مع أصحاب هذه الرؤية انطلاقا من السؤال التالي : هل الآلهة التي آمن بها المشركون عدت آلهة لأنها عبدت مع الله فقط ولا تأثير ذاتيا لها في الكون ومجرياته كما هو الادعاء الوهابي ، أم هي آلهة لأن لها قدرة ذاتية على التأثير على مجريات الكون وخوارق الأمور كما هو الحال بالنسبة لكبير الآلهة لكن ليس بسعة قدرة الإله الأكبر ؟

وابتداء ننبه إلى أننا لا نريد ادعاء أن الفصل بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية غير ممكن وغير واقع ، فلا شك بأننا لو وجدنا إنسانا يقر بخالقية الله وتدبيره لشئون الكون ويوحده في ذلك ولكنه يعبد غيره معه كأن يصلي لموجود آخر كما نصلي نحن لله سنقول بأنه مشرك ، ومشرك في العبادة دون الربوبية .

ولكن ما نريد بيانه أن المشركين غالبا ومنهم مشركو قريش لم يميزوا ويفككوا بين الأمرين بمعنى أنهم عمليا وفي الغالب الأعم كانوا يعبدون من يرون له تأثير مستقل في شئون الكون ولو بعض شئونه ، كما أن النتيجة الطبيعية لاعتقادهم بأن لموجود ما قدرة مستقلة على إحداث الخوارق - والتي ليست إلا في مقدور الله أصالة في عقيدتنا - هو عبادة ذلك الموجود .

مشركو العرب اعتقدوا بأن لآلهتهم قدرة ذاتية على النفع والضر

كي نقرر نقطة الخلاف الرئيسية في فهم الآيات التي استدل بها الوهابيون ، نقول : الأصح أن العرب كانوا يعتقدون بأن الله مبدع هذا الكون ، ولكنهم كانوا يعتقدون بأن إدارة بعض شئون الكون أوكلت للآلهة الصغيرة التي تمتلك القدرة الذاتية على النفع الضر لأنها أبناء الله ، نعم بقيت أمور أساسية ليست إلا في مقدور الإله الأكبر وطريق تحصيلها شفاعة الآلهة الصغيرة ، بل الألوهية في العرف الديني البشري تطلق على من له القدرة الذاتية المستقلة .

فالآيات التي تصرح بأن الضر والنفع بيد الله فقط والآلهة المزعومة غير قادرة هي في صدد مواجهة تخيلات ضالة عن المشركين بأن آلهتهم تضر وتنفع بنفسها فتؤكد الآيات على أن النفع والضر بيد الله فقط ، فكل الآيات التي تذكر أن الله هو الخالق والمدبر والمؤثر الأوحد في الكون وأن الآلهة الأخرى لا تخلق إنما هي آيات سيقت كي تدفع تخيلهم الباطل بأن الآلهة تضر وتنفع بنفسها ولها

قدرة ذاتية على ذلك باعتبار أنها أبناء الله ، فيؤكد القرآن على بيان ضلالتهم في ذلك وأنها لا تخلق ولا ترزق ولا تدبر الأمر وليس بيدها نفع أو ضر ، فكيف لكم أن تعبدوها من دون الله .

وبعبارة أخرى هذه الآيات في صدد رد اعتقادهم بأن تلك الموجودات التي اتخذوها آلهة لها قدراتها المستقلة في النصر والضر والنفع ، ونفي الخلق يأتي في سياق نفي النفع والضر ، وبعض الآيات تستنكر الأمرين معا كما في قوله تعالى ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۞ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ الأعراف/ ١٩١- ١٩٢ ، والحصيلة أنها تريد مواجهة أمر ترسخ في عقيدة هؤلاء وخلاصته أن آلهتهم تنصر وتنفع وتضر انطلاقا من قدراتها الذاتية فلذا اتخذوها آلهة وتوجهوا إليها لقضاء حوائجهم ، فيذكر القرآن بأمر لا يسهل إدعاؤه وهو عدم قدرة هذه الآلهة على الخلق ، أو يذكر بما تذعن له الفطرة السليمة وهو اختصاص الخالقية بالله ونفيه عن غيره .

وأما الرؤية الوهابية فتختلف

فهم يقولون : أن المشركين يقرون بأن الخالق الوحيد والمدبر الوحيد هو الله لأدلة من القرآن سيأتي ذكرها ، فحصيلة معنى الآيات : أنكم ما دمتم تقرون بأن الله هو الخالق المدبر فلا يجوز أن تتخذوا غيره إلها أي معبودا تقصدونه في عباداتكم ، وبعبارة أخرى كل الآيات التي تتحدث عن خالقية الله عز وجل وعدم خالقية غيره هي ليست بصدد الاستدلال على أمر لا يعتقدون به بل لمجرد التذكير بعقيدتهم بخالقية الله وحده واستحضارها توطئة للحديث عن لزوم إخلاص العبادة له عز وجل ، فلا مسوغ عقلي يدعو لعبادة موجود لم تتحقق

خالقيته للكون أو لبعض شئون الكون ، فكل التكرار تكرار للسبب الموجب المسوغ لعبادة الله وهي الخالقية التي يقر المشركون باختصاصها بالله .

ونهاية ، عبادة المشركين لغير الله - بمعنى قصد غير الله بالعبادة المخصوصة - أمر مسلم من قبل الجميع وواضح في قوله تعالى ﴿ **فَقَالُواْ هَـذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا** ﴾ الأنعام/ ١٣٦ ، ولا يختلف أحد على هذا ، لكن هناك أمرين آخرين نتفق مع الوهابية في جزء منهما ونختلف في جزء آخر .

فاستدلال القرآن بخالقية الله وعدم خالقية غيره على اختصاص الألوهية بالله واضح في آيات القرآن الكريم ، قال تعالى ﴿ **وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ** ﴾ الفرقان/ ٣ ، فبيان التلازم بين الأمرين من مسلمات وواضحات القرآن .

لكن نختلف مع الوهابية في أمر آخر فهم يقولون بأن الحديث عن خالقية الله وعدم خالقية غيره تذكير بأمر يؤمنون ويقرون به ويوحدون الله فيه ، ونقول إنه تنبيه على أمر ينكرونه ، نعم توحيده في الخالقية والتدبير أمر فطري قد طمسه شركهم ، وأما إقرارهم بخالقية وتدبير الله لشئون الكون المذكور في القرآن فهو إما تصوير للسان حال عقولهم الباطنية وفطرتهم المندرسة ، أو أنه إقرار بمجرد خالقية الله وتدبيره باعتباره الإله والمدبر الأكبر دون توحيده في ذلك إذ يعتقدون بأن الآلهة الصغيرة مدبرة أيضا وهو ما سنفصل فيه في جواب الآيات التي يستدلون بها ، فلا تنافي خالقية الله وتدبيره - في رؤية المشركين الباطلة - مع اعتقادهم بوجود إله غيره يضر وينفع ويقضي الحوائج تارة بنحو مستقل عن الله وتارة بنحو الشفاعة والتوسط عنده ، بل معنى الشرك الذي وقعوا به هو الاعتقاد بقدرة غير الله على الضر والنفع مستقلا عن الله .

والأمر الآخر الذي يتفق عليه الجميع هو اعتقاد المشركين بقدرة الآلهة على الضر والنفع لوضوحه في مثل قوله تعالى ﴿ **وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا** ﴾ مريم/٨١ ، وقوله عز وجل ﴿ **وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ** ﴾ يس/٧٤ ، وهو صريح قوله تعالى ﴿ **فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ** ﴾ هود/١٠١ ، وقال ﴿ **أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ** ﴾ الأنبياء/٤٣ .

لكننا نختلف في شيء آخر ، فالوهابية تقول إن المشركين يعتقدون أن ضرها ونفعها يقتصر على الشفاعة عند الإله الأكبر فقط دون الاستقلال في ذلك لأنهم موحدون لله في الربوبية ، فلا تقدر الآلهة على النفع أو الضر إلا بالاستشفاع إلى الله وذلك في مقابل الرأي الآخر الذي يرى أنهم اعتقدوا بقدرتها الذاتية على النفع والضر في بعض الأمور وفي بعضها الآخر يكون على نحو الشفاعة عند الله الإله الأكبر ، بل هي لم تعد آلهة إلا لأنها تقدر بنفسها ولو في بعض شئون الكون .

والخلاصة أن المشركين كانوا يعتقدون بأن الآلهة التي عبدوها وآمنوا بها تضر وتنفع ، ولا شك بأن أصحاب الرؤية الوهابية يؤمنون بأنهم كانوا يرونها تنفع وتضر ، وقد صرح القرآن بأن النصرة هي الغاية التي من أجلها اتخذوا آلهة من دون الله كما هو صريح آية سورة يس الآنفة .

ولكن ما تريد الوهابية التأكيد عليه أن المشركين اعتقدوا بأن ضرها ونفعها يقتصر على التشفع بها إلى الإله الأكبر فقط وقبول الإله الأكبر لشفاعتها ، ولم يعتقدوا بأن لها القدرة الذاتية على الضر والنفع وبنحو مستقل عن الله ، وهذا معنى أنهم موحدون في الربوبية .

الخطة العامة للبحث في هذا الفصل

نقسم هذا الفصل إلى بابين :

الباب الأول : ونسوق فيه الأدلة الواضحة على اعتقاد المشركين بأن آلهتهم لها القدرة الذاتية على الضر والنفع وهذا يعني ربوبيتها ، فليست الشفاعة عند الإله الأكبر هو الطريق الوحيد لتحصيل نفعها أو ضرها .

ونستعرض الأدلة من خلال ثلاث محاور :

المحور الأول : لغوي قرآني من خلال البحث في الشرك والمفردات القرآنية المرادفة لها .

المحور الثاني : عرض القرآن لعقيدة المشركين وتفاصيلها العامة .

المحور الثالث : تاريخي روائي يعتمد على ما روي في النصوص عن عقائد مشركي العرب .

الباب الثاني : نناقش الأدلة والآيات التي اعتمد عليها أصحاب هذه الرؤية في القول بأن مشركي قريش والعرب لم يشركوا في الربوبية بل كانوا يوحدون الله في ذلك .

الباب الأول

في بيان الأدلة على شركهم في الربوبية ، وهي كما قلنا تدورعلى ثلاث محاور هي : المدخل اللغوي ثم العرض القرآني لعقائدهم وأخيرا النصوص والأحاديث .

أولا : المدخل اللغوي القرآني

الألوهية والربوبية

إن التمييز بين التوحيدين ليس أمرا أصيلا انطلق من النصوص والأحاديث النبوية ، بل برز انطلاقا من فهم بعض الآيات التي استظهر منها إقرار المشركين بتوحيد الله في الخالقية والربوبية ، وقد نقلنا بعض تلك الآيات عند استعراض عقيدة الوهابيين ومن خلال كلماتهم .

نعم استند البعض إلى الأصل اللغوي لكلمتي الرب والإله ، فقد عدد القصيمي بعض البراهين على التفريق بين توحيد الألوهية والربوبية ، فقال : " البرهان الأول : فرقت كتب اللغة والتفسير بين معنى كلمة الإله وبين معنى كلمة الرب ، فالإله بمعنى المعبود والرب بمعنى المالك للشيء وصاحبه " [1] .

وما ذكره أمر ملاحظ عند مراجعة كلمات اللغويين والمفسرين ، فترى ابن فارس يقول عن أله : " الهمزة واللام والهاء أصل واحد وهو التعبد فالإله الله تعالى ، وسمي بذلك لأنه معبود ويقال تأله الرجل إذا تعبد " [2] ، وقال في رب :

---

(١) دعاوى المناوئين ص ٣٤٤ .

(٢) مقاييس اللغة ص ٦٩ .

" الراء والباء يدل على أصول ، فالأول إصلاح الشيء والقيام به ، فالرب المالك والخالق والصاحب ... ، والرب المصلح للشيء والله جل ثناؤه الرب لأنه مصلح أحوال خلقه " [١] .

وتجد تاثير هذا التفريق اللغوي في المورد الذي ذكرت فيه الكلمتان معا كما في سورة الناس ، لذ قال الطبري عند تفسير الآيات ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ : " وهو ملك جميع الخلق إنسهم وجنهم وغير ذلك ، إعلاما منه بذلك من كان يعظم الناس تعظيم المؤمنين ربهم أنه ملك من يعظمه ، وأن ذلك في ملكه وسلطانه تجري عليه قدرته ، وأنه أولى بالتعظيم وأحق بالتعبد له ممن يعظمه ويتعبد له من غيره من الناس ، وقوله ﴿ إِلَـٰهِ النَّاسِ ﴾ معبود الناس الذي له العبادة دون كل شيء سواه " [٢] .

وقال الشيخ الطوسي : " يأمرهم أن يستعيذوا ﴿ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ وخالقهم... ، وقوله ﴿ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ معناه أنه الذي يجب على الناس أن يعبدوه لأنه تحق له العبادة دون غيره " [٣] .

وكذلك قال القرطبي : " قوله تعالى ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ أي مالكهم ومصلح أمورهم ... ، وإنما قال ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ لأن في الناس ملوكا يذكر أنه ملكهم ، وفي الناس من يعبد غيره ، فذكر أنه إلههم ومعبودهم " [٤] .

---

(١) مقاييس اللغة ص ٣٧٨ .

(٢) تفسير الطبري ، المجلد ١٥ ، ج٣٠ ص ٤٦١ .

(٣) التبيان ج١٠ ص ٤٣٥ -٤٣٦ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن المجلد العاشر ، ج٢٠ ص ٢٣٣ .

فهل للمدخل اللغوي قيمة مجدية في إثبات شيء أو نفيه ؟ لنستعرض كلمات اللغويين في بيان مفردتي الرب والإله وما يرادفهما ويرتبط بهما على نحو مفصل لأن مشكلتنا العلمية مع الوهابيين تتمحور حول التوحيد في الربوبية والألوهية والشرك فيهما ، وإليك بحث تفصيلي في المفردات المستعلمة في القرآن للتعبير عن الشرك .

١- أرباب من دون الله

إذا أردنا أن نستدل بالمنطلقات اللغوية للكلمة ، ينبغي أن يقال بأنه لو صحت الرؤية الوهابية بأن المشركين موحدون في الربوبية لكان القرآن مخطئا في مخاطبة المشركين بأنكم اتخذتم أربابا ، وذلك في عدة آيات ، منها قوله تعالى ﴿ **وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ** ﴾ آل عمران/ ٦٤ ، وقوله عز وجل ﴿ **وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا** ﴾ آل عمران/ ٨٠ ، وقال تعالى ﴿ **اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ** ﴾ التوبة/ ٣١ ، وقال تعالى ﴿ **أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ﴾ يوسف/ ٣٩.

وقد أشكل البعض عليهم بذلك ، فقال أحمد دحلان : " ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ **أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى** ﴾ الأعراف/ ١٧٢ ولم يقل ألست بإلهكم ، فاكتفى منهم بتوحيد الربوبية " [١] .

والوهابية تتملص من الإشكال بأن المقصود من كلمة الأرباب في تلك الآيات آلهة ، قال السهسواني : " المراد بالرب المعبود ، قال القرطبي : الرب المعبود ، وعن عكرمة في تفسير قوله تعالى ﴿ **وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ** ﴾ قال : يسجد بعضنا لبعض ، كذا قال الحافظ ابن كثير في تفسيره

(١) دعاوى المناوئين ص ٣٣٠ .

وغيره ، وقال الله تعالى في سورة التوبـة ﴿ **اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ ، فالمراد بالأرباب في تلك الآية هم المعبودون " [(١)] .

وسنناقش ذلك ، والمهم حينما نتبع كلمة الرب في اللغة نجدها بمعنى الخـالق المدبر ومنه التدبير المرتبط بهداية المخلوق ، ويظهـر ذلـك مـن جـواب موسـى لفرعون في قولـه تعـالى ﴿ **قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى ۞ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى** ﴾ ، وكذلك في قوله تعالى ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۞ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۞ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى** ﴾ الأعلى/١-٣ .

قال الخليل بن أحمد : " الربيون الذين صبروا من الأنبياء ، نسبوا إلى العبادة والتأله في معرفة الربوبية لله الواحد ربي ، ومن ملك شيئا فهو ربه لا يقال بغير الإضافة إلا لله عز وجل" [(٢)] .

قال الأزهري : " الرب هو الله تبارك وتعالى ، هـو رب كـل شـيء أي مالكـه وله الربوبية على جميع الخلق لا شريك له ، ويقال : فلان رب هـذا الـشيء أي ملكه له ... ، وكل من ملك شيئا فهو ربـه ، ﴿ **اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّـكَ** ﴾ أي عنـد ملكك ، يقال هـو رب الدابـة ورب الـدار ، وفلانـة ربـة البيـت وهـن ربـات الحجال ... ، ابن الأنبـاري : الـرب ينقـسم علـى ثلاثـة أقـسام : يكـون الـرب المالك ، ويكون الرب السيد المطاع ، قال الله تعالى ﴿ **فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْـرًا** ﴾ أي سيده ، ويكون الرب المصلح " [(٣)] .

---

(١) دعاوى المناوئين ص٣٤٢ ، ولكن سيأتي الكلام عن رأي ابن عبدالوهاب في هذه الآية وأن الحديث فيها عن الطاعة في تلقي الأحكام وتحليل الحرام وتحريم الحلال ، فليس الأرباب هنا هم المعبودون ؟! وسيأتي موضـع كلام ابن عبدالوهاب عن الآية .

(٢) العين ص ٣٢٩ .

(٣) تهذيب اللغة ج١٥ ص ١٢٨ .

قال إسماعيل الجوهري : " رب كل شيء : مالكه ، والرب : اسم من أسماء الله عز وجل ولا يقال في غيره إلا بالإضافة ، وقد قالوه في الجاهلية للملك ... والرباني : المتأله العارف بالله تعالى وقال سبحانه ﴿ كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ ﴾ ، ورببت القوم سستهم أي كنت فوقهم ... ورب الضيعة أي أصلحا وأتمها ، ورب فلان ولده يربه ربا وربّبه وتربّبه بمعنى أي رباه " [(١)] .

قال ابن فارس : " الراء والباء يدل على أصول ، فالأول : إصلاح الشيء والقيام عليه ، فالرب : المالك والخالق والصاحب ، والرب : المصلح للشيء ، يقال : رب فلان ضيعته إذا قام على إصلاحها ... والله جل ثناؤه الرب لأنه مصلح أحوال خلقه ...

والأصل الآخر : لزوم الشيء والإقامة عليه وهو مناسب للأصل الأول يقال أربت السحابة بهذه البلدة إذا دامت ...

والأصل الثالث : ضم الشيء للشيء ، وهو أيضا مناسب لما قبله ، ومتى أنعم النظر كان الباب كله قياسا واحدا ، يقال للخرقة التي جعل فيها القداح ربابة " [(٢)] .

قال الراغب : " الرب في الأصل التربية وهو إنشاء الشيء حالا بعد حال إلى حد التمام ، ولا يقال الرب مطلقا إلا لله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات نحو قوله تعالى ﴿ **بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ** ﴾ وعلى هذا قوله تعالى ﴿ **وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا** ﴾ أي آلهة وتزعمون أنهم الباري مسبب الأسباب ، والمتولي لمصالح العباد ، وبالإضافة يقال له ولغيره ... قال تعالى

(١) الصحاح ج١ ص ١٣٠ .

(٢) مقاييس اللغة ص ٣٧٨ .

﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ ، ولم يكن من حق الرب أن يجمع إذ كان إطلاقه لا يتناول إلا الله تعالى لكن أتى بلفظ الجمع فيه على حسب اعتقاداتهم لا على ما عليه ذات الشيء في نفسه ، والرب لا يقال في التعارف إلا في الله " [1] .

كل كلمات اللغويين تجتمع على أن كلمة الرب تطلق في الأصل على الخالق الملك المدبر لأمور الكون باعتبار أنه هو الموجد والمصلح الذي يسبب نمو الكائنات وبلوغها غايتها في الكمال .

لكن النكتة الأساسية التي يجب عليهم تبريرها هي عدم التزام الآيات والروايات بالأصل اللغوي للكلمة ، بل استعلمت الكلمة في الأعم من الخالق والمعبود كما اتضح ذلك من بعض الأمثلة التي نقلناها ، بل وسترى إقرارهم بذلك ، وستتضح مناقشتنا هذه أكثر عند بحث المفردة التالية .

٢- آلهة من دون الله

وهنا كذلك نوافقهم في الأصل اللغوي لكلمة الإله ، ولكن المشكلة التي تواجه الوهابيين هنا هي كالسابقة ، وخلاصتها : لو بقي الأصل اللغوي ملحوظا أي أن يقصد بالكلمة مجرد عبادة من عد إلها فكيف يستعملها في مورد رد شرك الربوبية في قوله تعالى ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ الأنبياء/ ٢٢ وكذلك قوله تعالى ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾ المؤمنون/ ٩١ ، فهل هناك معنى معقول لأن يقال لو كان فيهما معبودان إلا الله لفسدتا ؟! فالآية صريحة ومعناها لو كان مؤثران مستقلان

(١) المفردات ص ١٨٤ .

في تدبير شئون السماوات والأرض لفسدتا ، وهل يمكن التشكيك في أن الحديث عن الربوبية ؟!

نعم المعنى اللغوي الأولي للكلمة هو ما ذكروه ، قال الخليل بن أحمد قال في مادة (أله) : " والتأله التعبد قال رؤبة : [من الرجز] سبحن واسترجعن من تألهي ... ، والله لا تطرح الألف من الاسم إنما هو (الله) على التمام ، وليس (الله) من الأسماء التي يجوز منها اشتقاق فعل كما يجوز في (الرحمن الرحيم) ... ، ويسمون الأصنام التي يعبدونها آلهة ، ويسمون الواحد إلها افتراء على الله " [١] .

وقال إسماعيل الجوهري : " أله بالفتح إلاهة أي عبد عبادة ، ومنه قرأ ابن عباس (رض) (ويذرك وإلاهتك) بكسر الهمزة ، قال : وعبادتك، وكان يقول: إن فرعون كان يعبد في الأرض ، ومنه قولنا الله ، وأصله إلاه على فعال بمعنى مفعول لأنه مألوه أي معبود ، كقولنا : إمام فعال بمعنى مفعول لأنه مؤتم به فلما أدخلت عليه الألف واللام حذفت الهمزة تخفيفا لكثرته في الكلام " [٢] .

وقال ابن فارس : " أله الهمزة واللام والهاء أصل واحد وهو التعبد فالإله الله تعالى وسمي بذلك لأنه معبود ويقال : تأله الرجل إذا تعبد ... " [٣] .

الحق أنهما تستعملان ككلمتين مترادفتين

والذي نريد التنبيه عليه أن الكلمتين تستعمل إحداهما محل الأخرى دون مراعاة لأصلها اللغوي ، والسبب في ذلك أن الألوهية لا تنفك في ذهن العرف الديني عند البشر عن ربوبية ، وقد نبه إلى هذه الحقيقة الأزهري فيما نقله عن

---

(١) كتاب العين ص ٣٥ .

(٢) الصحاح للجوهري ج٦ ص ٢٢٢٣ .

(٣) معجم مقاييس اللغة ص ٦٩ .

البعض ، قال :" قال الليث : بلغنا إن اسم الإله الأكبر هو الله لا إله إلا الله وحده ... ، والتأله التعبد ... .

قال أبو الهيثم : فالله أصله إلاه ، قال الله جل وعز ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾ .

قال : ولا يكون إلها حتى يكون معبودا وحتى يكون لعابده خالقا ورازقا ومدبرا وعليه مقتدرا ، فمن لم يكن كذلك فليس بإله وإن عبد ظلما بل هو مخلوق ومتعبد .

قال : وأصل إله ولاه فقلبت الواو همزة كما قالوا : للوشاح إشاح وللوجاج إجاج ومعنى ولاه أن الخلق إليه يولهون في حوائجهم ويفزعون إليه فيما يصيبهم ويفزعون إليه في كل ما ينوبهم كما يوله كل طفل إلى أمه "[1] ، فلاحظ قوله : " ولا يكون إلها حتى يكون معبودا وحتى يكون لعابده خالقا ورازقا ومدبرا وعليه مقتدرا فمن لم يكن كذلك فليس بإله " ، فهذا هو الارتباط بين الأمرين في نظر العرف الديني حتى عند المشركين .

نعم أضاف الراغب احتمالات أخرى في تحديد المنطلق اللغوي لإطلاق كلمة إله بمعنى المعبود قائلا :

" وإله جعلوه اسما لكل معبود لهم ، وكذا الذات وسموا الشمس إلهة لاتخاذهم إياها معبودا وأله فلان يأله عبد ، وقيل : تأله فالإله على هذا هو المعبود .

وقيل : هو من أله أي تحير ، وتسميته بذلك إشارة إلى ما قال أمير المؤمنين : كل دون صفاته تحبير الصفات وضل هناك تصاريف اللغات ، وذلك أن العبد إذا تفكر في صفاته تحير فيها ... وقيل : أصله ولاه فأبدل من الواو همزة ،

---

(١) تهذيب اللغة ج٦ ص ٢٢٣ .

وتسميته بذلك لكون كل مخلوق والهاً نحوه إما بالتسخير فقط كالجمادات والحيوانات وإما بالتسخير والإرادة معا كبعض الناس ...

وقيل : أصله من لاه يلوه لياها أي احتجب ، قالوا : وذلك إشارة إلى ما قال تعالى : ﴿ **لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ** ﴾ والمشار إليه بالباطن في قوله ﴿ **وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ** ﴾ ، وإله حقه أن لا يجمع إذ لا معبود سواه ، لكن العرب لاعتقادهم أن ههنا معبودات جمعوه فقالوا : الآلهة ، قال تعالى ﴿ **أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا** ﴾ ... " [1] .

وكل المنطلقات التي ذكرها تجتمع على أن هناك عظمة مميزة في الموجود الذي يسمى بإله لوحظت في استعمال الكلمة ، عظمة ترتبط بقدراته الفائقة والمميزة بحيث لا يمكن أن يكون في مصاف المخلوقات التي تستمد قوتها من الغير بل هي قادرة بذاتها ، وقد لخصت في العبارة التي ذكرها الأزهري : " ومعنى ولاه أن الخلق إليه يولهون في حوائجهم ويفزعون إليه فيما يصيبهم ويفزعون إليه في كل ما ينوبهم ... " ، فكلمة (إله) وإن كانت بمعنى المعبود عند العرب ولكنه معبود انطلاقا من أن الخلق يولهون في حوائجهم إليه ويفزعون إليه في كل ما ينوبهم ، ولذا لا ينفك ذلك عن كونه مؤثرا ضارا ونافعا بنفسه لقدرته الذاتية المستقلة ، وبسبب ذلك أصبحت المفردتان تستخدم إحداهما كمرادفة للأخرى .

إقرار الوهابية بأن كلمتي الرب والإله تستعمل إحداهما مكان الأخرى

والحصيلة أن الاختلاف في المنشأ اللغوي للمفردتين كان واضحا في كلمات اللغويين ، لكن هذا لا يمنع أنهما في موارد استعمالهما في اللغة والقرآن

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص ٢١ .

والحديث تحل أحداهما مكان الأخرى من دون حاجة إلى قرائن وذلك للتلازم بين الأمرين في نظر العرف الديني .

وليس (الرب) و (الإله) هما الكلمتان الوحيدتان اللتان تستعملان على نحو المترادفتين مع اختلاف جذورهما اللغوية ، بل تجد مثل ذلك في كلمتي (الفقير) و (المسكين) ، فلكل منهما منشأ غير الآخر ، ولكن في جل استعمالات القرآن لا يلاحظ المنشأ والمنطلق اللغوي ، فعند استعمال إحداهما يقصد بها ما يقصد بالأخرى مع أن الفقير من حيث المنشأ هي بمعنى المكسور الفقار ، والمسكين بمعنى ساكن الحركة أي الخاضع الذليل [1] .

والوهابية تقر بهذه الحقيقة ، فقد قال ابن عبدالوهاب : " اعلم أن الربوبية والألوهية يجتمعان ويفترقان كما في قوله ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۞ مَلِكِ النَّاسِ ۞ إِلَهِ النَّاسِ** ﴾ ، وكما يقال : رب العالمين وإله المرسلين ، وعند الإفراد يجتمعان كما في قول القائل : من ربك ؟ مثاله الفقير والمسكين نوعان في قوله ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ** ﴾ ، ونوع واحد في قوله ﷺ : افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد إلى فقرائهم ، إذا ثبت هذا فقول الملكين للرجل في القبر : من ربك ؟ معناه من إلهك ، لأن الربوبية التي أقر بها المشركون ما يمتحن أحد بها ، وكذلك قوله ﴿ **الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا** ﴾ ، فالربوبية في هذا هي الألوهية ليست قسيمة لها كما تكون قسيمة لها عند الاقتران ، فينبغي التفطن لهذه المسألة " [2] .

وعليه لا تبقى قيمة للمنشأ اللغوي للكلمتين بعد أن أصبحت الكلمتان كالمترادفتين منذ الجيل الأول وفي جل استعمالات القرآن الكريم .

---

(١) راجع تهذيب اللغة ج٩ ص ١٠٢ ، وكذلك ج١٠ ص٣٩ .

(٢) دعاوى المناوئين ص ٣٣٥ ، نقلا عن مجموعة مؤلفات الشيخ ج٥ ص ١٧ .

يبقى إشكال مهم

فتشبيه ابن عبدالوهاب ومن سار على نهجه الكلمتين بمفردتي الفقير والمسكين مع الاستشهاد بما نقل من قول بعض علماء اللغة بأنهما إذا اجتمعا افترقتا في المعنى ، وإذا افترقتا اجتمعتا في المعنى يعني أن الكلمتين إذا افترقتا كان لهما معنى واحد ، في حين أن الوهابية لا تقول بذلك ، فلا تتحدث عن معنى جامع يشمل الأمرين عند الافتراق ، بل ما تذهب إليه أن الأولى عند الافتراق تترك معناها وتصبح بمعنى الثانية ، وكذلك الثانية تصبح بمعنى الأولى وتترك معناها الأصلي .

وحاصل الإشكال أن مفردتي الرب والإله على ضوء كلامه الأخير ينبغي أن تفسر كل منهما بمعنى غير الآخر عند الاجتماع كما في قوله تعالى ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۞ مَلِكِ النَّاسِ ۞ إِلَهِ النَّاسِ** ﴾ سورة الناس ، ولكن عند الافتراق وعدم ذكر القرآن إلا إحدى المفردتين يجب أن تكون إحداهما بمعنى الآخر ، وكما في الممثل به ستكون كلمة الفقير بمعنى المسكين والمسكين بمعنى الفقير ، فتشيران إلى معنى جامع بينهما ، فهل توافق الوهابية على هذا ، فتكون كلمة الإله بمعنى الرب والرب بمعنى الإله موارد الافتراق وهي جل استعمالاتها في القرآن الكريم ؟! وما هو المعنى الجامع بينهما ؟ هذا الإشكال اللغوي الذي يجب عليهم علاجه .

وبتقرير آخر تكمن المشكلة في أن الوهابية عمليا ترى بأن الموارد التي استعملت فيها كلمة الرب بمعنى الإله تركت معناها الأول فلم تستعمل في معنى واحد يشملهما وكذلك الموارد التي استعلمت كلمة الإله بمعنى الرب ؟! ولذا تجد ابن عبدالوهاب وكما نقلنا قبل قليل يقول : " فقول الملكين للرجل في القبر : من ربك ؟ معناه من إلهك ، لأن الربوبية التي أقر بها المشركون ما

يمتحن أحد بها ، وكذلك قوله ﴿ **الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا** ﴾ ، فالربوبية في هذا هي الألوهية ليست قسيمة لها كما تكون قسيمة لها عند الاقتران ، فينبغي التفطن لهذه المسألة " ، في حين مقتضى التشبيه بالفقير والمسكين أن تقول أن كلمة الرب يصبح المقصود بها ما يعم الإله لا أن تعتبر أن كلمة الرب هنا تركت معناها وأصبحت بمعنى الإله !! وهذا ما قلناه من أن الكلمتين أصبحتا تستعملان في القرآن الكريم بمعنى واحد فهما كالمترادفتين في أغلب موارد استعمالها .

ولذا قال الدمياطي وهو يشرح نصا فيه كلمة الفقراء : " قوله : وسهم للفقراء اليتامى ، المراد بالفقراء ما يشمل المساكين لأنهما إذا افترقا اجتمعا وإذا اجتمعا افترقا " [١] .

وقال الآلوسي في آية فيها كلمة المساكين : " والمراد بالمسكين ما يعم الفقير ، وقد قالوا المسكين والفقير إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا " [٢] .

فكما قالوا يجب أن يقال المراد بالرب ما يعم الإله لا أنها تركت معنى الرب وأصبحت بمعنى الإله ، وهذا ما نؤكد عليه من أنهما أصبحتا كالمترادفتين ، نظرا لتلازم الاعتقاد بالربوبية بالاعتقاد بالألوهية في العرف العام ، فالعامة حتى عامة المشركين يرون الرب إلها والإله ربا ، لكن على نحو يحفظ فيه الفرق بين دور كبير الآلهة أو كبير الأرباب وصغار الآلهة أو صغار الأرباب في رؤية المشركين الضالة .

والحصيلة أن الأمر العجيب المدعى هنا من قبل الوهابيين هو أن تكون لكل مفردة معنى غير المقصود بالمفردة الأخرى ، ولكن تستعمل الأولى مكان الثانية

(١) إعانة الطالبين ج٢ ص ٢٠٧ .

(٢) روح المعاني ، المجلد الخامس عشر ، ج ٢٨ ص ٢٥ .

والثانية مكان الأولى في جل موارد استعمالها في القرآن الكريم ، ففيما يتعلق بقوله تعالى ﴿ **الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا** ﴾ يقول المقصود إلهنا الله وليس ربنا ، وفي قوله تعالى ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾ يقول المقصود أرباب وليس آلهة .

٣- شركاء من دون الله

تقوم الرؤية الوهابية على أن الشرك عند جل الأمم يختص باتخاذ معبود آخر مع الله من دون أن يعتقد المشركون بوجود تأثير مستقل للشريك في الخلق وتدبير مملكة الله ، ولكني أعتقد أن من الإشكالات الأساسية التي عليهم مواجهتها تقييد الشريك المزعوم لله في القرآن بأنه شريك في الملك كما في قوله تعالى ﴿ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا** ﴾ الإسراء/ ١١١ فهذا التقييد يتنافي مع رؤيتهم تلك .

فالآية تعرض أنواعا من الخلل في التوحيد عندهم ، أحدها اتخاذ الولد وهو نوع من الشرك واقع عند العرب ، فلا بد أن يكون هو شرك من قبيل ما في قوله تعالى ﴿ **وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ** ﴾ أي تخيل وجود شريك لله في الملك ، وهذا يعني أن شرك المشركين لا يقتصر على شرك العبادة ، فلا يصح أن تطلق عبارة ﴿ **شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ** ﴾ على الإله المعبود فقط الذي ليس له من أمر الملك شيئا كما هو التصوير الوهابي للشريك ، كما أن الآية تعرض أمرا ثالثا في قوله تعالى ﴿ **وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ** ﴾ كنوع من الشرك .

قال الماوردي : " ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ ، لأنه واحد لا شريك له في ملك ولا عبادة " [(١)] ، وكذلك قال الشوكاني : " ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ أي مشارك له في ملكه وربوبيته كما تزعمه الثنوية ونحوهم من الفرق القائلين بتعدد الآلهة " [(٢)] .

وقال الآلوسي : " ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ ظاهره أنه رد على الثنوية وهم المشركون في الربوبية ، ويجوز أن يكون كناية عن نفي الشركة في الألوهية فيكون ردا على الوثنية " [(٣)] ، عموما هو يقر إن قوله الثاني خلاف الظاهر ، والكناية تكون بلوازم يقر بها المخاطب ولا ينكرها .

وعموما كأن الآية في صدد بيان أنواع من المعتقدات الضالة الشركية ، أولها الاعتقاد بوجود ولد لله والثاني الاعتقاد بوجود شريك لله في الملك والثالث الاعتقاد بوجود الولي والنصير الذي يستعين به في إدارة مملكته ، والثاني والثالث صريحان في وجود قدرة لمن اعتقدوا بأنه شريك أو ولي ، فكيف تصور عقيدتهم بوجود الولد بأنه لا يمتلك القدرة الذاتية المستقلة ؟!

وهناك آيات أخرى يقيد فيها الشريك بأنه شريك في السماوات والأرض وليست إلا هي عبارة أخرى عن الملك كما في قوله تعالى ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ سبأ/٢٢ ، وتجد في قوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ

---

(١) النكت والعيون ج٣ ص ٢٨٢ ، ومثله القرطبي في الجامع لحكام القرآن ، المجلد ٥، ج١٠ ص ٣٠٩ .

(٢) فتح القدير ج٣ ص ٣١٥ .

(٣) روح المعاني ، المجلد التاسع ، ج١٥ ص ٢٨١ .

الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ فاطر/ ٤٠ [(١)] تقييدا واضحا بأن الشراكة إنما تكون في السماوات والأرض ، فهل هذه الشركة إلا شركة في تدبير السماوات والأرض ؟!

٤- أنداد من دون الله

فكلمة الند كلمة مهمة يتكرر استعمالها في القرآن كمرادف للشريك المزعوم ، وقد وردت الكلمة في عدة آيات ، قال تعالى ﴿ **فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً** ﴾ البقرة/ ٢٢ ، ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً** ﴾ البقرة/ ١٦٥ ، ﴿ **وَجَعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً** ﴾ إبراهيم/ ٣٠ ، ﴿ **إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا** ﴾ سبأ/ ٣٣ ، ﴿ **وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ** ﴾ الزمر/ ٨ ، ﴿ **قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا** ﴾ فصلت/ ٩ .

قال الأزهري : " عن الأخفش في قول الله جل وعز ﴿ **مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً** ﴾ قال : الند الضد والشبه ، وقوله ﴿ **وَجَعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً** ﴾ أي أضدادا وأشباها وفلان ند فلان ونديله ونديدته أي مثله وشبهه " [(٢)] .

قال الراغب : " نديد الشيء مشاركه في جوهره وذلك ضرب من المماثلة ، فإن المثل يقال في أي مشاركة كانت فكل ند مثل وليس كل مثل ندا ، ... قال ﴿ **فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً** ﴾ " [(٣)] .

---

(١) ومثله قوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ الأحقاف/ ٤ .

(٢) تهذيب اللغة ج١٤ ص ٥١ .

(٣) المفردات ص ٤٨٦ .

روى البخاري في صحيحه عن ابن مسعود قال : سألت النبي ﷺ : أي الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك " (١) .

ويجب إن أردنا اعتماد المعاني اللغوية لمفردات أن نقول إن الكلمة بمعناها اللغوي تدل على أن الشريك المزعوم مساو في نظر المشركين لله في قدراته ، ولذا سمي ندا ، فهي تساوق الكفؤ في سورة التوحيد .

ويدل على ذلك ما في شرح ابن حجر للباب المعنون عند البخاري باسم باب قوله تعالى ﴿ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً ﴾ قال : " قال ابن بطال : غرض البخاري في هذا الباب إثبات نسبة الأفعال كلها لله تعالى سواء كانت من المخلوقين خيرا أو شرا ، فهي لله تعالى خلق وللعباد كسب ، ولا ينسب شيء من الخلق لغير الله تعالى فيكون شريكا وندا مساويا له في نسبة الفعل إليه ، وقد نبه الله تعالى عباده على ذلك بالآيات المذكورة وغيرها المصرحة بنفي الأنداد والآلهة المدعوة معه ، فتضمنت الرد على من يزعم أنه يخلق أفعاله ... ، ومنها ما وبخ به الكافرين وحديث الباب ظاهر في ذلك ، وقال الكرماني : الترجمة مشعرة بأن المقصود إثبات نفي الشريك عن الله سبحانه وتعالى ، فكان المناسب ذكره في أوائل كتاب التوحيد ، لكن ليس المقصود هنا ذلك بل المراد بيان كون أفعال العباد بخلق الله تعالى ، إذ لو كانت أفعالهم بخلقهم لكانوا أنداداً لله شركاء له في الخلق ، ولهذا عطف ما ذكر عليه " (٢) .

(١) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى ﴿ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً ﴾ .
(٢) فتح الباري ج١٣ ص٤٩١ .

وما نريده شاهدا هو فهم ابن بطال وكذلك الكرماني من أنه لا يصدق على الند أنه ند إلا أن ينسب إليه الخلق فيكون شريكا لله في الخلق وفق اعتقاد المشركين الباطل .

٥- أولياء من دون الله

وقد استعملت كلمة الولي للتعبير عن الآلهة في عدة آيات منها ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** ﴾ الزمر/٣ ، وقال تعالى ﴿ **قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا** ﴾ الرعد/ ١٦ ، وقال تعالى ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ** ﴾ العنكبوت/ ٤١ ، وعن المؤمنين الموحدين يقول عز وجل ﴿ **قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء** ﴾ الفرقان/١٨ .

قال الأزهري : " قال الزجاج : يقرأ : وَلايتهم ووِلايتهم بفتح الواو وكسرها ، فمن فتح جعلها من النصرة والنسب ... ، منها المولى في الدين وهو الولي ، وذلك قول الله تعالى ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ** ﴾ ... ، وأما قوله تعالى ﴿ **وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ** ﴾ معناه : من يتبعهم وينصرهم " [١] .

قال ابن الأثير : " في أسماء الله تعالى (الولي) هو الناصر ، وقيل : المتولي لأمور العالم والخلائق القائم بها ... ، وقد تكرر ذكر (المولى) في الحديث ، وهو اسم يقع على جماعة كثيرة ، فهو الرب والمالك والسيد والمنعم والمعتق والناصر ... " [٢] .

---

(١) تهذيب اللغة ج١٥ ص ٣٢٢- ٣٢٥ .

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر ج ٥ ص ١٩٧ - ١٩٨ .

قال الراغب : " الولاء والتوالي أن يحصل شيئان فصاعدا حصولا ليس بينهما ما ليس منهما ، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان ومن حيث النسبة ومن حيث الدين ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد ، والولاية النصرة ، والولاية تولي الأمر ... والوالي الذي في قوله ﴿ **وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ** ﴾ بمعنى الولي ... وقوله ﴿ **وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ** ﴾ فيه نفي الولي بقوله عز وجل ﴿ **مِّنَ الذُّلَّ** ﴾ إذ كان صالحو عباده هم أولياء الله كما تقدم ولكن موالاتهم ليستولي هو تعالى بهم وقوله ﴿ **وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً** ﴾ "[1] .

والحق أنها حينما تطلق في القرآن ويوصف بها الله وتنفى عن الآلهة الأخرى تستعمل بمعنى الولي الذي ينصر مستقلا عن الله ، قال تعالى ﴿ **وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاء يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾ الشورى / ٤٦ ، وهو واضح من مقابلة ولاية الله بنفي النصرة عن الآلهة التي تدعى من دونه في قوله تعالى ﴿ **إِنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ۞ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلآ أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ** ﴾ الأعراف ١٩٦- ١٩٧ ، ويدل على ذلك مقارنته بالنصرة في عدة آيات منها قوله تعالى ﴿ **مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ** ﴾ البقرة /١٢٠ وهكذا تترافق الكلمتان في عدة آيات كقوله عز وجل ﴿ **وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيرًا** ﴾ النساء/٤٥ ، وحينما تنفى عن الآلهة الأخرى يقول ﴿ **مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا** ﴾ النساء / ١٢٣ .

(١) المفردات ص ٥٣٣ – ٥٣٥ .

وهكذا تحصر الولاية بالله بعد الحديث عن وجود الناصر في قوله تعالى ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ۞ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ الكهف/٤٣- ٤٤ .

ويدل على ذلك أيضا تشبيه من اتخذ وليا غير الله بمثل العنكبوت ، قال تعالى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ العنكبوت/٤١ - ٤٢ .

قال ابن كثير : " هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله يرجون نصرهم ورزقهم ويتمسكون به في الشدائد فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه فليس في أيدي هؤلاء المشركين من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت ، فإنه لا يجدي عنه شيئا ، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء " (١) .

وفي قوله تعالى ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ الشورى/٩ تخصيص للولاية بالله دون غيره من الموجودات ، وكذلك الحال في قوله تعالى ﴿ قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ ۞ إِنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ۞ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ الأعراف/١٩٥- ١٩٧ ، وهكذا قوله تعالى ﴿ وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ يونس/٣٠ ، فما يفترون من الآلهة والشركاء .

---

(١) تفسير ابن كثير ج٣ ص ٤٢٤ .

والحصيلة أن الآيات تبين أن المقصود بالناصر والولي المستقل في النصرة شيء واحد ، واتخاذ أي ناصر آخر وولي آخر تعتقدون باستقلاله في النصرة والولاية من دون الله هو الشرك والكفر بعينه .

فالولاية الخاصة بالله التي إذا أعطيت لغير الله تعد شركا هي التي تقيد بالاستقلال عن الله ، وذلك لوضوح أن ولاية غير الله جائزة في بعض الحالات وليست من الشرك في شيء كما قال عز وجل ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ﴾ الممتحنة/٨ - ٩ ، فالآية لا تنهى عن ولاية من لا يقاتل ، فإذا كان الولي في الحالتين بمعنى الناصر ، فلا بد أن نقول أن المنهي عنه وما يعد شركا هو أن يتخذ إلها آخر ناصرا يعتقد أنه ينصره مستقلا عن الله ، وأما أن يتخذ إنسانا آخر كناصر ومعين وولي في النوائب والملمات من دون الاعتقاد بأنه مستقل عن الله فلا يعد هذا شركا أبدا ، بل هذا ما يدعو إليه في مثل قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ النساء/ ١٤٤ ، فهناك أولياء حث القرآن على ولايتهم فقال تعالى ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ التوبة/ ٧١ .

وما نريد قوله إن الشرك لا يمكن أن يصدق على مجرد اتخاذ الناصر فهذا لا ينافي التوحيد نظرا لأمر الله باتخاذ الأولياء والناصرين من المؤمنين ، بل سمي الأنصار في القرآن بالأنصار لأنهم نصروا إخوانهم المهاجرين ، إنما الشرك في

اتخاذ الناصر الذي يعتقد الإنسان استقلاله عن الله ، وهذا يعني اتخاذه إلها من دون الله .

ولذا تجد في قوله تعالى ﴿ **قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكَينَ** ﴾ الأنعام/١٤ حديثا عن أن اتخاذ الولي من دون الله هو موجب الشرك ثم تنتهي بقوله تعالى ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ** ﴾ الأنعام/١٧ فقوله لا كاشف للضر غير الله لا يمكن أن يكون إلا خطابا لمن اعتقد بوجود من يكشف الضر غير الله ومستقلا عن الله وإلا إذا كان يعتقد بأن الله هو كاشف الضر وأن الآلهة ليس بيدها غير الشفاعة لما صح أن يرد بهذا الكلام ، لأنه سيقول أنا أعلم أنه لا يكشف الضر إلا الله ، وليست الآلهة الأخرى إلا شفيعة إليك يا رب كي تكشف الضر .

ولا أجد وجها يمكن للوهابية أن تدفع به هذا الاستدلال بمفردة (الولاية) القائم على اعتبار الاستقلال عن الله في النصرة حيثية داخلة في حقيقة الولي المتخذ من دون الله ، فلا ينفعهم دعوى أن الولاية هنا بمعنى الشفاعة وأن نصرتهم ليست من خلال قدرة مستقلة بل من خلال التوسط والشفاعة عند الإله الأكبر ، لأن النصرة غير المستقلة جائزة وغير مرفوضة في القرآن ولا تعد شركا كما بينا ، وعليه سيكون المعنى في آية الزلفى ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى**﴾ الزمر/٣ ، والذين اتخذوا من دونه آلهة لتنصرهم معتقدين بأنها تنصرهم بقدرتها الذاتية مستقلة عن قدرة الله

وهيمنته على الكون يقولون : إنما عبدناها كي تقربنا إلى الله ، وسيأتي بيان وجه قولهم الأخير .

وخلاصة اتخاذ الناصر الذي هو غير مستقل عن الله في عقيدة المتخذ ليس من الشرك في شيء ، إذ كيف يمكن أن يعد مجرد ذلك موجبا للشرك وقد حث عليه القرآن في موارد عدة ؟ فلا بد من التقييد باعتقاد استقلاله عن الله في النصرة والتأييد .

ضر ونفع الآلهة هو نفسه نصرة الأولياء من دون الله

إن ظاهر قوله تعالى وهو يذكر خطاب المشركين لنبي الله هود عليه السلام ﴿ **إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ** ﴾ هود / ٥٤ نسبة الضر إلى نفس الآلهة ، بل هو ظاهر مثل قوله تعالى ﴿ **وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا** ﴾ مريم / ٨١ ، أي تحدث العز والنصر بنفسها وذلك لما تملك من قدرات خارقة - في عقيدتهم الباطلة - والتي بسببها عدت من الآلهة .

والذي يدل على اعتقادهم بأن الآلهة ترزق وفق قدراتها الذاتية كما هي قدرة الله في الرزق قوله تعالى ﴿ **إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ** ﴾ العنكبوت / ١٧ ، فلا أعتقد أن من يؤمن بأن الرزق من الله وأن الآلهة مجرد وسطاء وشفعاء في الرزق يقال له ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا** ﴾ فجوابهم سيكون واضحا : نحن نقول إنها لا ترزق والذي يرزق هو الله ، ولكن نطلب منها أن تتوسط عند الله كي يرزقنا .

ومن الآيات التي تتحدث عن هذا الأمر قوله تعالى ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۞ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ۞ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ الزمر/ ٣٦ – ٣٨ .

ووجه الاستدلال بالآية أنها تصرح بأن المشركين يخوفون الرسول ﷺ بآلهتهم فقد قال البغوي في تفسير الآية : " ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ وذلك أنهم خوفوا النبي ﷺ معرة معاداة الأوثان ، وقالوا : لتكفن عن شتم آلهتنا أو ليصيبنك منهم خبل أو جنون " [١] ، فكلامهم ظاهر بنسبة الإضرار إلى آلهتهم .

والذي يؤيد ذلك أن السورة تتحدث وبعد أربع آيات عن الشفاعة وبصيغة يظهر أنها حديث عن موضوع آخر غير موضوع الضر والنفع الذي تم الحديث عنه ، قال عز وجل في الآيات بعدها ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ۞ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ الزمر/٤٣ -٤٤ .

فكأن سياق الاستدلال في الآيات مر بمرحلتين وتفرع عن الثانية نتيجتان :

فبدأت أولا بأخذ الإقرار منهم بخالقية الله وعدم قدرة آلهتهم على الخلق – وسنبحث حقيقة هذا الإقرار مفصلا – ثم الانتقال في المرحلة الثانية إلى موضوعين لا يقرون بهما :

---

(١) تفسير البغوي ج٤ ص ٦٩ .

أولهما : عدم قدرة الآلهة على الضر والنفع الذاتيين في الآية ٣٨ .

وثانيهما : عدم قدرة الآلهة على الشفاعة في الآية ٤٣ ، وهو ضر ونفع غير ذاتيين ، فبين القرآن أنه ليس في مقدور آلهتهم لا الضر والنفع الذاتيان ولا الشفاعة أي الضر والنفع غير الذاتي .

التأكيد على قيد ﴿ بِإِذْنِ اللّهِ ﴾ دليل على اعتقادهم استقلالية الآلهة

فهذا التقييد في بعض الآيات دليل على أن المواجهة ليست لمجرد الاعتقاد بأنها قادرة وتضر وتنفع ، بل هي مواجهة لاعتقاد أنها قادرة في قبال الله ومستقلا عنه ، فالقرآن يتحدث عن تمكين الله للمسيح في الخلق وإبراء الأكمه والأبرص وذلك بإذن الله وهي أهم مصاديق الضر والنفع التي يريدها الناس من الآلهة ، قال تعالى ﴿ **قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِىءُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِـــرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ** ﴾ آل عمران/٤٩ ويجب على كل مسلم أن يعتقد بذلك ، ولا يمكن أن يعد هذا شركا ما دام يؤمن بأنه بتمكين الله وإذنه لا أن المسيح مستقل في تلك القدرة أو أنه قادر على ذلك لأنه ابن الله الذي هو من جنسه ، وقدراته من قبيل قدرات الله ، فهو إله صغير كما المنقول في القرآن من عقيدة النصارى في المسيح ومثلها عقيدة المشركين في أصنامهم .

وكذلك الحال بالنسبة إلى الذي آتاه الله علما من الكتاب ، إذ لا شك بأن القدرة على الإتيان بعرش بلقيس قبل ارتداد الطرف ليست في مقدور البشر ، وهي قدرة خاصة بالله ، لكن منحها بعض عبيده كما في قوله تعالى ﴿ **قَالَ يَا أَيُّهَا المَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۞ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ**

الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ۞ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي ﴾ النمل/٣٨ – ٤٠ .

أبعد هذا يمكن أن يقال إن القرآن يرى أن الشرك يتحقق بمجرد الاعتقاد بضر كائن ونفعه – في الأمور التي ليست إلا بمقدور الله – ولو كانت تلك القدرة بتمكين الله وإذنه ؟ قطعا لا ، وإنما الشرك في الاعتقاد بأن هذا الموجود يضر وينفع لقدراته الذاتية باعتبار أنه إله مستقل عن الله في قدراته ويمكن الرجوع إليه من دون الحاجة لله نظرا لتلك القدرات الذاتية ، ومن ثم صح الاستدلال بالتضارب الذي سيحدث بين القوى المستقلة ومن ثم فساد الكون كما في قوله تعالى ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾ كما أسلفا .

وعليه الآيات التي على نحو قوله تعالى ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ** ﴾ يونس/١٨ وقوله تعالى ﴿ **يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ** ﴾ يقصد بها ما لا يضرهم ولا ينفعهم ضرا ونفعا ذاتيين كما هي عقيدة مشركي قريش الباطلة ، وأما من يعرف بأن ضر ونفع بعض الأنبياء والأولياء بتمكين من الله لا يمكن أن يعبدهم بل يعبد الله لا يشرك به شيئا .

٦- شفعاء من دون الله

قال تعالى ﴿ **أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاء قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ** ﴾ الزمر/ ٤٣ ، ويتكرر في القرآن إطلاق عبارة الشفعاء على الآلهة المزعومة وذلك في عدة آيات ، منها ﴿ **وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ**

أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء ﴾ الأنعام/ ٩٤ ، ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ ﴾ الزخرف/ ٨٦ ، ﴿ إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا ﴾ يس/ ٢٣ ، ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ ﴾ يونس/ ١٨ .

هذه المفردة ليست كسابقاتها ، فمن الواضح أن الاعتقاد بالشفيع في نفسه لا يمكن أن يكون موجبا للوقوع في الشرك نظرا لإقرار القرآن بوجود شفعاء غير الله للبشر لكن بعد إذنه قال تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ طه/ ١٠٩ ، ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ الأنبياء/ ٢٨ ، ولا يمكن أن تقيد بالاستقلالية كمفردة الولي من دون الله كما هو واضح .

قال الراغب : " الشفع ضم الشيء إلى مثله ويقال للمشفوع شفع ... والشفاعة الانضمام إلى آخر ناصرا له وسائلا عنه وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى ، ومنه الشفاعة يوم القيامة ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ ... وقوله ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ أي يدبر الأمر وحده لا ثاني له في فصل الأمر إلا أن يأذن للمدبرات والمقسمات من الملائكة فيفعلون ما يفعلونه بعد إذنه "[١] .

هل يمكن أن تكون الشفاعة موجبا للشرك ؟!

فالسؤال المهم : ما علاقة مفردة الشفاعة بالتوحيد ؟ وهل يعد اتخاذ الشفيع من دون الله شركا ؟ إن التوحيد هو الاعتقاد بأن الخالق المدبر والضار النافع هو

(١) المفردات ص ٢٦٣ .

الله وحده لا شريك له ولازم ذلك أن لا تكون العبادة إلا له أي لا يقصد الإنسان غيره في النسك والعبادات ، فبأي منهما أخل اتخاذ الشفيع ؟

وهنا لا يمكن أن نقول كما قلنا في الولي بأنه ينقسم إلى ولي مستقل في النصرة فيكون شركا وولي غير مستقل فلا يكون شركا ، إذ الشفاعة حقيقتها عدم الاستقلال لأنها تعني طلب الشفيع من المستشفع إليه وعدم استقلالية الشفيع في شيء ، نعم يمكن أن يقال شفاعة أذن الله فيها وشفاعة لم يأذن بها ، وتعبير لم يأذن الله يتكرر في القرآن بهذا اللحاظ ، والمهم ما دامت الشفاعة في نفسها لا يمكن أن تكون موجبا للشرك ينبغي تبرير ورود مثل عبارة من دون الله شفعاء أو عبارة الشفعاء الشركاء في القرآن .

الواضح أن عبارة شفعاء من دون الله تختلف عن الباقي العبارات كشركاء من دون الله وآلهة من دون الله وأولياء من دون الله ، فمن دون الله شفعاء هي إما أن يكون المقصود من عبارة من دون الله يعني من دون إذن الله ، خلافا للموارد السابقة التي قصد بها شركاء مع الله وآلهة مع الله وأولياء مع الله ، إذ لا يصح أن نقول شفعاء مع الله لأن الله نفسه ليس شفيعا بل مستشفع إليه .

الأولى في تفسير عبارة من دون الله شفعاء

لكن الأولى أن تحمل العبارة على أمر آخر ، خلاصته أن أصلها آلهة شفعاء من دون الله وحذف الموصوف أي كلمة آلهة ، فوصف آلهتهم بالشفاعة أمر زائد على اتصافها بالألوهية كما في قوله تعالى ﴿ **وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء** ﴾ الأنعام/ ٩٤ ، فالآية تتحدث عن شركاء وصفوا بأنهم شفعاء ، فذكرت وصفين متمايزين لآلهتهم المزعومة .

ومع ملاحظة أن حقيقة الشرك متحققة قبل صفة الشفاعة تكون صفة الشفاعة زائدة على تلك الحقيقة ، وبعبارة أخرى ليس الاستشفاع محقق الشرك، ولا الشفاعة والشرك عباراتان مختلفتان عن حقيقة واحدة هي شرك العبادة .

وعليه فإن وصف الآلهة بأنهم شفعاء من دون الله ينطلق من كونها في الأصل وصفا لآلهتهم ، فهي آلهة شفعاء ، قال تعالى ﴿ **أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا** ﴾ يس/٢٣ ، فربوبيتها وألوهيتها شيء وشفاعتها شيء آخر ، فأصبح القرآن في بعض الموارد يستخدم هذا الوصف أي شفعاء بدل الاسم أي آلهة ، وأصبحت عبارة من دون الله شفعاء تحل محل عبارة من دون الله آلهة ، وكأنها حذف للموصوف وإحلال للصفة محلها نظير حذف المضاف في قوله تعالى ﴿ **وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ** ﴾ وإحلال المضاف إليه محلها ، فهي في الأصل اسأل أهل القرية .

ونهاية الموجب للوقوع في الشرك الاعتقاد بربوبية وألوهية الموصوف بأنه شفيع ، ولكن حيثيات الطلب منها اختلفت ، فلأنها لها سمة الربوبية تطلب من الحوائج مباشرة ولأنها شافعة عند الإله الأكبر تطلب منها الشفاعة .

ولا يضر هذا التصوير الحصر الموجود في آية الزلفى ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** ﴾ الزمر/ ٣ لأنه حصر لسبب عبادة الآلهة الصغيرة بالتقرب من الله ، من دون أن تحصر قيمة الآلهة في ذلك ، فعبادتها بقصد التقرب إلى الله لا يعني انتفاء أدوار أخرى لها ، أهمها طلب النصرة الذاتية فيما أوكل لها من شئون الكون ، وليس هذا الطلب بمجرده عبادة .

لذا قال ابن عاشور في تفسيره : " فالقصر لا ينافي أنهم أعدوهم لأشياء أخر إذا عدوهم شفعاء واستجدوهم في النوائب واستقسموا بأزلامهم للنجاح كما هو ثابت في الواقع " [١] .

والأرجح إما القصر إضافي بلحاظ أنهم اتهموا بتوهين الإله الأكبر بعبادة غيره فردوا بقولهم بل نحن نعبدهم تقربا لله الأكبر ، أو أنهم كانوا كاذبين في دعواهم أن علة عبادتها مجرد التقرب لله ، فكان جوابهم جواب المستعجل المحرج كما يظهر من ذيل الآية ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ** ﴾ ، وقد علق ابن عاشور على هذا المقطع من الآية بقوله : " يجوز أن يكون خبرا ثانيا عن قوله ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء** ﴾ وهو كناية عن كونهم كاذبين في قولهم ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ** ﴾ " [٢] ، وسيأتي بحث مفصل حول الآية في الفصل الثاني عند الحديث عن شرك العبادة .

ومثل عبارة من دون الله شفعاء (من دون الله قربانا) في قوله تعالى ﴿ **فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً** ﴾ الأحقاف/ ٢٨ فالمعنى من دون الله آلهة يتقرب بها إلى الله ، وكما قلنا في الشفعاء فإنه لا يمكن أن يقال إن مجرد اتخاذ وسيلة للتقرب إلى الله موجب للوقوع في الشرك ، كيف والقرآن يصرح بأن إراقة الدم من وسائل التقرب لله ، ويتقبل أحد قرباني ابني آدم ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ** ﴾ المائدة / ٢٧ ، فلا شك أن الشرك ليس في مجرد اتخاذ الوسائل المقربة بل الشرك في ألوهية من تقرب به ، فمن الواضح أن تقدير الكلام : اتخذوا من

---

(١) التحرير والتنوير ج٢٤ ص ١٤ .

(٢) المصدر السابق ج٢٤ ص ١٥ .

دون الله آلهة موصوفة بأنها معبودة مقربة إلى الله وفق زعمهم ، ولكن هنا ذكر الوصف والموصوف مع القلب ، وأما الآية التي فيها كلمة الشفعاء فقد ذكر الوصف وترك الموصوف فقال تعالى ﴿ **أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاء** ﴾ الزمر/٤٣ أي آلهة شفعاء .

ويدل على ذلك استخدام عبارة شهداء من دون الله في قوله تعالى ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ البقرة/ ٢٣ ، فقد فسر من قبل المشهور بأن المقصود بالشهداء الآلهة ، ولا يمكن أن يكون اتخاذ الشهداء في الحياة من موجبات الشرك ، ولذا لا بد أن تكون عبارة شهداء من دون الله بمعنى آلهة شهداء من دون الله ، وحذفت كلمة آلهة وحل محلها كلمة شهداء .

قال البغوي في تفسيره : " ﴿ **وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم** ﴾ أي واستعينوا بآلهتكم التي تعبدونها ﴿ **مِّن دُونِ اللّهِ** ﴾ " [١] .

قال ابن الجوزي : " وفي شهدائهم ثلاثة أقوال : أحدها : أنهم آلهتهم قاله ابن عباس والسدي ومقاتل والفراء قال ابن قتيبة : وسموا شهداء لأنهم يشهدونهم ويحضرونهم وقال غيره : لأنهم عبدوهم ليشهدوا لهم عند الله " [٢] ، وكما تلاحظ كل الحيثيات التي ذكرت لا توجب الشرك في نفسها .

هذا ما ينبغي أن يقال بناء على أن ألوهيتها تنطلق عند المشركين من أنها تضر وتنفع في ذاتها مستقلا عن الله في خصوص ما تقدر عليه بنفسها لذا هي ولية ناصرة ، وهي بلحاظ آخر شافعة في الحاجات التي لا تقدر عليها بنفسها بل

---

(١) تفسير البغوي ج١ ص ٢٧ .

(٢) زاد المسير ج١ ص ٤٣ .

هي بيد الله الإله الأكبر ، وهذه الشفاعة هي الذريعة التي تمسكوا بها لتبرير عبادة الآلهة الصغيرة عندما أشكل عليهم بأن عبادتها لا وجه لها مع إقراركم بالله الإله الأكبر .

تكرر نفي الولي والشفيع معا دليل على أنهما نوعان من التأثير

وعلى ضوء ما سبق لا يمكن أن تكون كلمتا الولي والشفيع اللتان تتكرران معا في عدة آيات بمعنى واحد قال تعالى ﴿ **وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾ الأعراف / ٥١ ، بل هما بمعنيين مختلفين أحدهما تعني القدرة المباشرة والثاني القدرة غير المباشرة النابعة من التوسط عند الإله الأكبر ، ومثلها الآيات التي تنفي وجود ولي أو شفيع يوم القيامة كقوله تعالى ﴿ **أَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ** ﴾ الأنعام / ٥١ فهي تشكل دليلا على أن هناك نوعين من النفع والضر المتخيل عند المشركين ، فوصف الولي ليس مرادفا لوصف الشفيع ، إذ لو كانت الطريقة الوحيدة التي تستطيع الآلهة النفع والضر من خلالها هي الشفاعة عند الإله الأكبر لما كان وجه لوصفها بأنها ولية ناصرة إضافة إلى كونها شافعة ؟! لا بد أن هناك شيئا زائدا في نظر المشركين وهو قدرتها الذاتية على نصرة من اتخذها وليا ، فكلتا المفردتين استعملت في معنى غير المعنى التي استعملت بها الأخرى ، فالولي ينصر بنفسه والشفيع بالتوسيط عند الغير ، وقد بينا فيما سبق معنى اتخاذ الأولياء من دون الله في القرآن الكريم .

تنبيه مهم :

يتكرر في القرآن الحديث عن شرك المشركين بعبارة ﴿ **مِن دُونِ اللّه** ﴾ كما في قوله تعالى ﴿ **ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۞ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا** ﴾ غافر/ ٧٤ ، والمقصود بمن دون الله أي مع الله ، لأن المشركين اعتقدوا بالله لكن كإله أكبر معه آلهة صغيرة ، وكأن مرجع هذا الاستعمال من دون وحدانية الله أو من دون الله الواحد ، لكن منشأه اللغوي يقوم عل أساس إشراك من هو دون الله مرتبة .

قال البيضاوي : " ومعنى ﴿ **دُونِ** ﴾ أدنى مكان من الشيء ومنه تدوين الكتب لأنه إدناء البعض من بعض ، ودونك هذا أي : خذه من أدنى مكان منك ، ثم استعير للرتب ، فقيل : زيد دون عمرو أي في الشرف ومنه الشيء الدون ، ثم اتسع فيه فاستعمل في كل تجاوز حد إلى حد وتخطي أمر إلى آخر ، قال تعالى ﴿ **لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُـؤْمِنِينَ** ﴾ أي لا يتجاوزوا ولاية المؤمنين إلى ولاية الكافرين ، قال أمية : يا نفس مالك دون الله من واق ... ... ، أي إذا تجاوزت وقاية الله فلا يقيك غيره " [1] .

(١) تفسير البيضاوي ج١ ص ٣٩ .

ثانيا : العرض القرآني لعقيدة المشركين

عقيدة المشركين محورها الشركي الاعتقاد بوجود أبناء لله

الطامة في عقيدة المشركين تتمثل في ادعاء وجود أبناء وبنات لله تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، فهل يعقل مع هذا أنهم كانوا يرون أن الأبناء أو البنات غير مستقلين في الضر والنفع أم الصحيح أنهم نظروا إلى الأبناء المزعومين كنظرهم إلى أبناء الملوك ، فإن الابن له النفوذ المستقل والإمكانية المستقلة التي تمكنه من خلافة الأب في كثير من أمور المملكة ؟

وهذه المقالة أقبح أقوال العرب بل أقبح ما في جاهليتهم ، والقرآن ذكر هذه العقيدة في القرآن مبينا أنها أقبح مقالات مشركي العرب فقال تعالى ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۞ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۞ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۞ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۞ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۞ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا** ﴾ مريم/٨٨ - ٩٣ ، ولذا كان الأمر الوحيد الذي لا يمكن أن يغفر من دون توبة لقوله تعالى ﴿ **إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء** ﴾ النساء/٤٨ .

قال ابن كثير : " قال ابن جرير ... عن ابن عباس في قوله ﴿ ... **أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا** ﴾ قال إن الشرك فزعت منه السماوات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين وكادت أن تزول منه لعظمة الله " [1] .

---

(١) تفسير ابن كثير ج٣ ص ١٤٦ .

وتعددت الآيات التي تتحدث عن اعتقادهم الباطل بوجود أبناء لله تجدها في علة مواضع ، منها قوله تعالى ﴿ **وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ** ﴾ البقرة/١١٦ ، وقوله عز وجل ﴿ **قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ** ﴾ يونس/٦٨ ، وقال عز وجل ﴿ **وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا** ﴾ الكهف/٤ .

وقد حدد آيات سورة النجم أسماء آلهتهم التي اعتقدوا أنها بنات الله ، قال تعالى ﴿ **أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ۞ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ۞ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى ۞ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ۞ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ** ﴾ النجم/١٩ – ٢٣ .

قال الطبري في تفسيرها : " يقول تعالى ذكره أفرأيتم أيها المشركون اللات وهي من الله ألحقت فيه التاء فأنثت كما قيل عمرو للذكر وعمرة للأنثى وكما قيل للذكر عباس ثم قيل للأنثى عباسة فكذلك سمى المشركون أوثانهم بأسماء الله تعالى ذكره وتقدست أسماؤه فقالوا من الله اللات ومن العزيز العزى وزعموا أنهن بنات الله تعالى الله عما يقولون وافتروا " [(١)] .

قال ابن كثير : " يقول تعالى مقرعا للمشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان واتخاذهم لها البيوت مضاهاة للكعبة التي بناها خليل الرحمن عليه السلام ... قال ابن جرير وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله فقالوا اللات بتشديد التاء ... ثم قال تعالى ﴿ **أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى** ﴾ أي أتجعلون له ولدا وتجعلون ولده أنثى وتختارون لأنفسكم الذكور ... ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ**

(١) تفسير الطبري ج٢٦ ص ٧٧ .

الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى ﴾ يقول تعالى منكرا على المشركين في تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى وجعلهم لها أنها بنات الله تعالى الله عن ذلك " [١] .

قال ابن تيمية وهو يتحدث عن الآيات السابقة : " وهذه الثلاثة المذكورة في هذه السورة هي الأوثان العظام الكبار التي كان المشركون ينتابونها من أمصارهم ، فاللات كانت حذو قديد بالساحل لأهل المدينة ، والعزى كانت قريبة من عرفات لأهل مكة ، ومناة كانت بالطائف بثقيف وهذه الثلاث هي أمصار أرض الحجاز " [٢] .

وقال الشوكاني في (فتح القدير) :

" ﴿ **أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى** ﴾ أي كيف تجعلون لله ما تكرهون من الإناث وتجعلون لأنفسكم ما تحبون من الذكور يل وذلك قولهم إن الملائكة بنات الله وقيل : المراد كيف تجعلون اللات والعزى ومناة وهي إناث في زعمكم شركاء لله ومن شأنهم أن يحتقروا البنات " [٣] .

نعم يظهر من قوله تعالى ﴿ **وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ۞ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۞ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** ﴾ الأنعام/١٠٠- ١٠٢ أن بعضهم جعل أبناء ذكورا لله كما جعل له الإناث .

---

(١) تفسير ابن كثير ج٤ ص ٢٧١ .

(٢) مجموعة الفتاوى ج٢ ص ١٥٩ .

(٣) فتح القدير ج٥ ص ١٣١ .

وتجد التصريح بعقيدتهم أن الملائكة بنات الله في قوله تعالى ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۞ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۞ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ** ﴾ الأنبياء/٢٦- ٢٩ .

المهم لا شك بأنها عقيدة أساسية عند مشركي العرب تحدث عنها القرآن بشكل واسع ، وهي عقيدة قامت على الاعتقاد بأن للأبناء شأن في الربوبية وإن لم يكن كشأن الأب الإله الأكبر ، ويمكن بيان ذلك من خلال نقاط التالية :

أولا : ضرورة التجانس بين الابن والأب دليل على شركهم في الربوبية

فالأمر الأول الذي يبرز أنهم اعتقدوا بأن للأبناء المزعومين قدرات ذاتية خارقة هو ضرورة وجود تجانس في ماهية الأب والابن وإلا لم يكن ابنا ، ويمكن أن نقول بأن منطلق تصورهم الباطل مذكور في قوله تعالى ﴿ **وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۞ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ الصافات/١٥٨ ، فعن مجاهد قال : " قال كفار قريش : الملائكة بنات الله ، فسأل أبو بكر من أمهاتهم ؟ فقالوا : بنات سروات الجن ، يحسبون أنهم خلقوا مما خلق منه إبليس ، وعن قتادة : " قالت اليهود : إن الله تبارك وتعالى تزوج إلى الجن فخرج منهما الملائكة " [1] .

(١) تفسير الطبري ، المجلد الثاني عشر ، ج٢٢ ص ١٢٩ .

وقال القرطبي : " القائل ذلك كنانة وخزاعة ، قالوا : إن الله خطب إلى سادات الجن فزوجوه من سروات بناتهم ، فالملائكة بنات الله من سروات الجن " [١] .

وظاهر قوله تعالى ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ** ﴾ أنهم يريدون بعقيدتهم تلك أن يقولوا بأن الملائكة متجانسة مع الله ، فيردهم القرآن بقوله ﴿ **بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ** ﴾ ، ويؤيده ما في قوله تعالى ﴿ **وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۞ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا** ﴾ ، فكل الموجودات عبيد لا أكثر ، فهي مخلوقات لله ولا ترتقي إلى صفة الألوهية ولا تجانس الله ولا تشارك الله في شيء من ذلك ، وهكذا تجد إشارة إلى ذلك في قوله تعالى ﴿ **لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ** ﴾ النساء / ١٧٢ ، فالآيات تريد أن تبين أن الملائكة ليست آلهة أبناء لله وفوق جنس العبيد المخلوقين لله بل هم كغيرهم من العبيد الذين يجب أن يعبدوا الله عز وجل .

لذا ينبغي الوقوف عند قول القرطبي : " ومن أجاز أن تكون الملائكة بنات الله فقد جعل الملائكة شبها لله لأن الولد من جنس الوالد وشبهه " [٢] ، ومثلها عبارة النسفي في تفسيره حيث قال : " ثم أكد كذبهم بقوله ﴿ **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ** ﴾ لأنه منزه عن النوع والجنس وولد الرجل من جنسه ﴿ **وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ** ﴾ وليس معه شريك في الألوهية ، ﴿ **إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ** ﴾ لانفرد كل واحد من الآلهة بالذي خلقه " [٣] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، المجلد الثامن ، ج١٥ ص١٢٣ .

(٢) المصدر السابق ، المجلد الثامن ، ج١٦ ص ٦٦ .

(٣) تفسير النسفي ج٢ ص ١٤٢ .

وأشار إلى ذلك الآلوسي بقوله : " ولم يستدل على انتفاء اتخاذ الولد إما لغاية ظهور فساده أو للاكتفاء بالدليل الذي أقيم على انتفاء أن يكون معه سبحانه إله بناء على ما قيل : إن ابن الإله يلزم أن يكون إلها ، إذ الولد يكون من جنس الوالد وجوهره "[1] .

مثل هذه العبارات تظهر لك بأنه لا معنى للاعتقاد بوجود أبناء لله إلا أن يحمل على وجود مَن هو مِن جنس الله تعالى عن ذلك ، فيرون أن الأبناء مثل أبيهم ، ولا معنى للمثلية إلا أن لها أثر في الخلق والتدبير ، فلا معنى لأن يقال إنها بنات الله ولكن لا حول ولا قوة لها إلا التشفع بها ، فهي آلهة عبدت واستغيث بها لأنها أرباب لها قدراتها الخارقة ومستقلة عن الإله الأكبر ، ولولا أنهم يريدون التجانس بين الأب وأبنائه في ماهية الرب أي وحدة الجنس والجوهر لاكتفوا باعتبارها ملائكة ولم تكن هناك حاجة لادعاء بنوتها .

والغريب أن ابن تيمية يصرح بكلمة الشبه بين الابن والأب وهي عبارة أخرى عن التجانس الذي تحدثنا عنه قبل قليل ، وذلك في تفسير قوله تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ۞ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ۞ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۞ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ۞ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ الزخرف/ ١٥- ٢٠ .

---

(١) روح المعاني ، المجلد العاشر ، ج ١٨ ص ٩٠.

قال : " قال بعض المفسرين : ﴿ جُزْءًا ﴾ أي نصيبا وبعضا ، وقال بعضهم : جعلوا لله نصيبا من الولد وعن قتادة ومقاتل : عدلا ، وكلا القولين صحيح فإنهم يجعلون لله نصيبا من الولد والولد يشبه أباه ، ولهذا قال ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ ، أي البنات كما قال في الآية الأخرى ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ﴾ ، فقد جعلوها للرحمن مثلا وجعلوا له من عباده جزءا ، فإن الولد جزء من الوالد ، كما قال ﷺ: (فاطمة بضعة مني) "[1] ، فهل هناك معنى للجزئية والتشابه إلا التجانس الذي يعني التشابه في القدرات ووجود النظير والند ، فكيف يقال أنهم اعتقدوا بآلهة لا شأن لها في الربوبية ؟

ثانيا : الاستدلال بدليل التمانع دليل على أنهم اعتقدوا بربوبيتها

فكما نجد آيات عديدة ظاهرة في رد شرك العبادة وتصحيح هذا الخلل عند المشركين ، وذلك ببيان أن العبادة لا تكون إلا للخالق المدبر الضار النافع ولا يوجد من يتصف بذلك إلا الله ، لكن في الوقت نفسه هناك آيات أخرى صريحة في مواجهة منحرفين عن توحيد الربوبية ، ولا يمكن أن تحمل على الاستدلال لتوحيد الألوهية ، فليس الحديث عن الإله بمعنى المعبود بل هي تتحدث عن الإله بمعنى الموجود الذي يعتقد المشركون بأن له تأثيرا مستقلا في بعض شئون الكون أو على الأقل ضارا نافعا وعلى نحو ذاتي مستقل ، والآيات في ذلك متعددة :

---

(١) مجموعة الفتاوى ج١٧ ص ١٥٠ .

١) قال تعـالى ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ المؤمنون / ٩١ .

فهل يعقل أن تكون الآيات بمعنى ما كان معه معبود إذا لذهب كل معبود بما خلق ؟ كيف تكون الآية دليلا على وحدانية الإله إذا كان الإله فيها بمعنى المعبود لا الموجود الذي له تأثير ذاتي في إدارة بعض شئون الكون ؟ وهل يبقى قيمة للاستدلال لو اعتقدوا بأن آلهتهم لا تؤثر بنحو مستقل بل خاضعة لله الإله الأكبر ؟

قال الطبري : " ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ ﴾ يقول : إذن لاعتزل كل إله منهم ﴿ بِمَا خَلَقَ ﴾ من شيء فانفرد به ولتغالبوا فلعلا بعضهم على بعض ، وغلب القوي منهم الضعيف لأن القوي لا يرضى أن يعلوه ضعيف والضعيف لا يصلح أن يكون إلها فسبحان الله ما أبلغها من حجة وأوجزها لمن عقل وتدبر " (١) .

قال البغوي : " ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ أي من شريك ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾ أي تفرد بما خلقه فلم يرض أن يضاف خلقه وإنعامه إلى غيره ، ومنع الإله الآخر عن الاستيلاء على ما خلق ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أي طلب بعضهم مغالبة بعض كفعل ملوك الدنيا فيما بينهم ثم نزه نفسه فقال ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ " (٢) .

قال ابن كثير : " ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك والتصرف والعبادة فقال تعالى ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا

---

(١) تفسير الطبري ، المجلد العاشر ، ج ١٨ ص ٦٤ .

(٢) تفسير البغوي ج٣ ص ٢٦٧ ، ومثله ابن الجوزي في زاد المسير ج٥ ص ٣٥٤ .

يَصِفُونَ ﴾ أي لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق فما كان ينتظم الوجود ، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه ببعض في غاية الكمال ﴿ **مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ** ﴾ ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه فيعلو بعضهم على بعض والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع " (١) .

٢) قوله تعالى ﴿ **أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۞ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ الأنبياء/ ٢١- ٢٢ .

قال البغوي : " ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا** ﴾ يعني في السماء والأرض ﴿ **آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ** ﴾ يعني غير الله ﴿ **لَفَسَدَتَا** ﴾ لخربتا وهلك من فيهما بوجود التمانع بين الآلهة لأن كل أمر صدر عن اثنين فأكثر لم يجر على النظام " (٢) .

قال ابن الجوزي : " قوله تعالى ﴿ **لَفَسَدَتَا** ﴾ أي لخربتا وبطلتا وهلك من فيهما لوجود التمانع بين الآلهة فلا يجري أمر العالم على النظام لأن كل أمر صدر عن اثنين فصاعدا لم يسلم من الخلاف " (٣) .

قال ابن كثير : " ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السماوات والأرض فقال ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ** ﴾ أي في السماوات والأرض ﴿ **لَفَسَدَتَا** ﴾ " (٤).

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص٢٦٤ .

(٢) تفسير البغوي ج٣ ص٢٠٣ .

(٣) زاد المسير ج٥ ص ٢٥٤ .

(٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص ١٨٤ .

٣) قوله تعالى ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ۞ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا** ﴾ الإسراء/ ٤٢- ٤٣ .

أما هذه الآية فبناء على التفسير الأصح لها الذي ذكره البغوي قائلا : " ﴿ **إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ** ﴾ لطلبوا يعني الآلهة ﴿ **إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً** ﴾ بالمبالغة والقهر ليزيلوا ملكه كفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض ، وقيل : معناه لطلبوا إلى ذي العرش سبيلا بالتقرب إليه ... ، والأول أصح " [(١)].

فالآيتان الأولى والثانية صريحتان في أن الحديث عن شرك الربوبية كما أن الثالثة ظاهرة في ذلك ، ولم تصغ تلك الآيات إلا لمواجهة مشركين اعتقدوا بأن هناك من يؤثر في الكون إضافة إلى تأثير الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، نعم يترتب على ثبوت وحدانية الله في الخلق والتدبير ثبوت ضرورة توحيده في العبادة وعدم الإشراك في ذلك .

٤) قوله تعالى ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ الروم/ ٢٧ - ٢٨ .

فمقتضى التشبيه أن المشركين كانوا يرون أن شركاء الله ينافسون الله بحيث يخاف تصرفاتهم في مملكته لأنهم يملكون نفس الاستقلالية في التصرف ، ولذا شبه القرآن خلل اعتقادهم هذا بخلل الاعتقاد بوجود إنسان حر يملك مملوكا ، لكن مملوكه له حق التصرف بأمواله يستطيع بنفس مقدار من الحق الذي للمالك الحر ، فهو مملوكه وهو شريكه في نفس الوقت كيف يتخيل ذلك ، ألا

---

(١) تفسير البغوي ج٣ ص ٩٦ .

يعني ذلك أنهم كانوا يرون أن هؤلاء المشركين كانوا يعتقدون بأن للشريك استقلالية في التصرف !

قال ابن الجوزي : " قوله تعالى ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا ﴾ سبب نزولها أن أهل الجاهلية كانوا يلبون فيقولون : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك ، فنزلت هذه الآية ، قاله سعيد بن جبير "[1] .

قال ابن عطية : " ثم بين تعالى أمر الأصنام وفساد معتقد من يشركها بالله بضربه هذا المثل ، ومعناه أنكم أيها الناس إذا كان لكم عبيد تملكوهم فإنكم لا تشركونهم في أموالكم ومهم أموركم ولا في شيء على جهة استواء المنزلة وليس من شأنكم أن تخافوهم في أن يرثوا أموالكم أو يقاسموكم إياها في حياتكم كما يفعل بعضكم ببعض ، فإذا كان هذا فيكم ، فكيف تقولون إن من عبيده وملكه شركاء في سلطانه وألوهيته وتثبتون في جانبه ما لا يليق بكم عندكم بجوانبكم ؟! هذا تفسير ابن عباس والجماعة "[2] .

كل ذلك الاستدلال لرد عقيدتهم بوجود الأبناء

مما يعني أنه دليل آخر على عقيدتهم بأن الآلهة الأبناء لله مستقلون في التصرف ويشاركون الرب الأب في الربوبية ، بل الآيات التي يستدل بها الخصم والتي صرحت بإقرارهم أن الله هو الخالق المدبر جاءت في سياق الحديث عن عقيدة مشركي العرب بوجود بنات لله وفي نفس السياق ذكر دليل التمانع ردا عليهم ، وإليك التفصيل :

---

(١) زاد المسير ج٦ ص ١٥٦ .

(٢) المحرر الوجيز ج١٢ ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

فتجد الآيات التالية من سورة الزخرف تصرح بأن المقرين بخالقية الله هم من يقول بوجود أبناء لله ، قال تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۞ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ۞ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۞ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۞ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۞ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ۞ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ۞ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۞ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ الزخرف/٩ – ١٩ .

فمن الواضح أن من قالوا ﴿ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ هم الذين ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ وهم الذين ادعوا أنه ﴿ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾ ، وهم الذين أقروا بأن الله هو الخالق المدبر ولكن مع ذلك يجعلون معه آلهة أخرى يعتقدون أنها بنات الله و ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾ .

ويتضح ذلك في آخر السورة أيضا فمن يعتقد بوجود ولد لله تعالى عن ذلك علوا كبيرا هو من يقر بخالقية الله ويعترف بذلك ، قال تعالى ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ۞ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ

﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ الزخرف / ٨١ – ٨٧ .

فالذي أجاب على الاستفهام عمن خلقهم بقوله : الله ، هو نفسه الذي ادعى إن للرحمن ولد ، ولا نطيل هنا بإيراد أقوال مفسريهم فالأمر أوضح من الشمس ، ولا تحتاج محكمات القرآن إلى تفسير بل إلى مجرد معرفة معاني مفرداتها في اللغة .

وحتى أهم الآيات التي يستدل بها أصحاب الرؤية الوهابية مثل قوله تعالى ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ تتحدث عن عقيدتهم بوجود أبناء لله إذ الآية التي بعدها هي قوله تعالى ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ الزمر/٣- ٤ ، فالكلام عن قوم يعتقدون بأن هناك بنات لله تعبد معه تقربا إليه ، وهي أرباب وآلهة صغيرة يؤمنون بوجودها مع إيمانهم بالله الإله والخالق الأعظم .

والذي نريد قوله بأن هذا الحديث المتنوع في القرآن عن عقيدة العرب هي تفاصيل لعقيدة وديانة واحدة عند العرب ، وهذا لا يعني نفي وجود خلاف بينهم في بعض التفاصيل ، والمهم هنا أن الذين يقرون بخالقية الله هم أنفسهم الذين يعتقدون بأن هناك آلهة مع الله هي أبناؤه وهم الذين استدل عليهم القرآن بدليل التمانع ، وهو مختص برد شرك الربوبية .

والآيات التالية من سورة المؤمنون تجمع الأمور الثلاثة ، ولذا هي أكبر دليل على أنهم في عقيدتهم بوجود أبناء لله كانوا يشركون بالله في الربوبية وإلا لم

يرد عليهم القرآن بدليل التمانع القائم على فرضية استقلالية الأرباب المتعددين في التأثير في شئون الكون ؟

قال تعالى ﴿ **قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۞ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۞ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۞ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ المؤمنون ٨٤- ٩٢ .

فالآيات واضحة في أنها بصدد تصحيح ضلالتهم العقائدية المتمثلة في ادعاء الولد لله وتخيل أن يكون هناك إله مع الله ، فتبدأ الآيات بأخذ الإقرار منهم بخالقية الله وتدبيره للكون ، ثم تذكر عقيدتهم الباطلة في اتخاذ الولد ووجود الشريك فيقول ﴿ **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ** ﴾ ثم يبطل قولهم بدليل التمانع ﴿ **إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾ ، وتؤكد خاتمة الآيات أي قوله تعالى ﴿ **سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ إنها بصدد رد عقيدتهم الباطلة بوجود أبناء لله أو تعدد الآلهة ، لذا قال البيضاوي : " ﴿ **سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ من الولد والشريك لما سبق من الدليل على فساده " [1] .

والاستدلال وإن كان ينصب على تعدد الآلهة ونفي الربين الشريكين ، لكنه دليل على نفي الولد في الوقت نفسه ، وقد صرح المفسرون بأن الاستدلال

(١) تفسير البيضاوي ج٢ ص١١١ .

على نفي الإلهين هو نفسه دليل على نفي الابن ، قال القرطبي : " وهذا الذي يدل على نفي الشريك يدل على نفي الولد أيضا لأن الولد ينازع الأب في الملك منازعة الشريك " [(١)] .

وقال الشوكاني : " ﴿ **وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ** ﴾ أي غلب القوي على الضعيف وقهره وأخذ ملكه كعادة الملوك من بني آدم ، وحينئذ فذلك الضعيف المغلوب لا يستحق أن يكون إلها ، وإذا تقرر عدم إمكان المشاركة في ذلك وأنه لا يقوم به إلا واحد تعين أن يكون هذا الواحد هو الله سبحانه ، وهذا الدليل كما دل على نفي الشريك فإنه يدل على نفي الولد " [(٢)] .

وقال الآلوسي : " ولم يستدل على انتفاء اتخاذ الولد إما لغاية ظهور فساده أو للاكتفاء بالدليل الذي أقيم على انتفاء أن يكون معه سبحانه إله ، بناء على ما قيل : إن ابن الإله يلزم أن يكون إلها ، إذ الولد يكون من جنس الوالد وجوهره " [(٣)] .

وقال الشيخ ابن عاشور : " وإنما لم يستدل على امتناع أن يتخذ الله ولدا لأن الاستدلال على ما بعده مغن عنه ، لأن ما بعده أعم منه وانتفاء الأعم يقتضي انتفاء الأخص ، لأنه لو كان لله ولد لكان الأولاد آلهة ، لأن ولد كل موجود إنما يتكون على مثل ماهية أصله كما دل عليه قوله تعالى ﴿ **قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ** ﴾ الزخرف / ٨١ أي له " [(٤)] .

(١) الجامع لأحكام القرآن ، المجلد السادس ج١٢ ص١٣٤ — ١٣٥ .

(٢) فتح القدير ج٣ ص ٥٨٧ .

(٣) روح المعاني المجلد ١٠ ، ج١٨ ص٩٠ .

(٤) التحرير والتنوير ج ١٨ ص ٩٣ .

ومع ذلك انظر إلى محاولات ابن تيمية لحل المشكلة التي تواجهه في الآية وكونها صريحة في أنها استدلال على توحيد الربوبية على من ادعى وجود أبناء لله ، فبعد أن أقر بأن الآية تتحدث عن دليل التمانع القائم على فرض وجود ربين لا مجرد إلهين ، قال في تفسير الآية : " فلو كان ربان لكان مخلوق كل منهما مميزا عن خلق الآخر كما قال تعالى ﴿ **إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾ فذكر سبحانه وجوب امتياز المفعولين ووجوب قهر أحدهما للآخر ... وكلاهما ممتنع فهذه الطرق وأمثالها مما تبين بها أئمة النظار توحيد الربوبية ...

والمشركون كانوا يقرون بهذا التوحيد الذي نفى خالقين لم يكن مشركو العرب تتنازع فيه ، ولهذا قال الله لهم ﴿ **أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** ﴾ فكانوا يعرفون أن آلهتهم لا تخلق ، ولهذا ذكر الله تعالى هذا التقرير بعد قوله ﴿ **قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ... مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ...** ﴾ لم يكن إشراكهم أنهم جعلوهم خالقين بل أن جعلوهم وسائط في العبادة فاتخذوهم شفعاء ...

وهذا من جهة امتناع الربوبية لغير الله ويلزم من امتناعها امتناع الإلهية فإن ما لا يفعل شيئا لا يصلح أن يكون ربا يعبد ولم يأمر الله أن يعبد ، ولهذا بين الله امتناع الألهية لغيره تارة ببيان أنه ليس بخالق وتارة بأنه لم يأمر بذلك ... "[1] .

والذي يفهم من مجمل كلام ابن تيمية السابق أنه يقول بأنهم لم يشركوا في الربوبية ومع ذلك يقر بأن البرهان برهان على توحيد الربوبية جيء به كطريق

(١) منهاج السنة ج٢ ص ٦٨ – ٧٣ .

لإثبات توحيد الألوهية لأن هناك طريقين لإثباته الأول انتفاء الخالقية عن غيره ، والثاني إن الله لم يأمر بذلك .

والسؤال الذي يتوجه له : أنهم إذا كانوا يقرون بتوحيد الربوبية فلماذا الاستدلال على أمر يقرون ويؤمنون به وما فائدة الاستدلال في هذه الحالة ؟ لم لم يكتف بإقرارهم ويقال لهم : لا يصح أن يعبد إلا من تقرون بخالقيته ؟ أو يقال لهم : ليس لكم أن تعبدوا ما تقرون بأنه لم يخلق ولا تأثير له .

بل كما قلنا الآيات صريحة في اعتقادهم لما يراد نفيه واثبات بطلانه في هذا الاستدلال ، فقوله تعالى ﴿ **سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ فما يصفون هي تعبير آخر عن عقيدتم الباطلة التي ذكر دليل بطلانها بقوله تعالى ﴿ **إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ** ﴾ .

وصرح ابن كثير عند تفسيره للآيات بأنهم يوحدون في الربوبية ولكنهم يشركون في الألوهية ومع ذلك لم يعلل الوجه في الاستدلال لهم بما يستدل به على توحيد الربوبية ، ولا أعتقد أنه رآها مفصولة عما سبق ، لأنه قال بعدها : " ﴿ **وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ أي عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علوا كبيرا " (١) .

وأما السعدي فيتجاهل استدلال الآية بدليل التمانع على توحيد الربوبية قائلا : " أي قل لهؤلاء المكذبين بالبعث والعادلين بالله غيره محتجا عليهم بما أثبتوه وأقروا به من توحيد الربوبية وانفراد الله بها على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة " (٢) .

---

(١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٦٤ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن ج٢ ص٧٥٩ .

فإذا كانوا قد أقروا بذلك فما الداعي لذكر الدليل ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ ؟! فعجبا يستدل القرآن على أمر يقرون به ويترك الاستدلال على ما ينكرون !!

آيات أخرى ذكرت دليل التمانع في سياق رد عقيدتهم بوجود أبناء لله

فبالإضافة إلى الآية السابقة تجد قوله تعالى ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۞ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ۞ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ۞ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ۞ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۞ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۞ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ الأنبياء / ٢١- ٢٩ .

فمن الواضح أن قوله تعالى ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ بمعنى ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾ ، قال ابن الجوزي : " قوله تعالى ﴿ لَفَسَدَتَا ﴾ أي لخربتا وبطلتا وهلك من فيهما لوجود التمانع بين الآلهة فلا يجري أمر العالم على النظام ، لأن كل أمر صدر عن اثنين فصاعدا لم يسلم من الخلاف " [1] ، والآية وإن بدأت بعرض أصل تعدد الآلهة في نظر مشركي قريش لكن هي موجهة لأحد أنواعها المتضمن في قولهم الذي نقل في قوله تعالى ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ

(١) زاد المسير ج٥ ص ٢٥٤ .

الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ ، ولذا ختمت بقوله تعالى وهو يتحدث عن بعض العقلاء الذين اتخذوا آلهة وأبناء لله **﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾** ، المهم أن الآيات صريحة في أن عقيدتهم بتعدد الآلهة هي بمعنى تأثيرها في الكون بحيث يصح أن يشكل عليهم أن تعدد المؤثرين يوجب فساد السماء والأرض ، فكيف يقال إنهم موحدون في الربوبية ؟!

وهكذا الأمر في الآية الثالثة التي قلنا أن الأصح أنها تتحدث عن دليل التمانع أي قوله تعالى **﴿ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ۞ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا ۞ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا ۞ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾** الإسراء / ٣٩- ٤٢ ، فمن الواضح أنها جاءت في سياق رد عقيدتهم بوجود أبناء لله تعالى عن ذلك .

وقد استظهر ابن عباس وكذلك سعيد بن جبير أن الحديث هنا عن دليل التمانع السابق قال القرطبي : " قال ابن العباس (رض) : لطلبوا مع الله منازعة وقتالا كما تفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض ، وقال سعيد بن جبير (رض) : المعنى إذاً لطلبوا طريقا إلى الوصول إليه ليزيلوا ملكه " [1] ، وقال البغوي : " **﴿ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ ﴾** لطلبوا يعنى الآلهة **﴿ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴾** بالمبالغة والقهر ليزيلوا ملكه كفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض ، وقيل : معناه لطلبوا إلى ذي العرش سبيلا بالتقرب إليه ... ، والأول أصح " [2] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن المجلد ٥ ، ج١٠ ص ٢٣٩ .

(٢) تفسير البغوي ج٣ ص ٩٦ .

وقال ابن عطية : " وقال سعيد بن جبير وأبو علي الفارسي والنقاش وقاله المتكلمون أبو منصور وغيره إن معنى الكلام لابتغوا إليه سبيلا في إفساد ملكه ومضاهاته في قدرته وعلى هذا التأويل تكون الآية بيانا للتمانع وجارية مع قوله ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ " [1] .

(١) المحرر الوجيز ج١٠ ص ٢٩٨ -٢٩٩ .

ثالثا : عقيدتهم في النصوص الروائية والتاريخية

بدء الأوثان عند العرب

صريح بعض الأخبار أن الأصنام التي كانت تعبد من قبل قوم نوح هي نفسها أصبحت الأوثان التي تعبد عند العرب ، فقد روى البخاري عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى ﴿ **وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا** ﴾ قال : " صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد ، أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع كانت لهذيل ، وأما يغوث فكانت لمراد ، ثم لبني غطيف بالجوف عند سبأ ، وأما يعوق فكانت لهمدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع ، أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تعبد حتى هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت " [1] .

وروى ابن أبي حاتم في تفسيره عن الإمام الباقر عليه السلام تفصيلا في ذلك في خصوص الصنم ود وقال في آخره : " فكان أول ما عبد غير الله الصنم الذي سموه ودا " [2] .

---

(١) صحيح البخاري ج٦ ص ١٩٩ .

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ج١٠ ص ٣٣٧٥ .

فلما بعث الله نوحا دعاهم إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له ، لذا خاطب نوح عليه السلام قومه قائلا ﴿ **يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ** ﴾ الأعراف/٥٩ ، بل قيل إن الله بعثه لما عبدت الأصنام والطواغيت .

ووفقا لما روي عن ابن عباس أكد المؤرخون على أن الآلهة التي كانت عند قوم نوح انتقلت عن العرب ، قال ابن هشام :

" وقد كانت لقوم نوح أصنام قد عكفوا عليها ، قص الله - تبارك وتعالى - خبرها على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال ﴿ **وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۞ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا** ﴾ نوح/٢٣ - ٢٤ ، فكان الذي اتخذوا تلك الأصنام من ولد إسماعيل وغيرهم وسموا بأسمائهم حين فارقوا دين إسماعيل " [١] .

ولكن الظاهر إن انتقالها إلى العرب لم يكن إلا بعد زمن إسماعيل عليه السلام ، فقد تحدث ابن هشام عن بدء عبادة الأصنام عند العرب قائلا : " قال ابن إسحاق : وحدثني عبدالله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه قال : حدثت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رأيت عمرو بن لحي يجر قصبة في النار ، فسألته عمن بيني وبينه من الناس ، فقال : هلكوا [٢] .

قال ابن إسحاق وحدثني محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي أن أبا صالح السمان حدثه أنه سمع أبا هريرة ... سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأكثم بن الجون الخزاعي : يا أكثم رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجز قصبه في النار ، فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ولا بك منه ، فقال أكثم : عسى أن يضرني

---

(١) سيرة ابن هشام ج١ ص ٩٦- ٩٨ .

(٢) الروض الأنف ج١ ص ١٦٤ ، قال المحقق صحيح أخرجه البخاري (٤ / ٢٢٤) ومسلم في الجنة (٥١) وأحمد (٢/٢٧٥) .

شبهه يا رسول الله ؟ قال : لا ، إنك مؤمن وهو كافر إنه كان أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان وبحر البحيرة وسب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحامي "[1] .

ثم تابع ابن هشام كلامه قائلا : "حدثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره فلما قدم مآب من أرض بلقاء وبها يومئذ العماليق وهم ولد عملاق ويقال عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح رآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها ، فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطونني منها صنما فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه ؟ فأعطوه صنما يقال له هبل ، فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه .

لكن ابن هشام ينقل رأيا آخر عن ابن إسحاق قال : " قال ابن إسحاق : ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني إسماعيل أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسح في البلاد إلا حمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم ، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة ، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم ، حتى خلف الخلوف ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة وهدي البدن والإهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس منه ، فكانت كنانة وقريش إذا أهلوا قالوا : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك إلا شريك هو

---

(١) الروض الأنف ج١ ص١٦٥ ، قال المحقق : صحيح ، أخرجه الطبري في تفسيره (٧ /٥٦) والبغوي (٢ /١٠٠) .

لك تملكه وما ملك ، فيوحدونه بالتلبية ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده ، يقول الله تبارك وتعالى لمحمد ﷺ ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾ يوسف/١٠٦ ، أي ما يوحدونني لمعرفة حقي إلا جعلوا معي شركا من خلقي " [١] .

وأضاف السهيلي قائلا : " وكان عمرو بن لحي حين غلبت خزاعة على البيت ونفت جرهم عن مكة قد جعلته العرب ربا لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة لأنه كان يطعم الناس ويكسو في الموسم ، فربما نحر في الموسم عشرة آلاف بدنة وكسا عشرة آلاف حلة ، حتى قيل إنه اللات الذي يلت السويق للحجيج على صخرة معروفة تسمى : صخرة اللات ، ويقال إن الذي يلت كان من ثقيف ، فلما مات قال لهم عمرو : إنه لم يمت ولكن دخل في الصخرة ثم أمرهم بعبادتها وأن يبنوا عليه بيتا يسمى : اللات ، ويقال : دام أمره وأمر ولده على هذا بمكة ثلاثمائة سنة ، فلما هلك سميت تلك الصخرة : اللات مخففة التاء واتخذ صنما يعبد ، وقد ذكر ابن إسحاق أنه أول من أدخل الأصنام الحرم وحمل الناس على عبادتها " [٢] .

وقد بين المسعودي تنوع عقائد العرب قائلا :

" كانت العرب في جاهليتها فرقا ، منهم الموحد المقر بخالقه المصدق بالبعث والنشور موقنا بأن الله يثيب المطيع ويعاقب العاصي ، وقد تقدم ذكرنا في هذا الكتاب وغيره من كتبنا من دعا الله عز وجل ونبه أقوامه على آياته في الفترة كقس بن ساعدة الأيادي ورئاب الشني وبحيرا الراهب وكان من عبدالقيس .

وكان من العرب من أقر بالخالق وأثبت حدوث العالم وأقر بالبعث والإعادة وأنكر الرسل وعكف على عبادة الأصنام ، وهم الذين حكى الله عز وجل

(١) الروض الأنف ج١ ص ١٦٧ .

(٢) المصدر السابق ج١ ص ١٦٦ - ١٦٧ .

قولهم ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ ، وهذا الصنف هم الذين حجوا إلى الأصنام وقصدوها ، ونحروا لها البدن ونسكوا لها المناسك وأحلوا وحرموا .

ومنهم من أقر بالخالق وكذب بالرسل والبعث ، ومال إلى قول أهل الدهر وهؤلاء الذين حكى الله تعالى إلحادهم وخبر عن كفرهم بقوله تعالى ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ فرد الله عليه بقوله ﴿ مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ .

ومنهم من مال إلى اليهودية والنصرانية .

ومنهم المار على عنجهيته الراكب لهجمته .

وقد كان صنف من العرب يعبدون الملائكة ويزعمون أنها بنات الله فكان يعبدونها لتشفع لهم إلى الله وهم الذين أخبر الله عز وجل عنهم بقوله تعالى ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ۞ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ۞ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى ۞ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ " [1] .

نعم يظهر من الخبر الذي رواه ابن أبي حاتم عن محمد بن عثمان المخزومي أنهم كانوا يعتقدون بذكورة بعض آلهتهم ، قال : " إن قريشا قيضوا لكل رجل من أصحاب محمد رجلا يأخذه ، فقيضوا لأبي بكر طلحة بن عبيدالله ، فأتاه وهو في القوم ، فقال أبو بكر : إلام تدعوني ؟ قال : أدعوك إلى عبادة اللات والعزى ، قال أبو بكر : وما اللات ؟ قال : أولاد الله ، قال : وما العزى ؟ قال :

---

(١) تاريخ المسعودي ج١ ص ٤٣٩ .

بنات الله ... " [١]، ويؤيد ذلك قوله تعالى ﴿ **وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾ الأنعام / ١٠٠ .

قال الشيخ ابن عاشور في بيان معتقدات العرب : " وقد كان دين العرب في الجاهلية خليطا من عبادة الأصنام ومن الصابئية عبادة الكواكب وعبادة الشياطين ومجوسية الفرس وأشياء من اليهودية والنصرانية ، فإن العرب لجهلهم حينئذ كانوا يتلقون من الأمم المجاورة لهم والتي يرحلون إليها عقائد شتى متقاربا بعضها ومتباعدا بعض ، فيأخذونه بدون تأمل ولا تمحيص لفقد العلم فيهم ، فإن العلم الصحيح هو الذائد عن العقول من أن تعشش فيها الأوهام والمعتقدات الباطلة ، فالعرب كان أصل دينهم في الجاهلية عبادة الأصنام وسرت إليهم معها عقائد من اعتقاد سلطة الجن والشياطين ونحو ذلك .

فكان العرب يثبتون الجن وينسبون إليهم التصرفات ، فلأجل ذلك كانوا يتقون الجن وينتسبون إليها ويتخذون له المعاذات والرقى ويستجلبون رضاها بالقرابين وترك تسمية الله على بعض الذبائح ، وكانوا يعتقدون أن الكاهن تأتيه الجن بالخبر من السماء ، وإن الشاعر له شيطان يوحي إليه الشعر ، ثم إذ أخذوا في تعليل هذه التصرفات وجمعوا بينها وبين معتقدهم في ألوهية الله تعالى تعللوا لذلك بأن للجن صلة بالله تعالى ، فلذلك قالوا : الملائكة بنات الله من أمهات سروات الجن كما أشار إليه قوله تعالى ﴿ **وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا** ﴾ الصافات / ١٥٨ ، وقال ﴿ **فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ۞ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ۞ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۞ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴾ الصافات / ١٤٩ - ١٥٢ ومن أجل ذلك جعل كثير من قبائل العرب

(١) فتح القدير ج٤ ص ٦٣٨ .

شيئا من عبادتهم للملائكة وللجن ، قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ سبأ/ ٤٠ -٤١ .

والذين زعموا أن الملائكة بنات الله هم قريش وجهينة وبنو سلمة وخزاعة وبنو مليح ، وكان بعض العرب مجوسا عبدوا الشيطان وزعموا أنه إله الشر وأن الله إله الخير ، وجعلوا الملائكة جند الله والجن جند الشيطان ، وزعموا أن الله خلق الشيطان من نفسه ثم فوض إليه تدبير الشر فصار إله الشر ، وهم قد انتزعوا ذلك من الديانة المزدكية القائلة بإلهين ، إله الخير وهو (يزدان) وإله الشر وهو (أهرمن) وهو الشيطان " [1] .

النصوص الروائية والتاريخية تدل على اعتقادهم بأن آلهتهم تضر وتنفع

الواضح في النصوص التاريخية أن عقيدتهم كانت تقوم على الاعتقاد بأنها آلهة تضر وتنفع في نفسها ، إذ أنهم ينسبون الضر والنفع إليها ، لا أنهم موحدون في الربوبية يعتقدون بأن التدبير بيد الله فقط وكل ما تستطيع الآلهة الأخرى القيام به هو مجرد الشفاعة عند الإله الأكبر ، وإليك بعض النصوص الروائية والتاريخية التي تدل على اعتقادهم بأن آلهتهم تضر وتنفع لقدراتها الذاتية :

١- روى ابن هشام في سيرته قال : " حدثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره ، فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق ... رآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها ، فنستمطرها فتمطرنا ،

(١) التحرير والتنوير ج٦ ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : ألا تعطوني منها صنما فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه ، فأعطوه صنما يقال له هبل ، فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه " [1] .

قولهم : فتمطرنا وتنصرنا عبارة صريحة في أنهم ينسبون تلك الأفعال إلى آلهتهم ، وليس ذلك إلا لأنهم يعتقدون بوجود قدرة ذاتية لها على ذلك .

٢- وكذلك روى الطبري في تفسير قوله تعالى ﴿ **وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ** ﴾ الزمر٣٦ عن قتادة أنه قال : " بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى شعب بسقام ليكسر العزى ، فقال سادنها وهو قيمها : يا خالد أنا أحذركها إن لها شدة لا يقوم إليها شيء ، فمشى إليها خالد بالفأس فهشم أنفها " [2] .

فصريح كلامهم أن لها شدة بنفسها لا من خلال الشفاعة .

٣- وقال السهيلي عند الحديث عن مبدأ قصة الأوثان في قوم نوح ورواية البخاري لذلك : " وذكر الطبري هذا المعنى وزاد أن سواعا كان ابن شيث وأن يغوث كان ابن سواع وكذلك يعوق ونسر كلما هلك الأول صورت صورته ، وعظمت لموضعه من الدين ولما عهدوا في دعائه من الإجابة فلم يزالوا هكذا حتى خلفت الخلوف وقالوا : ما عظم هؤلاء آباؤنا إلا لأنها تزرق وتنفع وتضر واتخذوها آلهة " [3] .

فهي ترزق وتنفع وتضر بنفسها ، فصريح العبارة أنهم إنما اتخذوها آلهة لأنها ترزق وتنفع وتضر .

---

(١) سيرة ابن هشام ج١ ص ٩٤ - ٩٥ .

(٢) تفسير الطبري ، المجلد ١٢ ، ج٢٤ ص ٩ .

(٣) الروض الأنف ج١ ص ١٦٨ .

٤- وروى ابن عبدالبر في ترجمة ضمام بن ثعلبة عن ابن عباس قال : " بعث بنو سعد بن بكر ضمام بن ثعلبة وافدا إلى رسول الله ﷺ فقدم عليه ... قال : يا ابن عبدالمطلب إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة فلا تجدن في نفسك قال : لا أجد في نفسي سل عما بدا لك ، قال : أنشدك بالله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، الله أمرك أن نعبده وحده لا نشرك به شيئا وأن نخلع هذه الأوثان التي كان آباؤنا يعبدون معه قال : اللهم نعم ... .

قال : فأتى بعيره فأطلق عقاله ، ثم خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه ، فكان أول ما تكلم به أن قال : بئست اللات والعزى ! قالوا : مه يا ضمام اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون ، قال : ويلكم إنهما والله ما تضران وما تنفعان " [1] .

فقولهم : اتق ... يعني خف منها ، فكان جوابه أنها لا تضر ولا تنفع ، مما هو صريح في اعتقادهم بأنها قادرة ، كما أن صريح رده بأنها غير قادرة على شيء .

٥- وروى ابن حجر في ترجمة (زنيرة) عن سعد بن إبراهيم : " قال : كانت زنيرة رومية فأسلمت ، فذهب بصرها ، فقال المشركون : أعمتها اللات والزى ، فقالت : إني كفرت باللات والعزى ، فرد الله بصرها ، وأخرج محمد بن عثمان بن أبي شيبة في تاريخه من رواية زياد البكائي عن حميد عن أنس قال : قالت لي أم هانئ بنت أبي طالب : أعتق أبو بكر زنيرة ، فأصيب بصرها حين أعتقها ، فقالت قريش : ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى ، فقالت : كذبوا وبيت الله ، ما يغني اللات والعزة ولا ينفعان ، فرد الله إليها بصرها " [2] .

---

(١) الاستيعاب ج٢ ص ٣٠٤ - ٣٠٥ .

(٢) الإصابة ج ٨ ص ٩١ .

فكما ترى نسبوا إذهاب البصر إلى آلهتهم اللات والعزى .

٦- وقال الفيرزوآبادي : " كان غاوي بن عبد العزى سادنا لصنم لبني سليم ، فبينا هو عنده إذ أقبل ثعلبان يشتدان حتى تسنماه فبالا عليه ، فقال البيت ، ثم قال : يا معشر سليم لا والله لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع ، فكسره ولحق بالنبي ﷺ ، فقال : ما اسمك ، فقال : غاوي بن عبدالعزى ، فقال : بل أنت راشد بن عبدربه "[1] .

كلها عبارات صريحة في أنهم كانوا يرون أن آلهتهم تنفع وتضر بنفسها باعتقاد وجود قدرة ذاتية لها على ذلك .

(١) القاموس المحيط ج١ ص ٨٠ ، البيت قوله :

أرب يبول الثعلبان برأسه   لقد ذل من بالت عليه الثعالب

الباب الثاني

مناقشة الآيات المستدل بها على توحيد المشركين في الربوبية

من ذهب إلى أن المشركين وحدوا الله في الربوبية اعتمد على الآيات التي رآها صريحة في ذلك ، وهي مجموعة من الآيات التي تصرح بإقرار مشركي العرب بخالقيته ورازقيته وتدبيره لشئون الكون وهي متعددة ، نذكر منها ثلاثا تتحدث عن مطلق تدبيره عز وجل لشئون الكون لا مجرد الخلق وهي الأهم :

١) قال تعالى ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ۞ فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ۞ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ۞ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ يونس/ ٣١ – ٣٤ .

٢) وقال تعالى ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۞ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۞ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ۞ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۞ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ المؤمنون/ ٨٤ – ٩٢ .

٣) وقال تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ۞ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۞ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ العنكبوت / ٦١ - ٦٣ .

وتقرير استدلالهم بتلك الآيات أنها صريحة في أن المشركين يقرون بأن الله هو الخالق وهو المدبر ، وظاهره إقرار بتوحيده في ذلك ونفي هذه الأفعال عن آلهتهم ، فلذا هم يوحدون الله في هذه الأمور ، فلا يبقى سبب لاعتبارهم مشركين إلا شركهم في العبادة ، فهم مشركون لأنهم يعبدون موجودات أخرى إضافة إلى عبادتهم لله لا لأنهم يرون أنها تخلق وتدبر شئون الكون ، خاصة إن ضم إلى ذلك قوله تعالى ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ الزمر / ٣ التي ظاهرها أن عبادتهم للآلهة تهدف للقرب من الله من دون أن يرون لها قيمة وراء ذلك ، وسنبحث مدى علاقة الآيات التي يقر بها المشركون بخالقية الله وآية الزلفى هذه .

نعم هناك آيات أخرى تتحدث عن اعترافهم بخالقية الله دون الحديث عن مطلق التدبير ، ولكن لا يكتفى بها باعتبار إمكان التفريق بين صفة الخالقية والتدبير وتسيير أمور الكون ، فيكون القائلون موحدون في خالقية الله للكون ولكنهم يرون أن المدبر لشئون الكون آلهة متعددون ، والآيات التي تصرح بإقرارهم بخالقيته عز وجل للموجودات متعددة منها :

قوله تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ لقمان / ٢٥ - ٢٦ .

وقوله تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ الزمر/٣٨ .

وقوله تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ الزخرف/٩ – ١٠ .

وقوله عز وجل ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ الزخرف/٨٧ .

ومهمتنا في هذا الفصل التدقيق في هذا الرأي الذي اعتبروه من واضحات القرآن أي القول بأن المشركين كانوا يوحدون الله في الربوبية .

ذهاب بعض قدماء العلماء والمفسرين إلى هذا الرأي

نريد أن نقر هنا بأن هذا الرأي الذي تبناه الوهابيون والذي نناقشه في هذا الفصل التمهيدي رأي ذهب إليه عدد من السابقين ، فكل من قال من المفسرين بأن المشركين أقروا بخالقية الله ورازقيته ولكنهم أشركوا مع عبادة لله عبادة الأوثان يكون كلامه ظاهرا فيما يقوله هؤلاء من أن المشركين موحدون في الربوبية ، وهذا الرأي لا يعني أن القائل به يوافق الرؤية الوهابية للتوحيد والشرك ، لأن ما يميز الرؤية الوهابية هي النكات التي سنذكرها في الفصل الثاني المتعلق بالعبادة والذي نبحث فيه لب الخلاف معهم ، فهناك الفراق بينهم وبين الرؤية الإسلامية التي اجتمعت عليها الأمة قبل نشوء الرؤية الوهابية .

وأما هذا الرأي أي القول بأن المشركين أشركوا في العبادة وآمنوا بأن الله وحده الخالق المدبر فقد قال به عدد من كبار علماء الإسلام السنة بل الشيعة أيضا ولا يلزم منه القول الوهابي بأن الاستشفاع أو دعاء الميت موجب للوقوع في الشرك الأكبر ، ومن هؤلاء ابن جرير الطبري في تفسيره حيث اعترض على تخصيص مجاهد لقوله تعالى ﴿ **فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ البقرة/٢٢ بأهل التوراة والإنجيل قائلا :

" وأحسب أن الذي دعا مجاهدا إلى هذا التأويل وإضافة ذلك إلى أنه خطاب لأهل التوراة والإنجيل دون غيرهم الظن منه بالعرب أنها لم تكن تعلم أن الله خالقها ورازقها بجحودها وحدانية ربها وإشراكها معه في العبادة غيره ، وإن ذلك لقول ، ولكن الله جل ثناؤه قد أخبر في كتابه عنها أنها كانت تقر بوحدانية الله غير أنها كانت تشرك في عبادته ما كانت تشرك فيها ، فقال جل ثناؤه ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ ... ، فالذي أولى بتأويل قوله ﴿ **وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ إذ كان ما كان عند العرب من العلم بوحدانية الله وإنه مبدع الخلق وخالقهم ورازقهم ... أن يكون تأويله ما قاله ابن عباس وقتادة من أنه يعني بذلك كل مكلف عالم بوحدانية الله وأنه لا شريك له في خلقه يشرك معه في عبادته غيره " (١) .

وقال في تفسير قوله تعالى ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ** ﴾ العنكبوت/٦١ : " ولئن سألتهم يا محمد هؤلاء المشركين بالله من خلق السماوات والأرض فسواهن وسخر الشمس والقمر لعباده يجريان دائبين لمصالح خلق الله ، ليقولن الذي

---

(١) تفسير الطبري ، المجلد الأول ، ج١ ص ٢٣٨ .

خلق ذلك وفعله الله ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ يقول جل ثناؤه : فأنى يصرفون عمن صنع ذلك فيعدلون عن إخلاص العبادة له "[١] .

ويظهر من الشيخ الطوسي تأييد ذلك إذ قال في تفسير ﴿ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً ﴾ :

" قال ابن عباس : إنه خاطب بقوله ﴿ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ جميع الكفار من عباد الأصنام وأهل الكتابين لأن معنى قوله ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه لا رب لكم يرزقكم غيره وأن ما تعبدون لا يضر ولا ينفع ، وروي عن مجاهد أنه عنى بذلك أهل الكتابين ، لأنهم الذين كانوا يعلمون أنه لا خالق لهم غيره ولا منعم عليهم سواه ، والعرب ما كانت تعتقد وحدانيته تعالى ، والأول أقوى لأن الله تعالى قد أخبر أن العرب قد كانت تعتقد وحدانيته تعالى ، فقال تعالى حكاية عنهم ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ "[٢] .

لكن ، هل هذا الرأي هو الصحيح والراجح في تفسير الآيات السابقة ؟ هذا الفصل معقود لبيان عدم صحة هذا الرأي والصحيح أن مشركي العرب أشركوا في الربوبية والألوهية ، وهذا ما سنتعرضه فيما يلي .

آراء أخرى في تفسير ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

باعتبار أن آية سورة البقرة أي قوله تعالى ﴿ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة/٢٢ أول الآيات المرتبطة بالبحث والتي تواجه المفسر ، لذا وجب أن نقف عندها ، وقد نقلنا قول الطبري فيها ، ولنتابع أقوال المفسرين الآخرين

---

(١) تفسير الطبري ، المجلد الحادي عشر ، ج٢١ ص ١٥ .

(٢) التبيان في تفسير القرآن ج١ ص ١٠٢ .

فقد روى ابن أبي حاتم خبرا آخر عن ابن عباس طبق فيها الآية على الشرك الأصغر أو الشرك الخفي ، قال : " الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل ، وهو أن يقول : والله وحياتك يا فلانة وحياتي ، ويقول : لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص ... " [(١)] .

كما أن الواضح من كلام الطبري أن مجاهد ذهب إلى أنهم مشركون في الربوبية لذا خص الآية بالنصارى ، فقد روى ابن أبي حاتم قوله : " تعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل " [(٢)] .

وقال الماوردي : " ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : وأنتم تعلمون أن الله خلقكم ، وهذا قول ابن عباس وقتادة .

والثاني : معناه وأنتم تعلمون أنه لا ند له ولا ضد ، وهذا قول مجاهد .

والثالث : معناه وأنتم تعقلون فعبر عن العقل بالعلم " [(٣)] .

وعدد ابن الجوزي ستة أقوال في ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ قال : " فيه ستة أقوال :

أحدها : وأنتم تعلمون أنه خلق السماء وأنزل الماء وفعل ما شرحه في هذه الآيات ، وهذا المعنى مروي عن ابن عباس وقتادة ومقاتل .

والثاني : وأنتم تعلمون أنه ليس ذلك في كتابكم التوراة والإنجيل ، روي عن ابن عباس أيضا وهو يخرج على قول من قال : الخطاب لأهل الكتاب .

والثالث : وأنتم تعلمون أنه لا ند له ، قاله مجاهد .

والرابع : أن العلم ها هنا بمعنى العقل قال ابن قتيبة .

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ج١ ص ٦٢ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) النكت والعيون ج١ ص ٨٤ .

والخامس : وأنتم تعلمون أنه لا يقدر على فعل ما ذكره أحد سواه ، ذكره شيخنا علي بن عبيدالله .

والسادس : وأنتم تعلمون أنها حجارة ، سمعته من الشيخ أبي محمد بن الخشاب "[1] .

قال الزمخشري : " ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ قلت : معناه وحالكم وصفتكم أنكم من صحة تمييزكم بين الصحيح والفاسد والمعرفة بدقائق الأمور وغوامض الأحوال والإصابة في التدابير والدهاء والفطنة و بمنزل لا تدفعون عنه ... ومفعول تعلمون متروك كأنه قيل وأنتم من أهل العلم والمعرفة "[2] .

قال ابن عطية : " واختلف المتأولون من المخاطب بهذه الآية ، فقالت جماعة من المفسرين : المخاطب جميع المشركين فقوله على هذا ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ يريد العلم الخاص في أنه تعالى خلق وأنزل الماء وأخرج الرزق ، ولم تنف الآية الجهالة عن الكفار ، وقيل : المراد كفار بني إسرائيل فالمعنى تعملون من الكتب التي عندكم أن الله لا ند له ، وقال ابن فورك : ... "[3] .

قال القرطبي : " فإن قيل : كيف وصفهم بالعلم وقد نعتهم بخلاف ذلك من الختم والطبع والصمم والعمى ؟ فالجواب من وجهين : أحدهما ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ يريد العلم الخاص بأن الله تعالى خلق الخلق وأنزل الماء وأنبت الرزق ، فيعلمون أنه المنعم عليه دون الأنداد ، الثاني : أن يكون المعنى وأنتم تعلمون وحدانيته بالقوة والإمكان لو تدبرتم ونظرتم والله أعلم ، ... وقال ابن

(١) زاد المسير ج١ ص ٤٢ .

(٢) الكشاف ج١ ص ٤٧ .

(٣) المحرر الوجيز ج١ ص ١٤٣ .

فورك : يحتمل أن تتناول الآية المؤمنين ، فالمعنى لا ترتدوا أيها المؤمنون وتجعلوا لله أندادا بعد علمكم الذي هو نفي الجهل بأن الله واحد " [١] ، وكما ترى ابن فورك حملها على المؤمنين وتطلب منهم ألا يرتدوا مع علمهم بوحدانية الله عز وجل .

اتضح من هذا الاستعراض أن القول بأن الآية يقصد بها وأنتم تعلمون أن الله هو الخالق الرازق الأوحد أحد الآراء ، وهناك معان أخرى ذكرت هي الأقوى والأقرب للصواب .

الآية في روايات أهل البيت عليهم السلام

وأما في روايات أهل البيت عليهم السلام فقد روى الصدوق بإسناده عن الإمام العسكري عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن علي بن الحسين زين العابدين عليهما السلام: " ثم قال عز وجل ﴿ **فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ** ﴾ يعني مما يخرجه من الأرض لكم ﴿ **فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً** ﴾ أي أشباها وأمثالا من الأصنام التي لا تعقل ولا تسمع ولا تبصر ولا تقدر على شيء ﴿ **وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ أنها لا تقدر على شيء من هذه النعم الجليلة التي أنعمها عليكم ربكم تبارك وتعالى " [٢] .

والرواية تصرح بأن علمهم هو بعجز هذه الآلهة التي اختلقوها ، فهو أمر واضح ملموس لكل ذي مسكة ، وليس الأمر أكثر من ذلك ، فليس الحديث عن علمهم بوحدانية الله ، ولا يعني علمهم ويقينهم بأن الآلهة المزعومة لا قدرة لها إقرارهم بالحق والتوحيد لمكان الجحود كما قال تعالى ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ** ﴾ النمل/١٤.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، المجلد الأول ، ج١ ص ٢٢١ .

(٢) توحيد الصدوق ص ٤٠٣ .

آية أخرى استدل بها على توحيد المشركين في الربوبية

هي قوله تعالى ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾ يوسف/١٠٦ .

فقد اعتبر البعض أن هذه الآية تؤيد من يقول بأنهم موحدون في الربوبية ، وقد روى الطبري عن ابن عباس قوله : " ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ** ... ﴾ ، قال : من إيمانهم إذا قيل لهم : من خلق السماء ومن خلق الأرض ومن خلق الجبال ؟ قالوا : الله ، وهم مشركون ...

وعن عكرمة قال : تسألهم من خلقهم ومن خلق السماوات والأرض ؟ فيقولون : الله فذلك إيمانهم بالله وهم يعبدون غيره ...

عن عكرمة : هو قول الله ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ فإذا سئلوا عن الله وعن صفته ، وصفوه بغير صفته وجعلوا له ولدا وأشركوا به ...

عن عكرمة ومجاهد وعامر ، أنهم قالوا في هذه الآية ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾ قال : ليس أحد إلا يعلم أن الله خلقه وخلق السماوات والأرض ، فهذا إيمانهم ويكفرون بما سوى ذلك ... عن قتادة : ... إنك لست تلقى أحدا منهم إلا أنبأك أن الله ربه وهو الذي خلقه وهو مشرك في عبادته ... عن ابن عباس قوله : ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾ يعني النصارى يقول ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ ، ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ ، ولئن سألتهم من يرزقكم من السماء والأرض ؟ ليقولن : الله ، وهم مع ذلك يشركون به ويعبدون غيره ويسجدون لأنداد دونه .

ابن زيد ... قال : ليس أحد يعبد مع الله غيره إلا وهو مؤمن بالله ويعرف أن الله ربه وأن الله خالقه ورازقه هو يشرك به ، ألا ترى كيف قال لإبراهيم ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۞ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ۞ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، قد عرف أنهم يعبدون رب العالمين مع ما يعبدون ، قال : فليس أحد يشرك به إلا وهو مؤمن به ، ألا ترى كيف كانت العرب تلبي ، فتقول : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك ، المشركون كانوا يقولون هذا "[١] .

وهو ظاهر من قال أنهم يقرون بخالقية الله ويشركون في عبادته ، كما في عبارة القرطبي : " نزلت في قوم أقروا بالله خالقهم وخالق الأشياء كلها وهم يعبدون الأوثان ، قاله الحسن ومجاهد وعامر والشعبي وأكثر المفسرين ... "[٢] ، ثم عدد الأقوال الأخرى .

وقال النسفي : " أي وما يؤمن أكثرهم في إقراره بالله وبأنه خلقه وخلق السماوات والأرض إلا وهو مشرك بعبادة الوثن ، الجمهور على أنها نزلت في المشركين لأنهم مقرون بالله خالقهم ورازقهم وإذا حزبهم أمر شديد دعوا الله ومع ذلك يشركون به غيره "[٣] .

---

(١) تفسير الطبري المجلد ٨ ، ج١٣ ص ١٠٠ - ١٠٣ ، روى البخاري معلقا عن عكرمة : " ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ ، ولئن سألتهم من خلقهم ومن خلق السماوات الأرض ليقولن الله ، فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره ، قال ابن حجر في (الفتح) ج١٣ ص ٤٩٤ : " (وقال عكرمة ... الخ) وصله الطبري ... وبأسانيد صحيحة عن عطاء وعن مجاهد نحوه ، وبسند حسن من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : إيمانهم إذا قيل لهم من خلق السماوات ومن خلق الأرض ومن خلق الجبال ؟ قالوا : الله ، وهم به مشركون " .

(٢) تفسير القرطبي ، المجلد الخامس ، ج٩ ص ٢٣٨ .

(٣) تفسير النسفي ج١ ص ٦٢٦ .

وعليه ينبغي حمل مثل عبارة الثعلبي : " يؤمنون بالله أنه ربهم هو خالقهم ويشركون من دونه ، وهذا قول أكثر المفسرين " [١] .

وأما ابن أبي حاتم فينقل روايتين يظهر منهما أن الحديث في الآية عن الشرك الأصغر ، قال : " ... عن زكريا بن زرارة ثنا أبي قال : سألت أبا جعفر محمد بن علي عن قوله ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾ ، قال أبو جعفر : شرك طاعة قول الرجل : لولا الله وفلان ، لولا وكلب بني فلان . ...

عن عزرة قال : دخل حذيفة على مريض فرأى في عضده سيرا فقطعه أو انتزعه ، ثم قال : ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾ " [٢] .

وروى نحوه الطبري عن عكرمة لكن في تفسير الآية السابقة قال : ﴿ **فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً** ﴾ أي تقولوا : لولا كلبنا لدخل علينا اللص الدار ، لولا كلبنا صاح في الدار ونحو ذلك " [٣] .

وصحيح أن الطبري ذهب إلى إن شركهم في العبادة مع إيمانهم بوحدانية الله في شئون الخلق والتدبير ، ولكنه ملتفت إلى أمور أخرى كادعائهم لوجود الولد لله تعالى عن ذلك ، قال : " وما يقر أكثر هؤلاء ... بالله أنه خالقه ورازقه وخالق كل شيء إلا وهم به مشركون في عبادتهم الأوثان الأصنام ، واتخاذهم من دونه أربابا وزعمهم أن له ولدا تعالى عما يقولون " [٤] .

أما الأقوال الأخرى التي ذكرها القرطبي فعددها قائلا : " وقال عكرمة : هو قوله ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ ثم يصفونه بغير صفته ويجعلون له أندادا ، وعن الحسن أيضا أنهم أهل الكتاب معهم شرك وإيمان ،

---

(١) تفسير الثعلبي ج٥ ص ٢٦٣ .

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ج٧ ص ٢٢٠٨ .

(٣) تفسير الطبري ، المجلد الأول ، ج١ ص ٢٣٧ .

(٤) المصدر السابق ، المجلد الثامن ، ج ١٣ ص ١٠٠ .

آمنوا بالله وكفروا بمحمد ﷺ حكاه ابن الأنباري ، وقال ابن عباس : نزلت في تلبية مشركي العرب لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك ، وعنه أيضا أنهم النصارى ، وعنه أيضا أنهم المشبه آمنوا مجملا وأشركوا مفصلا ، وقيل : نزلت في المنافقين ، المعنى ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ** ﴾ أي باللسان إلا وهو كافر بقلبه ذكره الماوردي عن الحسن أيضا ، وقال عطاء : هذا في الدعاء وذلك أن الكفار ينسون ربهم في الرخاء فإذا أصابهم البلاء أخلصوا في الدعاء بيانه ﴿ **وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ** ﴾ الآية ، وقوله ﴿ **وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ** ﴾ الآية ، وفي آية أخرى ﴿ **وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ** ﴾ ، وقيل : معناها أنهم يدعون الله لينجيهم من الهلكة ، فإذا أنجاهم قال قائلهم : لولا فلان ما نجونا ، ولولا الكلب لدخل علينا اللص ونحو هذا ، فيجعلون نعمة الله منسوبة إلى فلان ، ووقايته منسوبة إلى الكلب ، قلت : وقد يقع في هذا القول والذي قبله كثير من عوام المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وقيل : نزلت هذه الآية في قصة الدخان ، وذلك أن أهل مكة لما غشيهم الدخان في سني القحط قالوا ﴿ **رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ** ﴾ فذلك إيمانهم وشركهم عودهم إلى الكفر بعد كشف العذاب ، بيانه قوله ﴿ **إِنَّكُمْ عَائِدُونَ** ﴾ والعود لا يكون إلا بعد ابتداء ، فيكون معنى ﴿ **إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾ أي إلا وهم عائدون إلى الشرك ، والله أعلم " [1]

وكلمة ابن الجوزي (ت ٥٩٧) صريحة في أنهم ليسوا مؤمنين حقيقة قال : " فإن قيل كيف وصف المشرك بالإيمان ؟ فالجواب : أنه ليس المراد به حقيقة الإيمان ، وإنما المعنى أن أكثرهم مع إظهارهم الإيمان بألسنتهم مشركون " [2] .

(١) تفسير القرطبي ، المجلد الخامس ج٩ ص ٢٣٨ .

(٢) زاد المسير ج٤ ص ٢٢٧ .

وقال ابن عطية (ت ٥٤٦) : " قال ابن عباس : هي في أهل الكتاب الذين يؤمنون بالله. ثم يشركون من حيث كفروا بنبيه أو من حيث قالوا عزير ابن الله والمسيح ابن الله ، وقال عكرمة ومجاهد وقتادة وابن زيد هي في كفار العرب وإيمانهم هو إقرارهم بالخالق والرازق والمميت فسماه إيمانا وإن أعقبه إشراكهم بالأوثان الأصنام ، فهذا الإيمان لغوي فقط من حيث هو تصديقها ، وقيل : هذه الآية نزلت بسبب قول قريش في الطواف والتلبية .. " [1] .

المعنى الصحيح المبين في كلمات أهل البيت عليهم السلام

ولكن مع ذهاب عدد من المفسرين إلى ذلك إلا أن الصحيح هو التفسير المتفق عليه في قوله تعالى ﴿ **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ** ﴾ الفرقان/٤٣ ، فقد اتفق المفسرون على أن الآية لا تقصد أنهم اتخذوا الهوى إلها يركع ويسجد له ، ولكن بمعنى الشرك في الطاعة ، فالصحيح ما في رواية ابن أبي حاتم عن الباقر عليه السلام من قوله أنه : شرك طاعة .

وقد نقلت الرواية في مصادر الشيعة بعدة طرق عن الباقر وغيره من الأئمة عليهم السلام ، وأكدت عليه الروايات بعبارات تشعر كأنها رد على ما انتشر بين غيرهم من تفسير خاطئ للآية ، أهمها ما رواه القمي بسند موثق عن الفضيل عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تعالى ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾ ، قال : شرك طاعة ، وليس شرك عبادة ، والمعاصي التي يرتكبون فهي شرك طاعة ، أطاعوا فيها الشيطان ، فأشركوا بالله في الطاعة لغيره ، وليس بإشراك عبادة أن يعبدوا غير الله " ، ورواه العياشي عن زرارة عن الباقر عليه السلام .

(١) المحرر الوجيز ج٩ ص ٣٨٦ -٣٨٧ .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام : " شرك طاعة وليس شرك عبادة ، وعن الرضا عليه السلام قال : " شرك لا يبلغ به الكفر "[(١)] .

عود إلى آيات الإقرار الأساسية في الباب

فالأهم هي آيات الإقرار بخالقية الله ودراسة مدى دلالتها على توحيد المشركين في الربوبية ، ونحن قبل أن نعرض الرأي الصحيح في تفسيرها نريد أن نقول أهم ما يدل على خطأ من تبنى دلالتها على توحيد المشركين في الربوبية هو مجموع ما عرضناه في الباب الأول والذي خلص إلى وضوح اعتقاد المشركين بأن آلهتهم لها قدرتها الذاتية على الضر والنفع وهو يعني نوعا من الاعتقاد بربوبية تلك الآلهة ، ثم من الواضح لكل من يراجع التفاسير بأن هناك عدداً كبيراً من قدماء العلماء والمفسرين لم يذهبوا إلى الرأي السابق في تفسيرها ولم يقبلوه ، وتفاوت متبنياتهم في الآيات بين ثلاث :

التفسير الأول : أنهم ينطقون بلسان الفطرة

وهو رأي الطرف الآخر من المفسرين الذين اعتبروا جواب المشركين جواب المبهوت الذي لا بد أن يذعن للحقيقة أو هي لسان الفطرة السليمة والعقل الباطني الناطق بالحق أو هو معلق على الإنصاف أي يجب أن يكون جوابهم ذلك إن انصفوا ، وإليك كلمات بعض كبار المفسرين في ذلك :

قال القرطبي في عرض الرأي الثاني في تفسيره قوله تعالى ﴿ **وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ : " الثاني : أن يكون المعنى وأنتم تعلمون وحدانيته بالقوة والإمكان لو تدبرتم ونظرتم والله أعلم "[(٢)]

---

(١) تفسير القمي ج١ ص ٣٥٨ ، ورواية زرارة في العياشي ج٢ ص ١٩٩ ، ورواية الرضا والصادق عليهما السلام في الكافي ج٢ ص٢٩٢ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ، المجلد الأول ، ج١ ص ٢٢١ .

وقال القرطبي في سورة يونس : " ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ لأنهم كانوا يعتقدون أن الخالق هو الله أو فسيقولون هو الله إن فكروا وأنصفوا " ، وفي سورة المؤمنون : " ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ و لابد لهم من ذلك " (١) .

وقال ابن الجوزي في سورة يونس : " ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ لأنهم خوطبوا بما لا يقدر عليه إلا الله ، فكان في ذلك دليل توحيده " ، نعم قال في سورة العنكبوت : " ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم ﴾ يعني كفار مكة ، وكانوا يقرون بأنه الخالق الرازق ، وإنما أمره أن يقول ﴿ الْحَمْدُ لِلَّه ﴾ على إقرارهم لأن ذلك يلزمهم الحجة ، فيوجب عليهم التوحيد ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ توحيد الله مع إقراراهم بأنه الخالق " (٢) .

قال الزمخشري في سورة يونس : " ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾ ومن يلي تدبير أمر العالم كله ، جاء بالعموم بعد الخصوص ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أفلا تتقون لأنفسكم ولا تحذرون عليها عقابه فيما أنتم بصدده من الضلال ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ إشارة إلى من هذه قدرته وأفعاله ﴿ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ﴾ الثابت ربوبيته ثباتا لا ريب فيه لمن حقق النظر " ، وقال في سورة المؤمنون : " ومعناه ألا تتذكرون فتعلموا أن من فطر الأرض ومن فيها اختراعا كان قادرا على إعادة الخلق وكان حقيقا بأن لا يشرك به ببعض خلقه في الربوبية " (٣) .

وقال ابن عطية في سورة يونس : " ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ لا مندوحة لهم عن ذلك ولا تمكنهم المباهتة بسواه " ، وقال في سورة المؤمنون : " ﴿ قُل لِّمَنِ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، المجلد الرابع ، ج ٨ ص ٢٤٧ ، المجلد السادس ج١٢ ص ١٣٤ .

(٢) زاد المسير ج٤ ص ٢٢ ، ج٦ ص ١٤٥ .

(٣) الكشاف ج٢ ص ١٨٩ ، ج٣ ص ٥٤ .

﴿ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ... ﴾ أمر الله تعالى نبيه بتوقيفهم على هذه الأشياء التي لا يمكنهم إلا الإقرار بها ، ويلزم من الإقرار بها أن يؤمنوا بباريها " وقال في سورة العنكبوت : " ثم خاطبه تعالى بأمر الكفار وإقامة الحجة عليهم بأنهم إن سئلوا عن الأمور العظام التي هي دلائل القدرة لم يكن لهم إلا التسليم بأنها لله تعالى " (١) .

وقال البيضاوي في سورة يونس : " ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ ﴾ إذ لا يقدرون على المكابرة والعناد في ذلك لفرط وضوحه " ، وقال في سورة المؤمنون : " ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ لأن العقل الصريح قد اضطرهم بأدنى نظر إلى الإقرار بأنه خالقها " (٢) .

وقال الغرناطي في سورة يونس : " ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم ﴾ الآية : احتجاج على الكفار بحجج كثيرة واضحة لا محيص لهم عن الإقرار بها " ، وقال في سورة المؤمنون ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا ﴾ هذه الآيات توقيف [أي سؤال] لهم على أمور لا يمكنهم الإقرار بها وإذا أقروا بها ألزمهم توحيد خالقها والإيمان بالدار الآخرة " (٣) .

وقال الثعالبي في سورة يونس : " ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ ﴾ أي لا مندوحة لهم عن ذلك ولا تمكنهم المباهتة بسواه " ، وقال في سورة المؤمنون : " أمر الله تعالى نبيه

---

(١) المحرر الوجيز ج٩ ص ٣٨ ، ج١١ ص ٢٤٨ - ٢٤٩ ، ج١٢ ص ٢٣٧ .

(٢) أنوار التنزيل ج١ ص٤٣٤ ، ومثله الآلوسي في روح المعاني ، المجلد السابع ، ج١١ ص١٦١ ، أنوار التنزيل ج٢ ص١١٠.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ج١ ص ٣٥٦ ، ج٢ ص ٥٦ ، والظاهر وجود خطأ في العبارة والصحيح لا يمكنهم إلا الإقرار بها .

عليه السلام بتوقيفهم على هذه الأشياء التي لا يمكنهم إلا الإقرار بها ويلزم من الإقرار بها توحيد الله " [١] .

قال الشوكاني في سورة يونس : " ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ ﴾ أي سيكون قولهم في جواب هذه الاستفهام إن الفاعل لهذه الأمور هو الله سبحانه إن أنصفوا وعملوا ما يوجبه الفكر الصحيح والعقل السليم " ، وقال في سورة المؤمنون : " ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ أي لا بد لهم أن يقولوا ذلك لأنه معلوم ببديهة العقل " [٢] .

قال الطوسي : " ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾ أي ومن الذي يدبر جميع الأمور في السماء والأرض ، وليس جواب ذلك لمن أنصف ولم يكابر إلا أن يقول : الله الفاعل لجميع ذلك " [٣] ، ولكنه في آيتي المؤمنون والعنكبوت صرح بالنظرية الأخرى التي قوامها أن إقرارهم حقيقي ، وإنما كان شركهم في العبادة فقط .

وقال فتح الله الكاشاني في سورة يونس : " ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ ﴾ إذ لا يقدرون على المكابرة والعناد في ذلك لفرط وضوحه " ، وقال في سورة المؤمنون : " ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ لأن العقل الصريح قد اضطرهم بأدنى نظر إلى الإقرار بأنه خالقها " [٤] .

ما روي عن أهل البيت عليهم السلام في بيان حقيقة الإقرار .

روى الكليني بسند حسن بل صحيح عن زرارة عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كل مولود يولد على الفطرة يعني المعرفة بأن الله عز

(١) الجواهر الحسان ج٢ ص ٩٦ ، ج٢ ص ٤٣١ .

(٢) فتح القدير ج٢ ص٥٠٤ ، ج٣ ص ٥٨٦ .

(٣) التبيان ج ٥ ص ٣٧١ .

(٤) زبدة التفاسير ج٣ ص ٢٠٧ ، ج٤ ص ٤٥٩ ، ومثله المشهدي في كنز الدقائق ج٦ ص ٥٣ ، ج٩ ص ٢٠٧ .

وجل خالقه ، كذلك قوله تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ " [١] ، والنص صريح في أن الإمام عليه السلام يرى أن الجواب جواب الفطرة ، وهو ما ذكره البيضاوي في تفسيره .

قال العلامة المجلسي في شرح الخبر : " (كذلك قوله) أي هذه الآية أيضا محمولة على هذا المعنى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم ﴾ أي كفار مكة كما ذكره المفسرون أو الأعم كما هو أظهر من الخبر ﴿ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ لفطرتهم على المعرفة ، وقال البيضاوي : لوضوح الدليل المانع من إسناد الخلق إلى غيره بحيث اضطروا إلى إذعانه ، انتهى ، والمشهور أنه مبني على أن كفار قريش لم يكونوا ينكرون أن الصانع هو الله ، بل كانوا يعبدون الأصنام لزعمهم أنها شفعاء عند الله " [٢] .

فالواضح أن العلامة المجلسي يعتبر جواب الإمام عليه السلام هو خلاف لما اشتهر عند البعض ، وفي خبر آخر صحيح رواه الكليني عن أبي هاشم الجعفري قال : سألت أبا جعفر الثاني عليه السلام : ما معنى الواحد ؟ فقال : إجماع الألسن عليه بالوحدانية ، لقوله ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ " [٣] .

فمن الواضح أنه لا يراد من ذكر الآية القول بأن الألسن اجتمعت على الوحدانية حقيقية وإلا أصبح معنى الكلام أنه لا يوجد مشركون ، بل يريد الإمام عليه السلام التنبيه على لسان الفطرة الإنسانية يجمع ويتفق على التوحيد وأن

---

(١) الكافي ج٢ ص ١٢- ١٣ ، وحسن الخبر العلامة المجلسي في (مرآة العقول) ج٧ ص ٥٧ .

(٢) مرآة العقول ج٧ ص ٥٨ .

(٣) الكافي ج١ ص ١١٨ وصحح الخبر العلامة المجلسي في (مرآة العقول) ج٢ ص٤٩ ، ورواه الصدوق عن الكليني في كتاب (التوحيد) ص ٨٣ ، ورواه بطريق آخر بدون ذكر الآية في ص ٨٢ وفي (معاني الأخبار) ص٥ ، ورواه العلامة المجلسي في البحار ج٣ ص ٢٠٨ عن (المحاسن) بدون إضافة الآية وعن الاحتجاج وأضاف بعد الآية " بعد ذلك له شريك وصاحبة !! " بصيغة الاستنكار .

جوابهم المذكور في الآية هو مقتضى الفطرة لا ما يعتقدون فعلا ، فهي بمعنى الرواية السابقة ، ولذا قال العلامة المجلسي في شرح الخبر : " كقوله ﴿ **لَئِن سَأَلْتَهُم** ﴾ أي جميع الخلق إذا رجعوا إلى أنفسهم وجانبوا الأغراض الفاسدة التي صرفتهم عن مقتضى عقولهم أو المراد به مشركو مكة ، فإن شركهم كان في المعبودية لا الخالقية " [1] .

الحق أن الخبر الأخير بيان لمعنى الواحدية لا لدليل التوحيد

ما قلناه بناء على تفسير الخبر الثاني على أنه حديث عن دليل التوحيد وسيقت الآية لبيان اتفاق الناس على التوحيد ، ولكن الأرجح أن الخبر الثاني لا يقصد التوحيد ودليله ، بل يريد بيان معنى الوحدة في قوله تعالى ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ كما صرح به في الخبر برواية الاحتجاج إذ فيه : " قلت لأبي جعفر الثاني عليه السلام : قل هو الله أحد ما معنى الأحد ؟ قال : المجمع عليه بالوحدانية " ، ثم استشهد عليه السلام بالآية ، والحصيلة أن الإمام عليه السلام لم يستشهد بالآية لبيان إقراراهم بوحدانيته بل بواحديته أي هو موجود واحد متفق عليه في الألسن لا ينطبق إلا على موجود واحد ، ولكن من البشر من وحده في خالقيته ورازقيته وعبادته ومنهم من أضاف إليه شركاء صغار في التدبير والعبادة .

لذا قال الشعراني في تعليقته على شرح المازندراني لأصول الكافي : " إشكال آخر ، وهو أن اتفاق العقول وإجماع الألسن على وجود الله تعالى ليس دليلا على وحدته ، كيف وأكثر الناس مشركون ، وليس من شأن الإمام الاستدلال على التوحيد بإجماع الناس ، فالأوضح إرجاع الجواب إلى بيان معنى الوحدة ليستقيم المعنى ولا يرد الإشكال ... ومعنى الوحدة فيه (تعالى) أنه

(١) مرآة العقول ج٢ ص ٤٩ – ٥٠ .

متشخص بذاته وكل من تلفظ بلفظ الله أو تصور معناه فإنما يشير إلى ذلك الواحد بعينه وإن كان مشركا "[(١)].

والحصيلة أن هذا الرأي في تفسير آيات الإقرار يدور حول أنه بلسان الفطرة التي انحرفوا عنها ، ويقرب منه عبارة لا تمكنهم المباهتة الذي يعني الجواب المرتكز في الفطرة السليمة ، أو أنها بلسان غير الجاحد لمقتضى الأدلة ، ولكنهم فعلا جاحدون ، وقريب منه القول بأنه مقيد بقيد عقلي أي إن أنصفوا .

وهي عبارات متقاربة ، ولذا اعتبرناها قولا واحدا ، ويمكن تقرير الأمر بنحو آخر ، فنقول إن حقيقة قول المشركين هو إقرار وليس بإقرار ، وكأن الجواب جواب العقل الباطن عندهم ، فهناك معلومة ارتكازية في النفس واللاوعي ومعلومة أخرى مناقضة في الوعي وعند حضور الذهن ، ويكون المعتقد غير ملتفت للتناقض بينهما ، فالقرآن في العبارة الأولى يريد أن يحيى الحقيقة التي في اللاوعي والمرتكز النفسي عند المشركين ، ثم يلفت إلى التناقض بينه وبين معتقدهم بوجود آلهة أخرى ، فالإقرار الأول ليس بمعنى الإقرار بتوحيد الله في الخلق والتدبير ملتفت إليه ، بل بمعنى ما في مرتكزهم واللاوعي ، وأما مع الالتفات فهم يعتقدون بأنه الخالق والمدبر الأكبر وهو أمر لا يتعارض في معتقدهم مع وجود مدبرين آخرين أو موجودات أخرى تضر وتنفع ومستقلة في قدرتها على ذلك .

التفسير الثاني لحقيقة الإقرار

هناك احتمال آخر لا يقل قوة عما سبق بل هو الأقوى ولا يتنافى مع الروايات السابقة بناء على أنها أرادت بيان الواحدية لا التوحيد كما رجح

---

(١) شرح أصول الكافي ج٤ ص٢٦ .

الشعراني ولا مع كثير من كلمات المفسرين التي مر ذكرها ، وحصيلة هذا التفسير للإقرار أن الآيات تتحدث عن إقرار حقيقي بخالقية الله وتدبيره للكون ولكنه إقرار بخالقية الله وتدبيره لا بتوحيده في ذلك ، فالآيات تذكر إقرارهم بخالقية الله وتدبيره للكون ثم تشكل عليهم : إذا كنتم تقرون بأن الله هو الخالق المدبر ، فلم تعتقدون بوجود آلهة صغيرة تشارك الله في تدبير شئون الكون ؟! وإنما ذكروا الله لأنه الأكبر والمنبع لكل الآلهة الصغيرة باعتبار أبوته لها في زعمهم الباطل .

فالمشركون يقرون بأن الله هو الخالق والمدبر لكن لا على أنه الوحيد في ذلك بل هو الخالق والمدبر الأكبر ، ولكن معه آلهة أخرى لها دخل في بعض شئون الخلق والتدبير ، وكثيرا ما يعترض القرآن عليهم - بعد تنبيههم على مقتضى الفطرة الدالة على الله وخالقيته - فيقول لهم إذا كانت الفطرة والبديهة تصرخ بخالقية الله وتدبيره فما الحاجة لاختلاق أرباب آخرين كما هي عقيدتكم ؟!

فالقول بأن المشركين يقرون حقيقة بأن الله هو الخالق الأوحد وهو المدبر الأوحد فيكونون موحدين في الربوبية ولا يرون أن هناك آلهة أخرى بيدها تدبير بعض الأمور قول غير صحيح ، فهم حينما ينحرفون عن الفطرة السليمة ويجحدون الحق يقولون : نعم الله الخالق والله هو المدبر ، ولكن معه آلهة أخرى صغيرة تدبر بعض شئون الكون وتشارك الرب الأعلى في ذلك ولها استقلاليتها ، بل هذا هو معنى الشرك ، أي آلهة تشارك الإله الأكبر في تدبير أمور الكون .

وهذا ما قرره السيد الطباطبائي عليه الرحمة في تفسيره للآية ٣١ - ٣٦ من سورة يونس حينما اعتبر إقرارهم بأن الله المدبر حقيقيا باعتبار عدم تنافيه في

نظرهم مع تدبير الآلهة الصغيرة لبعض شئون الكون ، قال : " الحجة الأولى تسلك من الطريق الذي يعتبره الوثنيون وعبدة الأصنام فإنهم إنما يعبدون أرباب الأصنام بأصنامهم من جهة تدبيرهم للكون .. فالله سبحانه يلقن نبيه ﷺ الحجة على توحيده بالربوبية ، فأمر بقوله ﴿ قُلْ ﴾ أن يقول لهم في سياق الاستفهام ﴿ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ ... ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾ في جميع الخليقة ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ ﴾ اعترافا بأنه الذي ينتهي إليه جميع هذه التدبيرات في الإنسان وغيره لأن الوثنيين يعتقدون ذلك " [١] .

وقد يكون هو ما قصده عكرمة حينما قال في تفسير قوله تعالى ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ يوسف/١٠٦ : " هو قول الله ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ، فإذا سئلوا عن الله وعن صفته ، وصفوه بغير صفته ، وجعلوا له ولدا ، وأشركوا به ... " [٢] ، فقوله : وصفوه بغير صفته ... إلخ ، يدل على أن الحديث ليس عن أن شركهم في العبادة فقط ، بل هو ظاهر كثير من المفسرين الذين قالوا : " لا مندوحة لهم عن ذلك ولا تمكنهم المباهتة بسواه " ، أو قالوا : " إذ لا يقدرون على المكابرة والعناد في ذلك لفرط وضوحه " يقصدون مجرد خالقية الله وتدبيره لشئون الكون باعتباره الإله الأكبر ، فهي الحقيقة التي لا يمكنهم إنكارها لا توحيده في الخلق والتدبير .

ولو أردنا أن نمثل– ويتعالى الله عز وجل عن مثل هذا التمثيل – فهو مثل قولنا لشخص اعتبر بعض خدمة المنزل أربابا للمنزل مستقلين في تدبيره كما يعتبر في الوقت نفسه صاحب المنزل ربه الرئيسي ، فيقال له : أليس هو مالك

---

(١) الميزان ج١٠ ص ٥١ – ٥٣ .

(٢) تفسير الطبري ، المجلد الثامن ، ج ١٣ ص ١٠١ .

المنزل وربه ؟! فيقول : نعم ، فنقول له : فما الذي يجرك لأن تعتبر خدمة المنزل أربابا معه ؟

وبتمثيل آخر نقول هو كتمكين مسئول البنك شخصا ما من سحب أموال من حساب أحد التجار بادعاء أنه ابنه وله ما للأب من حق ، لذا حينما يحاسب المسئول يقال : من مالك الحساب والمتصرف في الحساب ؟ يقول : فلان ، فيقال له : فلم أعطيت هذا الحق للغير وسمحت له بالتصرف ؟! لكن لا بمعنى أنه أقر بنفي هذا الوصف عمّن ادعى أنه ابنه وفق زعم المسئول .

وليس بالضرورة أن نصف الشركاء بأنهم مدبرون للكون تدبير الله الإله الأكبر ، إذ إنهم يعتقدون بوجود موجودات مع الله لها قدرة ذاتية - لأنها آلهة أبناء لله من جنسه وفق زعمهم الباطل - على النصرة أو الضر والنفع من خلال اختراق نظام تدبير الله للكون على نحو مستقل عن الله وبلا إذن من الله .

فليس المانع من تحقق شرك الربوبية أن يقال أن المسيح ليس خالقا وليس مدبرا للكون ، بل مجرد القول أنه يستطيع أن يخرق نظام التدبير ويفعل ما يريد لأنه ابن محقق لذلك الشرك كما هو رأي بعض النصارى الذين رد عليهم القرآن ، بل لم يقيد قوله تعالى ﴿ **وَأُبْرِىءُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ** ﴾ آل عمران/٤٩ - والمصرح فيه بقدرة المسيح على إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بقيد - ﴿ **بِإِذْنِ اللهِ** ﴾ إلا ردا على عقيدة مثل هؤلاء النصارى ، وقد شبه القرآن عقيدتهم تلك بعقيدة المشركين في قوله تعالى ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ** ﴾ التوبة/ ٣٠ .

احتمال ثالث في بيان حقيقة الإقرار

قد يتبادر إلى الأذهان رأي ثالث ، خلاصته أن الآية تتحدث عن نوع معين من المشركين ممن عبد الآلهة التي زعم أنها بنات الله لقصد التقرب إلى الإله الأكبر ، مقابل أن النوع الآخر الذين عبدوها لأنها تضر وتنفع لقدراتها الذاتية فاتخذوها أربابا ، وهذه الآيات تتحدث عن النوع الأول ، فهذا الاحتمال يتوافق مع الرؤية الوهابية في اعتباره إقرارا حقيقيا بتوحيد الله في الخالقية والتدبير ، ولكن لا يوافقها في أنها عقيدة كل مشركي العرب ، وغالبا يذكر هذا الرأي عند تفسير آية الزلفى أي قوله تعالى ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** ﴾ .

ولكن الحق أنه احتمال يختص بالآية المذكورة وأما آيات الاقرار فظاهرها أنها تقرير لحال كل المشركين الذين عاصرهم رسول الله ﷺ ، فسياق الآيات وتكرارها في عدة مواضع والتأكيد عليها يظهر أنها حديث عن حالة تعم كل المشركين الذين واجههم رسول الله ﷺ لا بعضهم .

هل تشكل آية الزلفى قرينة على إن إقرارهم واقعي ؟

إن أصل وجود البعض المختلف في تفاصيل عقائده الشركية أمر لا شك فيه ، وهو ما قيل في قوله تعالى ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۞ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاء سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ﴾ الزمر/٣-٤ ، فالآية تتحدث عن بعض تلك العقائد الخاصة لبعض العرب لا أنها عقيدة لكلهم .

لكن هذا بناء على أن المقولة المذكورة في الآية عقيدة واقعية لهم ، وليست كذبا من القائلين بسبب إشكال أحرجهم فتخلصوا منه بقولهم ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** ﴾ كما سنوضحه فيما يلي .

وصريح كلمات بعض المفسرين بأن الآية هي قول بعضهم ، قال ابن عطية : " وهذه مقالة شائعة في العرب يقول كثير منهم في الجاهلية : الملائكة بنات الله ونحن نعبدهم ليقربونا ... ... وكأن هذه الطوائف كلها كانت ترى نفوسها أقل من أن تتصل هي بالله فكانت ترى أن تتصل بمخلوقاته " (١) ، وقال في آية الشفعاء : " وقولهم ﴿ **هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا** ﴾ هو مذهب النبلاء منهم " (٢) .

وفي الخبر الذي رواه السيوطي عن ابن جرير تصريح بأن هذا قول عدد محدود من قبائل العرب ، قال : " وأخرج ابن جرير من طريق جويبر عن ابن عباس (رض) ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء** ﴾ قال : أنزلت في ثلاثة أحياء عامر وكنانة وبني سلمة كانوا يعبدون الأوثان ويقولون : الملائكة بناته ، فقالوا ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** ﴾ " (٣) .

وقال المسعودي : " وكان من العرب من أقر بالخالق وأثبت حدوث العالم وأقر بالبعث والإعادة وأنكر الرسل وعكف على عبادة الأصنام ، وهم الذين حكى الله عز وجل قولهم ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** ﴾ ، وهذا الصنف هم الذين حجوا إلى الأصنام وقصدوها ، ونحروا لها البدن ونسكوا لها المناسك وأحلوا وحرموا " (٤) .

---

(١) المحرر الوجير ج١٤ ص ٥٩ .

(٢) المصدر السابق ج٩ ص ٢١ .

(٣) الدر المنثور ج٧ ص ٢١١ .

(٤) تاريخ المسعودي ج١ ص ٤٣٩ .

قال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى ﴿ **وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ** ﴾ الزخرف/٤٥ : " ﴿ **يُعْبَدُونَ** ﴾ لنفي أن يكون الله يرضى بعبادة غيره فضلا عن أن يكون غيره إلها مثله وذلك أن المشركين كانوا يعبدون الأصنام وكانوا في عقائدهم أشتاتا ، فمنهم من يجعل الأصنام آلهة شركاء لله ، ومنهم من يزعم أنه يعبدهم ليقربوه من الله زلفى ، ومنهم من يزعمهم شفعاء لهم عند الله ، فلما نفى بهذه الآية أن يكون جعل آلهة يعبدون أبطل جميع هذه التمحلات " [1] .

ولا بد من تفصيل البحث في هذه الآية لأن كثيرا ما ينظر لها على أنها تسند الرأي القائل بأن المشركين وحدوا الله في الربوبية وتتلاءم مع الآيات التي ظاهرها إقرار المشركين والتي شكلت أساسا للرؤية الوهابية ، بل أعتقد بأن عددا من السابقين ذهب إلى هذا الرأي بسبب انضمام هذه الآية إلى الآيات التي ظاهرها إقرار المشركين بخالقية الله .

وينبغي التنبيه على أن الآية وبلا شك تتحدث عن المشركين المعتقدين بوجود أبناء لله لأن الآية التالية هي قوله تعالى ﴿ **لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاء سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ﴾ .

وكما قلنا سابقا لا يضر الحصر المذكور في الآية بالرؤية التي نعرضها ونتبناها خلافا للرأي الآخر ، لأن الحصر حصر لسبب العبادة وأنها ليست إلا بقصد التقرب إلى الله بمعنى أنه ينفي الأسباب والأهداف الأخرى لعبادة تلك الآلهة ، وهذا الحصر كما قلنا لا ينفي وجود قيمة أخرى للآلهة من قبيل طلب الحوائج منها باعتبار قدراتها المميزة عن الموجودات الأخرى .

---

(١) التحرير والتنوير ج٢٥ ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

نعم يمكن أن يقال إن الآية تتنافى مع الرؤية التي رجحناها باعتبار أنها رؤية تعتمد على فرضية التلازم العرفي والعادي - عند أهل الديانات بمختلف مشاربها - بين صفة الخالقية والتدبير والقدرة على الضر والنفع الذاتيين لموجود ما واستحقاق عبادته ، وهذا التلازم يعني أن البشر عادة يعبدون من يرونه خلّاقا ذا قدرة ذاتية على النفع والضر ، فالموجود الذي يؤمنون بتملكه مثل هذه القدرة يعبدونه ، ومن عبدوه يعني أنهم آمنوا بامتلاكه مثل تلك القدرات الربوبية ، وكما قلنا سابقا لا ننفي إمكان انفكاك بين الأمرين عند بعض البشر .

والمهم أن هذه الآية تصرح بأنهم اعتبروا السبب الوحيد الذي أوجب عبادتهم لتلك الآلهة هو تقريبها لله بما يعني نفي قدراتها الذاتية كسبب للعبادة ، ولأن القدرات الذاتية لو اعتقدوا بها كانت سببا للعبادة ، فغالبا يكشف من نفيها بالحصر عدم اعتقادهم بها ، وبعبارة أخرى لو اعتقدوا بوجود قدرات ذاتية لآلهتهم لما اقتصروا على التقريب والشفاعة سببا للعبادة بل لذكر سبب آخر وهو رجاء نفعها وضرها الذاتيين بسبب قدراتها الإلهية .

وبصيغة ثالثة صحيح أن المذكور في الآية مجرد حصر سبب العبادة بالتقرب إلى الله ، وليس فيها نفي للخصوصيات الأخرى للآلهة كالقدرات الذاتية لها ، ولكن لو كانت لها القدرات الذاتية لعبدت لهذا السبب وما دام كل سبب غير التقرب إلى الله الإله الأكبر تم نفيه واستبعاده فهذا يعني أنها لا تمتلك تلك القدرات في نظرهم ، فلا يمتلكها إلا الله ، وهذا هو التوحيد في الربوبية فقط .

المطلوب من القارئ التدقيق في تفاصيل الرد التالي

فنقول : نعم هذا يرجح أن الآية تتحدث عن عقيدة هي لبعض المشركين إن لم نلاحظ القرينة التي سنذكرها فيما يلي ، وقد نقلنا كلمات من صرح بأنها عقيدة لبعض المشركين ، فلا نمنع أن يكون بعض الذين ثبت توحيدهم لله في الربوبية عبدوا آلهة لمجرد التقرب لله لا لقدرتها الذاتية على الضر والنفع خلافا للأصل ، ولذا قالوا ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** ﴾ .

والحصيلة أن التلازم الذي تبنيناه بين الربوبية والألوهية إنما هو تلازم عادي عرفي وليس حقيقيا ، بمعنى هو الغالب عند البشر عمليا ، فلا مانع من أن يوجد بين البشر من يفكك بين الأمرين ، فقد يوجد من يعبد موجود لا يعتقد بخالقيته وضره ونفعه الذاتيين ، كما قد يوجد من لا يعبد الخالق الضار النافع أصلا أو يعبده لسبب آخر ، وعلى هذا الآية تذكر مقولة بعض المشركين الذين خالفوا الأصل المعهود عند البشر .

لكن القرينة ترجح أن القائلين مشركون في الربوبية

فإن ظاهر حال هؤلاء القائلين في الآية أنهم في صدد تبرير ما هم عليه من الشرك وأرادوا رد إشكال أورد عليهم ، وقد صرح عدد من المفسرين بأن مقولتهم تلك جاءت في هذا السياق ، وأنّه إشكال قيل تبعا لإقرارهم بالله كخالق – إما بلسان الفطرة أو بالخالقية والتدبير دون التوحيد كما بينا – وكلامهم متفرع على ذلك ، فقد روي عن قتادة قوله : " وذلك أنهم كانوا إذا قيل لهم : من ربكم وخالقكم ومن خلق السماوات والأرض ؟ قالوا : الله ،

فيقال لهم : ما معنى عبادتكم الأوثان ؟ قالوا : ليقربونا إلى الله زلفى ... ... ويشفعوا لنا عنده "[١] .

وقد صرح البقاعي أنهم في صدد الاعتذار عن أمر فقال : " ولما كان من العجب العجيب فعلهم هذا بين ما وجهوا به فعلهم ليكون آية بينة في أنه لا هدى لهم فقال ﴿ **مَا** ﴾ أي القائلين لمن أخلصوا له الدين إذ أنكروا عليهم أن يتخذوا من دونه وليا ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ** ﴾ لشيء من الأشياء ﴿ **إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا** ﴾ ، ... وسره أنهم أرادوا بهذا الاعتذار المسكت عن قبيح صنيعهم "[٢] .

وكذلك قال دروزة : " ويلوح من حكاية اعتذار المشركين عن شركهم وزعمهم أنهم إنما يعبدون الشركاء ليكونوا لهم سبب قربى إلى الله أن الآيات نزلت بسبيل التعقيب على مشهد مناظرة وجدل بين النبي ﷺ وبينهم أو بسبيل تسجيله والتنديد بهم من أجله "[٣] .

وقد صرح الشيخ ابن عاشور بأن هناك تشنيعاً عليهم فأرادوا المعذرة لأنفسهم ، فقال : " والاستثناء في قوله ﴿ **إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا** ﴾ استثناء من علل محذوفة أي ما نعبدهم لشيء إلا لعلة أن يقربونا إلى الله ، فيفيد قصرا على هذه العلة قصر قلب إضافي ، أي دون ما شنعتم علينا من أن كفرنا نعمة خالقنا إذ عبدنا غيره ، وقد قدمنا آنفا من أنهم أرادوا به المعذرة "[٤] .

---

(١) تفسير البغوي ج٤ ص ٦١ .

(٢) نظم الدرر ج٦ ص ٤١٦ .

(٣) التفسير الحديث ج٤ ص ٢٩٨ .

(٤) التحرير والتنوير ج٢٤ ص ١٤ .

ولذا سيدور تفسير جوابهم بين احتمالين :

الأول : أن القصر في الآية إضافي وغير حقيقي ، والحصيلة كأنما قيل لهم : كيف تعبدون آلهة صغيرة مع معرفتكم بالله الإله الأكبر أليس في ذلك توهينا له وتنقيصا من منزلته ، قالوا جوابا على ذلك : بل الأمر عكس ما تشنعون علينا إنما نعبدها لتقربنا إلى الله ، فمن الواضح إن القصر لن يكون حقيقيا بل لدفع توهم توهين وتنقيص الإله الأكبر ، والحصيلة لن يدل الحصر المذكور على أن التقرب إلى الله هو السبب الوحيد لعبادة تلك الآلهة .

الثاني : أنهم كذبوا في جوابهم وأرادوا التملص ولو بالكذب ، فلم يكونوا في جوابهم بصدد الحديث عن عقيلة واضحة وإنما كانوا في حال جدل و رد إشكالات آنية ، وكانوا محرجين في رد بعض الإشكالات القوية ، فكأنما حينما أشكل عليهم بأنكم كفرتم نعمة الإله الأكبر وحططتم من قدره بعبادة الصغار أجابوا بهذا الجواب ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** ﴾ ، وهو جواب مستعجل آني غير مدروس صدر منهم كذبا وإخفاء للحقائق وأنهم في الواقع يعتقدون بأن الآلهة قادرة ذاتا وتضر وتنفع وعبدوها لذلك ، ويشعر بذلك ختم الآية بقوله تعالى ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ** ﴾ ، فهو أمر غير واضح اختلفوا وتخرصوا فيه ، فجمعوا بين الكفر والكذب .

قال ابن عاشور : " ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ** ﴾... وهو كناية عن كونهم كاذبين في قولهم ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ** ﴾ وعن كونهم كفارين بسبب ذلك وكناية عن كونهم ضالين " [1] .

---

(١) التحرير والتنوير ج٢٤ ص ١٥ .

وقفة أخيرة في هذا الفصل

وقبل أن ننتقل للفصل الأساسي ، نقول للوهابية : لو سلمنا معكم بأن المشركين اعتقدوا بأن هناك بنات لله وليس لهؤلاء البنات أي دخل في التدبير بل كانت مجرد وجودات يستشفع بها .

ولكن ألا يكفي فرقا بين المسلمين والمشركين أنه لا يوجد أحد من المسلمين من يعتقد بأن هناك أبناء وبنات لله كما اعتقد المشركون والنصارى واليهود ، ألا يكفي ذلك في التفريق بين المسلمين وبين المشركين ، ألا يكفي اعتبار القرآن أن مجرد ادعاء الولد لله هو أكبر افتراء تكاد السماوات تتفطر منه كما في قوله **﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۞ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۞ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۞ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾** مريم/٨٨ - ٩١ .

وبعبارة أخرى ألا يمكن أن يكون محقق الشرك عند المشركين مجرد اعتقادهم بأن لله بنات ، إذ لا شك بأن هناك نوعاً من التجانس يجعل الإله الصغير ابنا وبنتا لله ، ولنقل إن هذا التجانس لا يوجب قدرات تدبيرية للابن ويبقى التدبير بيد الإله الأعظم ، ألا يكفي أن نقول أن هذا هو الفارق الكبير بين المسلم وغيره ، فيكفي في الحكم بشركهم وكفرهم تلك العقيدة وإن قيل بأنهم يعتقدون بأن الخالق والمدبر الأوحد هو الله ، ويكفي في الحكم بإسلام المسلم اعتقاده بأن الخالق المدبر هو الله الذي **﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾** التوحيد ، فلا يوجد بين المسلمين من يؤمن بوجود أبناء وبنات لله خلافا لهؤلاء المشركين .

كيف تجرأتم وجعلتم من يشهد الشهادتين ويشهد بأن الله لم يلد ولم يولد ويشهد بأنه لا تجوز عبادة غير الله مشركا ومساويا لمن يعتقد بأن لله بنات ويعتقد بأن هذه الآلهة البنات تعبد كما يعبد الله تعالى عن سخافات وضلالات المشركين ، وشرُف وكرُم المسلمون عن مثل توصيف الوهابية ومن تبعها من التكفريين ؟!!

ولننتقل إلى الفصل الثاني والجوهري وهو شرك الإلوهية الذي اتهم به الوهابيون المسلمين ، فرأيهم في موجبات الوقوع في شرك الإلوهية بلا شك بدعة حرانية وهابية لم يسبق إليها أحد ، خلافا للخطأ الذي بحثنا عنه في هذا الفصل فقد قال به عدة من السابقين ، ولذا لا يبتني عليه الفصل التالي ، بمعنى أن الوهابية ضلت في خطئها الكبير المبحوث عنه في الفصل التالي وإن سلمنا بأن المشركين موحدون في الربوبية .

الفصل الثالث

المسلمون لم يشركوا في الألوهية

(العبادة)

توطئة للفصل

في هذا الفصل نبحث في جوهر الخلاف مع الوهابيين ، فما سبق عرضه مسألة اختلف فيها العلماء قبل نشأة الرؤية الحرانية الوهابية ومع ذلك لم يتهم أحد منهم المسلمين بالشرك ، والسبب الذي يجر الوهابية لاتهام المسلمين بالوقوع في الشرك يرتبط في الأعم الأغلب بفهمهم الخاص لمفاهيم العبادة والشفاعة والدعاء ، وهي الأمور التي سنبحثها في هذا الفصل .

والمهم هو تحديد الأمر الذي يحقق شرك العبادة عن المسلمين المتهمين ، ولا شك إن الإنطلاقة الشرعية للحديث عن شرك العبادة تبدأ من الآيات التي تدعو إلى عبادة الله وحده ونبذ عبادة الشركاء كقوله تعالى ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ** ﴾ ، وأصحاب هذه الرؤية يركزون على آيتي الزلفى والشفعاء أي قوله تعالى ﴿ **وَيَعْبُدُونَ من دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ** ﴾ يونس/١٨ ، وقوله عز وجل ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** ﴾ الزمر/٣ لأنهما تذكران اعتقادهم بالله في عين حال شركهم ، فهما الأفضل لتقريب رؤيتهم لحال المسلمين المؤمنين بالله ولكن مشركين به في الوقت نفسه .

وينقسم الفصل إلى ثلاثة أبواب ، إذ لا بد أولا من البحث في معنى الكلمة من الناحية اللغوية ثم ننتقل للحديث عن تعريف العبادة ومنها التعاريف المذكورة في كلمات أصحاب هذه الرؤية ، كل ذلك في **الباب الأول** .

وفي **الباب الثاني** من الفصل نبحث حول التحديدات الوهابية لموجبات الوقوع في شرك العبادة عند المسلمين ، وسترى أن العبادة الشركية - التي يتهم هؤلاء المسلمين أنهم قصدوا بها غير الله - تدور بين احتمالين : الأول هو مجرد التوسيط والشفاعة ، فبعض عباراتهم يظهر منها ذلك ، والثاني - وهو الأظهر من كلامهم - قصد غير الله ببعض العبادات والنسك .

فبناء على ما سبق سينقسم **الباب الثالث** والخاص بمناقشتهم وبيان بطلان رؤيتهم إلى مبحثين :

الأول : الشفاعة كموجب للشرك وتبعا له التوسل ،

الثاني : العبادات - بمعنى الأعمال المتعبد بها - التي ادعوا أن المسلمين يمارسونها لغير الله ، فهي التي أوجبت وقوعهم في الشرك حينما قصدوا بها غير الله ، وباعتبار تنوع خطأهم إلى نوعين أساسين كما سترى ، انقسم المبحث الثاني إلى قسمين :

الأول : يتعلق بعبادة النذر والذبح ونحوهما .

الثاني : يتعلق بعبادة الدعاء .

الباب الأول

العبادة لغة واصطلاحا

العبادة في اللغة

قال الخليل (ت ١٧٥) : " الإنسان حرا أو رقيقا هو عبد الله ويجمع على عباد وعبدين ، والعبد المملوك وجمعه عبيد وثلاثة أعبد وهم العباد أيضا ، إن العامة اجتمعوا على تفرقة ما بين عباد الله والعبيد المملوكين ، وعبد بيّن العبودية وأقر بالعبودية ... .

وأما عبد يعبد عبادة فلا يقال إلا لمن يعبد الله وتعبد تعبدا أي تفرد بالعبادة ، أما عبد خدم مولاه فلا يقال عبده ولا يعبد مولاه ...

والمعبد كل طريق يكثر فيه المختلفة ، المسلوك ... " [١] .

قال الأزهري (ت ٣٧٠) : " وأخبرني المنذري عن أبي الهيثم أنه قال : المعبد المذلل ، والمعبد : البعير الجرب ... ، قال : تعبّدت فلانا أي اتخذته عبدا مثل عبّدته سواء وتأمّيت فلانة أي اتخذتها أمة .

وقال الفراء : يقال : فلان عبد بين العبودة والعبودية والعبدية وتعبد الله العبد بالطاعة أي استعبده .

قال الزجاج : في قول الله تعالى ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ إياك نطيع الطاعة التي نخضع معها ... ، قال : ومعنى العبادة في اللغة الطاعة مع الخضوع ، ويقال طريق معبد إذا كان مذللا بكثرة الوطء ، وبعير معبد إذا كان مطليا بالقطران ...

---

(١) العين ص ٥٩٢ - ٥٩٣ .

وقال الليث : العبد المملوك وجماعتهم العبيد وهم العباد أيضا إلا أن العامة اجتمعوا على تفرقة ما بين عباد الله والمماليك ، فقالوا : هذا عبد من عباد الله وهؤلاء عبيد مماليك ، قال : ولا يقال عبد يعبد عبادة إلا لمن يعبد الله ومن عبد من دونه إلها فهو من الخاسرين ، قال : وأما عبد خدم مولاه فلا يقال عبده ... قال الليث : ويقال للمشركين هم عبدة الطاغوت ويقال للمسلمين عباد الله يعبدون الله ...

وقال ابن الأنباري : فلان عابد وهو الخاضع لربه المستسلم لقضائه المنقاد لأمره ، وقوله ﴿ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ أي أطيعوا ربكم ، وقيل في قوله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ إياك نوحد ، والعابد الموحد ...

وقال اللحياني : عبدت الله عبادة ومعبدا ، والمعبّد : الطريق الموطوء ...

وقال الزجاج في قول الله جل وعز ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات/٥٦ : المعنى ما خلقتهم إلا لأدعوهم إلى عبادتي وأنا مريد العبادة منهم وقد علم الله قبل أن يخلقهم من يعبده ممن يكفر به ولو كان يخلقهم ليجبرهم على عبادته لكانوا كلهم عبادا مؤمنين ، قلت : وهذا قول أهل السنة والجماعة " [1] .

وقال ابن فارس (ت ٣٩٥) : " عبد : العين والباء والدال أصلان صحيحان كأنهما متضادان ، والأول من ذينك الأصلين يدل على لين وذل والآخر على شدة وغلظ .

فالأول : العبد وهو المملوك والجماعة العبيد ، وثلاثة أعبد وهم العباد ، قال الخليل : إلا أن العامة اجتمعوا على تفرقة ما بين عباد الله والعبيد المملوكين ...

---

(١) تهذيب اللغة ج٢ ص١٣٦ -١٤١ .

ومن الباب البعير المعبد أي المهنوء بالقطران وهذا أيضا يدل على ما قلناه لأن ذلك يذله ويخفض منه ، والمعبد الذلول يوصف به البعير أيضا ، ومن الباب الطريق المعبد وهو المسلوك المذلل .

والأصل الآخر العبدة وهي القوة والصلابة يقال : هذا ثوب له عبدة إذا كان صفيقا قويا ، ومنه علقمة بن عبدة بفتح الباء " [١] .

وقال ابن سيده (ت ٤٥٨) : العبد : الإنسان حرا كان أو رقيقا يذهب بذلك إلى أنه مربوب لباريه جل وعز ، والعبد : المملوك ، قال سيبويه : هو في الأصل صفة ، قالوا : رجل عبد ، ولكنه استعمل استعمال الأسماء ...

والعبدي والعبداء والمعبوداء والمعبدة أسماء الجمع وجعل بعضهم العباد لله وغيره من الجمع لله وللمخلوقين ، وخص بعضهم بالعبدي العبيد الذين ولدوا في الملك ، والأنثى عبدة ...

والاسم من كل ذلك العبودة والعبودية ولا فعل له عند أبي عبيد ...

وعبد الرجل عبودة وعبودية وعبد : ملك هو وآباؤه من قبل ...

وعبد الله يعبده عبادة ومعبدا ومعبدة تأله له ... والمتعبد : المتفرد بالعبادة ، والمعبد : المكرم المعظم كأنه يعبد ... وبعير معبد : مهنوء ... وبعير معبد : مذلل ، وطريق معبد : مسلوك مذلل ...

وقيل : عبد عبدا فهو عبد وعابد : غضب وأنف " [٢] .

وقال ابن منظور (ت ٧١١) : " العبد الإنسان حرا كان أو رقيقا يذهب بذلك إلى أنه مربوب لباريه ... ، والعبد : المملوك خلاف الحر ...

---

(١) معجم مقاييس اللغة ص ٧٠١ - ٧٠٢ .

(٢) المحكم والمحيط الأعظم ج٢ ص ٢٥ — ٢٧ .

ويقال : فلان عبد بين العبوة والعبودية والعبدية وأصل العبودية الخضوع والتذلل ...

وجعل بعضهم العباد لله وغيره من الجمع لله والمخلوقين ... قال الأزهري : اجتمع العامة على تفرقة ما بين عباد الله والمماليك فقالوا هذا عبد من عباد الله وهؤلاء عبيد مماليك ، قال : ولا يقال عبد يعبد عبادة إلا لمن يعبد الله ....

وعبد الله يعبده عبادة ومعبدا ومعبدة تأله له ، ورجل عابد من قوم عبدة وعبد وعبّد وعبّاد ، والتعبد التنسك ، والعبادة الطاعة " [1] .

قال أبو البقاء (ت ١٠٩٤) : " العبد : هو الإنسان يملكه من يملك ...

والعبد المضاف إلى الله تعالى يجمع على (عباد) وإلى غيره على (عبيد) وهذا هو الغالب ، وفي عرف القرآن إضافة العباد تختص بالمؤمنين ، والعبيد إذا أضيف إلى الله فهو أعم من العباد ولهذا قال تعالى ﴿ **وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾ ...

والعبودية أقوى من العبادة لأنها الرضا بما يفعل الرب ، والعبادة : فعل ما يرضي الرب ، والعبادة تسقط في العقبى والعبودية لا تسقط ، وعبدت الله بالتخفيف ، وعبّدت الرجل بالتشديد أي اتخذته عبدا " [2] .

قال الزبيدي (ت ١٢٠٥) : " والعبودية والعبودة بضمهما والعبادة بالكسر : الطاعة ، وقال بعض أئمة الاشتقاق أصل العبودية الذل والخضوع ، وقال آخرون : العبودية الرضا بما يفعل الرب والعبادة فعل ما يرضي الرب ، والأول أقوى وأشق ... ، وقال الله عز وجل ﴿ **اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ** ﴾ أي أطيعوا ربكم ،

---

(١) لسان العرب ج٣ ص ٢٧٠ – ٢٧٢ .

(٢) الكليات ص ٦٤٨ – ٦٥٠ .

وقوله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ أي نطيع الطاعة التي يخضع معها ، قال ابن الأثير : ومعنى العبادة في اللغة الطاعة مع الخضوع " [١] .

الحصيلة والخلاصة

نجد تعددا في استعمالات الكلمة ولكن بطبيعة الحال نحن نبحث حول استعمال معين من تلك الاستعمالات التي ذكرت وهو المعنى المقصود في استعمالها في مثل قولنا عبادة الله وعبادة الأوثان أي ما يبحث عند الحديث عن العقائد الحقة والباطلة ، وقد بين الراغب التعدد بعد توضيحه المعنى الذي نقصده ونبحث فيه قال :

" العبودية إظهار التذلل ، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل و لا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى ، ولهذا قال ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ ، والعبادة ضربان : عبادة بالتسخير وهو كما ذكرناه في السجود ، وعبادة بالاختيار وهو لذوي النطق وهي المأمور بها في نحو قوله ﴿ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ ، ﴿ وَاعْبُدُواْ اللّهَ ﴾ ، والعبد يقال على أربعة أضرب :

الأول : عبد بحكم الشرع وهو الإنسان الذي يصح بيعه وابتياعه نحو ﴿ الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ ﴾ و ﴿ عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ .

الثاني : عبد بالإيجاد وذلك ليس إلا لله وإياه قصد بقوله ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ .

---

(١) تاج العروس ج٢ ص ٤١٠ .

والثالث : عبد بالعبادة والخدمة والناس في هذا ضربان :

عبد لله مخلصا وهو المقصود بقوله ﴿ ... **نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا** ﴾ ، ﴿ **نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ** ﴾ ...

وعبد للدنيا وأعراضها وهو المعتكف على خدمتها ومراعاتها ، وإياه قصد النبي ﷺ بقوله : تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدنيا ...

ويقال طريق معبد أي مذلل بالوطء وبعير معبد مذلل بالقطران " [١] .

وهكذا يتحدث السيد الخوئي عن تعدد استعمالات الكلمة في اللغة قائلا :

" العبادة في اللغة تأتي لأحد معان ثلاثة :

الأول : الطاعة ، ومنه قوله تعالى ﴿ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾ فإن العبادة المنهي عنها في الآية المباركة إطاعته .

الثاني : الخضوع والتذلل ومنه قوله تعالى ﴿ **فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ** ﴾ أي خاضعون متذللون ، ومنه أيضا إطلاق المعبد على الطريق الذي يكثر فيه المرور .

الثالث : التأله ، ومنه قوله تعالى ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ** ﴾ ، وإلى المعنى الأخير ينصرف هذا اللفظ في العرف العام إذا أطلق دون قرينة " [٢] .

والسيد الخوئي ذكر في الثاني المعنى اللغوي للكلمة وفي الثالث المعنى المقصود والمبحوث عنه أي الخضوع الخاص لله ، وسماه التأله وسيتضح ذلك أكثر .

(١) المفردات ص ٣١٩ ، وقال أربعة باعتبار انقسام الثالث إلى قسمين .

(٢) البيان في تفسير القرآن ص ٤٨٨ .

المهم أن المعنى الذي يهمنا هو المستعمل في مثل قولنا : يجب عبادة الله وترك عبادة الأصنام ، وهو معنى متسالم عليه بين المتشرعة تعود جذره اللغوية - كما في كلمات اللغويين - إلى معنى الخضوع والتذلل ، فالكلمة انطلاقا من ذلك تطلق على العبد القن المملوك كما في قوله تعالى ﴿ **ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ** ﴾ النحل/٧٥ ، كما تطلق بمعناها اللغوي على كل موجود هو خاضع متذلل لله في وجوده ، فلا شك أنه استعمل بهذا المعنى في قوله تعالى ﴿ **إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا** ﴾ مريم/٩٣ ، وهو ما قد يعبر عنه عبد بالتكوين ، ومثل قولنا طريق معبد وبعير معبد يرجع إلى هذا المعنى ، وقد بين ابن فارس وحدة المنطلق اللغوي في تلك الاستعمالات .

وأما في الشرع هو خضوع أيضا ولكن خاص للمعبود ، واللغويون حاولوا تحديده والتمييز بينه وبين مطلق الخضوع ، وإليك خلاصة عبارات بعضهم في ذلك :

- عبد يعبد عبادة فلا يقال إلا لمن يعبد الله وتعبد تعبدا أي تفرد بالعبادة .
- فلان عابد وهو الخاضع لربه المستسلم لقضائه المنقاد لأمره .
- وعبد الله يعبده عبادة ومعبدا ومعبدة تأله له .
- والتعبد التنسك ، والعبادة الطاعة .
- والعبادة : فعل ما يرضي الرب .
- والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل و لا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى .

وأعتقد بأنهم لم يستطيعوا تقريب ما يريدون تمييزه إلا بذكر ارتباطه بالرب أو بالله أو بينوه بكلمة التأله ، واعتقد أن هناك اندماجا بين المعنى اللغوي

والمعنى الشرعي في كلمات اللغويين ، فالمعنى الشرعي ليس بعيدا عن المعنى اللغوي للمفردة .

العبادة في كلمات العلماء

من الطبيعي هنا أن نرجع إلى ما قاله علماء الإسلام في تعريف العبادة باعتبار سعيهم لفرز المعنى اللغوي عن الاصطلاح الشرعي .

ولاشك أنك تجد مقدارا من البحث حول الأمر في كتب العقيدة ، كما تجد بحثا عن المعنى القرآني والشرعي للمفردة عند المفسرين عند تفسيرهم لآيات من قبيل قوله تعالى ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ الحمد/٤ ، وقوله عز وجل ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون** ﴾ الذاريات/٥٦ ، وينبغي معها ملاحظة الأحاديث والآثار الواردة عند تتبع كلماتهم ، وكذلك تجد جزءا من الحديث في كتب الفقه عند التعرض للعبادات بالمعنى المقابل للمعاملات .

وسيتبين أن العبادة التي يجب توحيد الله بها ونبذ الشرك فيها عرفت من قبل علماء العقيدة والتفسير ، ولكن لم تحدد على نحو مصاديق دقيقة ومحددة إلا في كلمات الفقهاء الذين تحدثوا عن العبادات في مقابل المعاملات ، أي العبادات التي يشترك في صحتها نية التقرب إلى الله أو لنقل النية قوامها ، وهي الأعمال التي لو قصد بها الإنسان غير الله لوقع في شرك في العبادة ، ونقول بعبارة أخرى غير الفقهاء يتحدثون في الغالب عن العبادة بمعنى التعبد وأما الفقهاء فيتحدثون في الأغلب عن العبادة بمعنى العمل المتعبد به ، ولنبدأ بكلمات المفسرين وسيتبين الأمر أكثر فيما يلي .

الكلمة عند المفسرين

قال الطبري : " وتأويل قوله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ : لك اللهم نخشع ونذل ونستكين إقرارا لك يا ربنا بالربوبية لا لغيرك .

... عن عبدالله بن عباس قال : قال جبريل لمحمد ﷺ قل يا محمد : إياك نعبد ، إياك نوحد ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك ، ... لأن العبودية عند جميع العرب أصلها الذلة ، وأنها تسمى الطريق المذلل الذي وطئته الأقدام وذللته السابلة : معبدا ... ، ومن ذلك قيل للبعير المذلل بالركوب في الحوائج معبد ، ومنه سمي العبد عبدا لذلته لمولاه " [١] .

قال السمرقندي : " ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ أي نوحد ونطيع ، وقال بعضهم ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ يعني إياك نطيع طاعة نخضع فيها لك " [٢] .

وقال الزمخشري : " والعبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل ، ومنه ثوب عبدة إذا كان غاية في الصفاقة وقوة النسج ، ولذلك لم تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى لأنه مولى أعظم النعم فكان حقيقا بأقصى غاية الخضوع " [٣] .

وقال القرطبي في تفسيره : " ونعبد معناه نطيع والعبادة الطاعة والتذلل وطريق معبد إذا كان مذللا للسالكين قاله الهروي ، ونطق المكلف به إقرار بالربوبية وتحقيق لعبادة الله تعالى إذ سائر الناس يعبدون سواه من أصنام وغير ذلك " [٤] .

---

(١) تفسير الطبري ج١ ص ١٠٣ ، وخبر ابن عباس رواه ابن أبي حاتم في تفسيره ج١ ص ٢٩ .

(٢) تفسير السمرقندي ج١ ص ٤٣ .

(٣) الكشاف ج١ ص ١٠ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ج١ ص ١٤٢ .

وقال في تفسير ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ البقرة/٢١ : " قوله تعالى ﴿ اعْبُدُواْ ﴾ أمر بالعبادة له ، والعبادة هنا عبارة عن توحيده والتزام شرائع دينه وأصل العبادة الخضوع والتذلل يقال : طريق معبدة إذا كانت موطوءة بالأقدام ، قال طرفة : وظيفا وظيفا فوق مور معبد ، والعبادة : الطاعة ، والتعبد : التنسك ، وعبّدت فلانا : اتخذته عبدا " [١] .

وقال ابن الجوزي في تفسير قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات/٥٦ : " والرابع : إلا ليخضعوا إلي ويتذللوا ، ومعنى العبادة في اللغة : الذل والانقياد ، وكل الخلق خاضع ذليل لقضاء الله عز وجل لا يملك خروجا عما قضاه الله عز وجل هذا مذهب جماعة من أهل المعاني " [٢] .

قال البغوي : " ﴿ نَعْبُدُ ﴾ أي نوحدك ونطيعك خاضعين ، والعبادة الطاعة مع التذلل والخضوع ، وسمي العبد عبدا لذلته وانقياده ، يقال طريق معبد أي مذلل " [٣] .

قال ابن عطية : " وقوله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ نطق المؤمن به إقرار بالربوبية وتذلل وتحقيق لعبادة الله إذ سائر الناس يعبدون سواه من أصنام ... ونعبد معناه نقيم الشرع والأوامر مع تذلل واستكانة ، والطريق المذلل يقال له معبد وكذلك البعير " [٤] .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ج١ ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(٢) زاد المسير ج٧ ص ٢٥٩ .

(٣) تفسير البغوي ج١ ص ١٤ .

(٤) المحرر الوجيز ج١ ص ٧٥ - ٧٦ .

قال الواحدي : " و ﴿ نَعْبُدُ ﴾ من العبادة وهي الطاعة مع الخضوع ، ولا يستحقها إلا الله عز وجل وسمي العبد عبدا لذلته وانقياده لمولاه ، وطريق معبد إذا كان مذللا بالأقدام " [(١)] .

قال البيضاوي : " والعبادة : أقصى غاية الخضوع والتذلل ومنه طريق معبد أي مذلل ، وثوب ذو عبدة إذا كان في غاية الصفاقة ولذلك لا تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى " [(٢)] .

قال ابن كثير : " والعبادة في اللغة من الذل يقال طريق معبد وبعير معبد أي مذلل ، وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف " [(٣)] ، وقال في سورة النجم : " ثم قال تعالى آمرًا لعباده بالسجود له والعبادة له والعبادة المتابعة لرسوله ﷺ والتوحيد والإخلاص ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ أي فاخضعوا وأخلصوا ووحدوه " [(٤)] .

وقال النسفي : " والمعنى نخصك بالعبادة ، وهي أقصى غاية الخضوع والتذلل " [(٥)] .

وقال الثعالبي : " و ﴿ نَعْبُدُ ﴾ معناه نقيم الشرع والأوامر مع تذلل واستكانة ، والطريق المذلل يقال معبد وكذلك البعير " [(٦)] .

---

(١) الوسيط ج١ ص ٦٨ .

(٢) تفسير البيضاوي ج ١ ص ٦ .

(٣) تفسير ابن كثير ج١ ص ٢٧ .

(٤) المصدر السابق ج٤ ص٢٧٩ .

(٥) تفسير النسفي ج١ ص ٩ .

(٦) الجواهر الحسان ج١ ص٤١ .

وقال عبدالعزيز السلمي : " كلمة التوحيد تدل على التكليف بالواجب والحرام إذ معناه لا معبود بحق إلا الله ، والعبادة هي الطاعة مع غاية الذل والخضوع " [(١)] .

وقال ابن القيم : " العبادة تجمع أصلين : غاية الحب بغاية الذل والخضوع ... فمن أحببته ولم تكن خاضعا له لم تكن عابدا له ، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابدا له حتى تكون محبا خاضعا " [(٢)] .

قال الآلوسي : " والعبادة أعلى مراتب الخضوع ... ، وقيل : لا تستعمل إلا في الخضوع له سبحانه وما ورد من نحو قوله تعالى ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾ وأراد على زعمهم تعريضا لهم ونداء على غباوتهم ، وتستعمل بمعنى الطاعة ، ومنه ﴿ **أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ** ﴾ ، وبمعنى الدعاء ومنه ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي** ﴾ ، وبمعنى التوحيد منه ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ ، وكلها متقاربة المعنى " [(٣)] .

وقال الشيخ الطوسي في تفسيره (**التبيان**) :

" والعبادة ضرب من الشكر مع ضرب من الخضوع ، ولا تستحق إلا بأصول النعم التي هي خلق الحياة والقدرة والشهوة وما يقدر من النعم لا يوازيه نعمة منعم ، فلذلك اختص الله بأن يعبد وإن استحق بعضنا على بعض الشكر .

---

(١) الإمام ص ١٦٩ .

(٢) مدراج السالكين ج١ ص ٧٤ .

(٣) روح المعاني ج١ ص ١٤٤ .

والعبادة في اللغة الذلة يقال هذا طريق معبد إذا كان مذللا بكثرة الوطء وبعير معبد أي مذلل بالركوب ... وسمي العبد عبدا لذلته لمولاه " [١] .

وقال في موضع آخر : " والعبادة خضوع بالقلب في أعلى مراتب الخضوع ، فكل طاعة فعلت على هذا الوجه فهي عبادة " [٢] .

وكذلك قال الطبرسي في (**مجمع البيان**) وأضاف ذكر الفارق بينها وبين مطلق الطاعة :

" والعبادة ضرب من الشكر وغاية فيه لأنها الخضوع بأعلى مراتب الخضوع مع التعظيم بأعلى مراتب التعظيم ولا يستحق إلا بأصول النعم التي هي خلق الحياة والقدرة والشهوة ولا يقدر عليه غير الله تعالى ، فلذلك اختص سبحانه بأن يعبد ولا يستحق بعضنا على بعض العبادة كما يستحق بعضنا على بعض الشكر ، وتحسن الطاعة لغير الله تعالى ولا تحسن العبادة لغيره وقول من قال إن العبادة هي الطاعة للمعبود يفسده بأن الطاعة موافقة الأمر وقد يكون موافقا لأمره ولا يكون عابدا له ألا ترى أن الابن يوافق أمر الأب ولا يكون عبدا له وكذلك العبد يطيع مولاه ولا يكون عابدا بطاعته إياه والكفار يعبدون الأصنام ولا يكونون مطيعين لهم إذ لا يتصور من جهتهم الأمر " [٣] .

وقال الشيخ البلاغي :

" لا يزال العوام والخواص يستعملون لفظ العبادة على رسلهم ومجرى مرتكزاتهم على طرز واحد كما يفهمون ذلك المعنى بالتبادر ويعرفون بذوقهم مجازه ووجه التجوز فيه ، وإن المحور الذي يدور عليه استعمالهم وتبادرهم هو أن

---

(١) التبيان في تفسير القرآن ج١ ص ٣٧

(٢) المصدر السابق ج٥ ص ٣٥٥ .

(٣) مجمع البيان ج ١ ص ٢٦ .

العبادة ما يرونه مشعرا بالخضوع لمن يتخذه الخاضع إلها ليوفيه بذلك ما يراه لـه من حق الامتياز بالإلهية أو بعنوان أنه رمز أو مجسمة لمن يزعمونه إلها تعـالى الله عما يشركون "[1] .

قال السيد الطباطبائي :

" العبد هو المملوك من الإنسان أو من كل ذي شعور بتجريد المعنى كما يعطيه قوله تعالى ﴿ **إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْـدًا** ﴾ ، والعبادة مأخوذة منه وربما تفرقـت اشـتقاقاتها أو المعـاني المـستعملة هـي فيهـا لاختلاف الموارد ، وما ذكره الجوهري في الـصحاح أن أصـل العبوديـة الخـضوع فهو من باب الأخذ بلازم المعنى وإلا الخـضوع متعـد بـاللام والعبـادة متعديـة بنفسها .

وبالجملة فكأن العبـادة هـي نـصب العبـد نفـسه في مقـام المملوكيـة لربـه ، ولذلك كانت العبادة منافية للاستكبار ... "[2] .

وقال السيد السبزواري في تفسيره (**مواهب الرحمن**) :

" العبادة الطاعة ، وأصل المادة تنبئ عن الذل والخضوع والاسـتكانة والانقهـار في أي هيئـة اسـتعملت ، ومنهـا العبـد والمملـوك ، فالمـادة تـشمل العبوديـة التسخيرية والعبودية الاختيارية والعبادات الباطلة الاعتقادية ... .

والعبادة خضوع خاص ناشئ عن الاعتقاد بأن للمعبود عظمة ولا يحيط بهـا العقل في المعبود الحقيقي لعدم وصول إدراك إلى عظمته فضلا عن ذاتـه ... لـذا لا تصلق العبادة على الخضوع بالنسبة إلى غيره تعالى "[3] .

---

(١) آلاء الرحمن ص ٥٧ .

(٢) الميزان في تفسير القرآن ج١ ص ٢٤ .

(٣) مواهب الرحمن ج١ ص ٣٧ .

العبادة حقيقتها الخضوع خاص

كل الكلمات السابقة للّغويين والعلماء تركز على أن حقيقة العبادة نوع من الخضوع الخاص يترافق مع قصد قلبي عند العابد ، ولا نظر في كلماتهم للعمل الخارجي الذي يتعبد به الإنسان في تحديد حقيقة العبادة كما قلنا ، وذلك لأنهم في صدد بيان نفس التعبد أو الحالة النفسية والقصدية التي تحققها .

ويدور بيانهم للأمر على أنه خضوع مميز ليس من قبيل مطلق الطاعة بل ليس هو مطلق الخضوع ، لذا الشيخ البلاغي يصرح بأنه معنى متميز في نفسه يدركه الجميع فقال : " لا يزال العوام والخواص يستعملون لفظ العبادة على رسلهم ومجرى مرتكزاتهم على طرز واحد كما يفهمون ذلك المعنى بالتبادر " ، وحينما أرادوا توضيح الأمر أكثر قال البعض منهم كالرازي : " العبادة عبارة عن نهاية التعظيم وهي لا تليق إلا بمن صدر عنه غاية الإنعام " ، والبعض صرح بأنه أمر لا يستحقه إلا الله ، فقد قال الواحدي : " العبادة وهي الطاعة مع الخضوع ، ولا يستحقها إلا الله عز وجل وسمي العبد عبدا لذلته وانقياده لمولاه " ، وقال البيضاوي : " والعبادة : أقصى غاية الخضوع والتذلل ... ولذلك لا تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى " ، وكذلك نقل الآلوسي عن البعض قوله إنها لا تستخدم إلا في الخضوع لله قال : " والعبادة أعلى مراتب الخضوع ... ، وقيل : لا تستعمل إلا في الخضوع له سبحانه وما ورد من نحو قوله تعالى ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾ أراد على زعمهم تعريضا لهم ونداء على غباوتهم " .

وما نريد التنبيه عليه أن كل هؤلاء العلماء ذكروا أن حقيقته الخضوع الخاص ، ثم صرحوا بأن هذا الخضوع الخاص لا يكون إلا لمن منه أصول

النعم ، وبعضهم قال لا يكون إلا لله ، فهم بعد أن بينوا حقيقتها قالوا إنها حقيقة لا تكون إلا لله أو ما يفيد ذلك ولم يقصدوا بالكلام الأخير جعله جزءا من التعريف ، بل هي مجرد حالة قصدية عند الإنسان ، ولكن يجب أن تكون لله فقط ولا تصح لغيره ، ولم يقولوا ذلك إلا لأنهم يفترضون إمكان إقامتها لغير الله و قصد غيره من الموجودات التي لا تستحقها ، ومن قصد غير الله بهذا الخضوع فقد أشرك بالله في العبادة .

وما نريد التأكيد عليه أن تقييد البعض بأنها لا تكون إلا لله لا يمكن أن يكون جزءا من التعريف وإلا فقدنا تلك الحقيقة أي حقيقة العبادة إذا أقيمت لغير الله كما هو فعل المشركين الذين يشركون في العبادة ، وبعبارة أخرى هم حينما يوضحون الأمر بقولهم إنها لا تكون إلا لمن منه أصول النعم أو لله يريدون أن يشيروا إلى أن مشركي البشر جعلوا هذا الأمر الذي لا يكون إلا لله لغيره من الشركاء الذين ابتدعوهم ، وبذلك يتبين خطأ ما نقله الآلوسي من قول البعض إنها لا تستعمل إلا في الخضوع له سبحانه وإن إطلاقه على عبادة المشركين لآلهتهم نوع من الاستهزاء بهم .

هذا بغض النظر أنهم جعلوا ذلك القصد وتلك النية لغير الله لأنها مجرد شفعاء ولا دخل ذاتي لها في تدبير شئون الكون كما ترى الوهابية أو بيدها النفع والضر في بعض حيثيات الكون كما هو الحق .

الحصيلة

من الواضح أن كلمات علماء الإسلام في تفسير المراد بالمفردة لا تخرج عن المعنى اللغوي كثيرا ، بل تميزه بحالة خاصة من الخضوع والتذلل هي قمة الخضوع والتذلل التي لا تكون إلا للمعبود ذي العظمة الخاصة ومن تنبع منه

النعم ، وكلها تعريف للعبادة بمعنى التعبد ، ولذا هي تعبر عن حالة قصدية ونفسية تجاه موجود مميز وعظيم ، وكما أن الخوف والمهابة عنصر أساس في هذا الخضوع كذلك الحب والرجاء لأنه خضوع وتذلل لمحبوب مهاب لأن بيده النفع والضر وبيد كل شئ وملكوت كل شيء ، وليس هو مثل خضوع العبد لمالكه الذي يمكن أن يقوم على مجرد الخوف لأن بعض أموره المادية بيد المولى .

وكما تلاحظ كل هؤلاء يفسرون العبادة بمعنى التعبد لله الملحوظ فيه الاعتقاد والقصد والنية ولنقل الحالة النفسية الخاصة تجاه المعبود ، ولا نظر في هذه المرحلة إلى العمل المتعبد به - الذي سنجده في الكلمات التالية - وإن كان لا ينفك عنه عمليا .

الكلمة في استعمالات الفقهاء

لكن فيما يلي من الكلمات التي نعرضها ستجد أن هناك استعمالا آخر للكلمة غير ما بينه من سبق ذكرهم في كلماتهم .

فالرازي كما قال في تفسيره : " العبادة عبارة عن نهاية التعظيم وهي لا تليق إلا بمن صدر عنه غاية الإنعام "[١] قال كذلك : " أما العبادة فهي فعل أو قول أو ترك فعل أوترك قول ويؤتى به لمجرد اعتقاد أن الأمر به عظيم يجب قبوله ، وأما الإخلاص فهو أن يكون الداعي له إلى الإتيان بذلك الفعل أو الترك مجرد هذا الانقياد والامتثال "[٢] .

وتجد هذين الاستعمالين فيما نقله الزركشي من تعاريف العلماء ، قال :

" العبادة يتعلق بها مباحث ، الأول : في حقيقتها :

---

(١) تفسير الفخر الرازي ، المجلد الأول ، ج١ ص ٢٤٦ .

(٢) المصدر السابق ، المجلد الثالث عشر ، ج ٢٦ ص ٢٤٠ .

قال الإمام فى الأساليب : هي التذلل والخضوع وبالتقرب إلى المعبود بفعل أوامره .

وقال المتولي : فعل يكلفه الله عباده مخالفا لما يميل إليه الطبع على سبيل الاستيلاء .

وقال المروزى : ما ورد التعبد به قربة لله تعالى .

وقال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي فى كتاب الحدود : العبادة والتعبد والنسك بمعنى واحد وهو الخضوع ، والعبادة ما تعبدنا به على وجه القربة والطاعة .

وقيل : العبادة ما كان العابد لأجلها عابدا .

وقيل : ما اشتق اسم العابد منها .

وقيل : ما كان طاعة لله عز وجل ، وقيل : ما كان قربة إليه ، قال : وهذان ليسا بصحيحين فقد يكون الشيء طاعة وليس بعبادة ولا قربة وهو النظر والاستدلال المؤديان إلى معرفة الله تعالى في ابتداء الأمر ، انتهى .

وقال القاضي عبد الوهاب : هي الطاعة بالتزام الخضوع والاستسلام ، والتعبد استدعاء ذلك من العبد ، وقد تطلق على مجرد الطاعة كقوله تعالى ﴿ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ﴾ " [1] .

فكما ترى بين عبارتي الرازي تفاوت في العبادة المعرّفة ، وقد بين معنى العبادة أبو إسحاق الشيرازي فيما نقله الزركشي ، ونقل تعاريف أخرى بعضها تعريف للعبادة بمعنى التعبد وهو ما يبحث عنه في العقائد وبعضها الآخر للعبادة بمعنى الفعل المتعبد به ، ومن أمثلتها الصلاة التي هي أجلى مصاديقها .

---

(١) المنثور ج ٢ ص ٣٦٧ .

المعنى الأول للعبادة

تحدث الكل عن قصد خضوعي محدد ، وكلهم يريد أن يقول إن هذا الخضوع الخاص لا يكون إلا لله وبذلك تتحقق عبادة الله وتوحيده ، وأما إذا جعلته لغير الله فقد تحققت عبادة الغير والشرك بالله .

فتلك الحالة القلبية والقصدية التي لا شك أنها تتجسد وتظهر في ممارسات وأعمال معينة هي حقيقة العبادة عندهم ، والعمل الذي يظهر التعبد ويحققه خارجا يسمى عبادة أيضا ، ولكن لا يشكل حقيقة العبادة بالمعنى الأول ولا جزءا من تعريفه ، فالنية الخاصة والقصد الخاص هو الذي فرق بين سجود الملائكة لله وسجودهم لآدم عليه السلام أو سجود يعقوب عليه السلام لله وسجوده ليوسف عليه السلام ، فكان عبادة في الأول دون الثاني ، ونهاية في البحث العقدي النظر هو للقصد والمحرك للتعبد .

وهذا القصد لا ينطبق على الرياء في العبادات ، فالمرائي مع أنه يقصد الناس لا يعد مشركا باتفاق المسلمين جميعا ، وذلك لأن قصده ليس من قبيل القصد العبادي الخاص ، فهو لا يقصد عبادة الناس حينما يقصدهم في أداء العبادة بل يقصد إراءة نفسه عابدا كذبا وخداعا بقصد تحصيل مصالح دنيوية معينة منهم .

والشاهد الذي نريده هنا هو أن المرائي مع أنه قصد الناس لا يعد قصده هذا شركا بالله ومن نوع الشرك الأكبر وذلك لأن قصدا خاصا هو الموقع في الشرك لا مطلق قصد غير الله ، نعم هو يدخل في الشرك الأصغر غير المخرج من الملة ، وعليه ليس كل قصد لغير يوقع في الشرك الأكبر ما لم يكن القصد قصد العبادة الخاصة والمميزة في نفسها عن غيرها من الغايات والقصود الأخرى .

المعنى الآخر للعبادة

فالعمل يسمى عبادة أيضا ولكنه معنى آخر للعبادة ، فالأفعال المخصوصة التي يتعبد بها يطلق عليها كلمة عبادة فنقول الصلاة عبادة .

فعندما يكون الحديث عن العقيدة وعن المفردة في القرآن فإن المقصود الحديث عن العبادة بالمعنى الأول أي بمعنى التعبد وهو القصد الذي ينطلق منه المكلف للقيام بالعمل المتعبد به لا العبادة بمعنى العمل المتعبد به ، الذي يمكن أن يلاحظ على أنه عبادة ويمكن أن يلاحظ على أنه أمر آخر ، فالإمتناع عن الطعام يمكن أن يعد صوما ويمكن أن يعد مجرد حمية ، كما أن العمل يمكن أن يلاحظ على أنه عبادة لله ويمكن أن يلاحظ على أنه عبادة لغير الله ، كما في السجود لآدم عليه السلام يمكن أن يكون عبادة لله ويمكن أن يقصد به عبادة لآدم عليه السلام .

وكما رأينا في كلمة الشيخ الطبرسي أن مجرد النظر إلى العمل يوجب إشكالا في التمييز بين مطلق الطاعة والعبادة ، وهكذا تجد ذلك في الإشكال على القولين المنقولين في كلمة الزركشي الأخيرة ، ولذا جعل القصد هو المقوم ، فقالوا ليست العبادة مطلق الطاعة بل العبادة هي طاعة مخصوصة تتقوم بأنها أعلى درجات الخضوع المقرون بالتفات العابد إلى أنها لمن نبعت منه أصول النعم .

ونهاية النظر في البحث الفقهي للفعل والعمل المتعبد به .

لذا تتقوم العبادة بمعنى العمل المتعبد به بالنية الخاصة

وكما أن التعبد لا يمكن أن يتحقق إلا في فعل من الأفعال ، كذلك العمل لا يمكن أن يعد عبادة إلا إذا تضمن قصدا خاصا ، لذا السابقون من علماء الإسلام عندما يعرفون العبادة بمعنى المتعبد به يصرحون بأنها متقومة بالنية ، قال ابن رشد : " اختلف علماء الأمصار هل النية شرط في صحة الوضوء أم لا

بعد اتفاقهم على اشتراط النية في العبادات لقوله تعالى ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ولقوله ﷺ : إنما الأعمال بالنيات ، الحديث مشهور " [1] .

وقال الشاطبي : " إن الأعمال بالنيات ، والمقاصد معتبرة في التصرفات من العبادات والعادات ، الأدلة على هذا المعنى لا تنحصر ، ويكفيك منها أن المقاصد تفرق بين ما هو عادة وما هو عبادة ، وفي العبادات بين ما هو واجب وغير واجب ، وفي العادات بين الواجب والمندوب ، والمباح والمكروه والمحرم والصحيح والفاسد ، وغير ذلك من الأحكام ، والعمل الواحد يقصد به أمر فيكون عبادة ، ويقصد به شيء آخر فلا يكون كذلك ، بل يقصد به شيء فيكون إيمانا ويقصد به شيء آخر فيكون كفرا كالسجود لله أو للصنم " [2] .

وقال السيوطي : " المبحث الثالث فيما شرعت النية لأجله ، المقصود الأهم منها تمييز العبادات من العادات وتمييز رتب العبادات بعضها من بعض كالوضوء والغسل يتردد بين التنظف والتبرد والعبادة ، والإمساك عن المفطرات قد يكون للحمية والتداوي أو لعدم الحاجة إليه ، والجلوس في المسجد قد يكون للاستراحة ، ودفع المال للغير قد يكون هبة أو وصلة لغرض دنيوي وقد يكون قربة كالزكاة والصدقة ، والكفارة والذبح قد يكون بقصد الأكل وقد يكون للتقرب بإراقة الدماء ، فشرعت النية من غيرها " [3] .

وقال ابن قدامة : " وقولهم : إنها طهارة قلنا : إلا أنها عبادة والعبادة لا تكون إلا منوية لأنها قربة إلى الله تعالى وطاعة له وامتثال لأمره ولا يحصل ذلك بغير

---

(١) بداية المجتهد ج١ ص ٨ .

(٢) الموافقات ج٢ ص٢٤٦ .

(٣) الأشباه والنظائر ج ١ ص ١٢.

نية " [١] ، وقال علاء الدين الكاساني : " والعبادة اسم لفعل يأتيه العبد باختياره خالصا لله تعالى بأمره ، والاختيار والإخلاص لا يتحققان بدون النية " [٢] ، وقال البكري الدمياطي : " والعبادة : فعل ما يتوقف على النية بأصل الشرع " [٣] .

وقال العلامة الحلي : " قال علماؤنا النية شرط في الطهارة المائية بنوعيها والترابية ...لنا : وجوه ... الثاني : أن الوضوء عبادة وكل عبادة بنية ... وأما الكبرى فيدل عليها قوله تعالى ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾ والإخلاص هو مراد بالنية ... الثامن : إنها عبادة فافتقرت إلى النية كالصلاة وبيان الصغرى ... أن العبادة هي الفعل المأمور به شرعا من غير اطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي ، والطهارة كذلك فإنها مرادة شرعا ليست مما يطرد بها العرف ولا يقتضيها العقل لانتفاء المصلحة المتأخرة فيها " [٤] .

ويقول الشهيد الثاني في شرح اللمعة : " أما القربة فلا شبهة في اعتبارها في كل عبادة ، وكذا تمييز العبادة عن غيرها حيث يكون الفعل مشتركا " [٥] .

وقال العلامة يحيى بن سعيد الحلي : " العبادات : كل فعل مشروع لا يجزي إلا بنية التعظيم والتذلل لله سبحانه وتعالى " [٦] .

قال العلامة النراقي وهو يتحدث عن نية القربة في الوضوء : " ويجب اشتمالها على القربة بأن يكون فعله لله سبحانه ... ومن ذلك يظهر وجه آخر

(١) المغني ج١ ص٩٢ .
(٢) بدايع الصنائع ج١ ص ٨٣ .
(٣) إعانة الطالبين ج٢ ص ٣٥٧ .
(٤) منتهى المطلب ج٢ ص ٨ - ١٠ .
(٥) الروضة البهية ج١ ص ٧٢ .
(٦) نزهة الناظر في الجمع بين الأشباه والنظائر ص ٥ .

لاشتراط القربة وهو أن العبادة لغة اسم لما تتحق به العبادة المصدرية وهي الإتيان بلوازم العبودية والأصل عدم النقل ولا يكون ذلك بشهادة العرف واللغة إلا فيما كان مطلوبا للمعبود وجوبا أو ندبا مأتيا به لأجل إطاعته وأنه مطلوبه وهذا معنى القربة ، ومن هذا يعلم أن كل مطلوب للشارع يعتبر فيه نية القربة فهو عبادة وبالعكس " [١] .

وقال الشيخ الجواهري وهو يتحدث عن النية المعتبرة في الوضوء : " وكيف كان لا نعرف لها معنى جديدا شرعيا ، نعم ربما وقع في لسان بعض المتشرعة إطلاقها على الإرادة مع القربة ، بل هو مدار قولهم النية شرط في العبادات دون المعاملات ... وظهر لك مما تقدم من معنى النية أنها من الأفعال القلبية التي ليس للنطق فيها مدخلية كما صرح بذلك جماعة من الأصحاب " [٢] .

وقال الشيخ يوسف البحراني : " لا ريب في وجوب النية في الوضوء بل في جملة العبادات ، والوجه فيه أنه لما كان الفعل من حيث هو ممكن الوقوع على أنحاء شتى - ولا يعقل انصرافه إلى شيء منها إلا بالقصد إلى ذلك الشيء بخصوصه ولا يترتب عليه أثره إلا بذلك - مثلا الدخول تحت الماء من حيث هو صالح لأن يقصد به التبرد أو التسخن تارة وإزالة الوسخ أخرى والغسل مثلا وإخراج شيء من الماء ونحو ذلك فلا ينصرف إلى واحد من هذه الأشياء أو أزيد إلا بنيته وقصده ...

---

(١) مستند الشيعة ج٢ ص ٤٦- ٤٧ .

(٢) جواهر الكلام ج٢ ص ٧٩ .

وبما ذكرنا ثبت ما ادعيناه من ضرورية النية في جميع الأعمال وعدم احتياجها إلى تكلف واحتمال ، ووجوبها في جميع العبادات المترتب صحتها عليها ، فإن الأعمال كالأشباح والقصود لها كالأرواح " [١] .

الفرق بين التعبد والمتعبد به

نؤكد هنا أن الحديث عن استعمالين مختلفين لا يعني وجود التباين بينهما ، بل فيما نحن فيه الحديث عن عمل واحد ولكن عندما تلاحظ حالة الإنسان وتحديد المقصود من العمل الذي يقوم به يقال : هو مشغول بعبادة ربه أو هو يتعبد أو ما يقوم به عبادة ، وعندما يلاحظ الفعل وتلاحظ الحركات التي يقوم بها ونريد أن نضع لها اسما هو من قبيل تحديد جنسها تسمى عبادة أيضا .

فكأنما في الأول اللحاظ أصالة للقصد ولحاظ الفعل تبعي وفي الثانية العكس فالملاحظ أصالة للفعل وأما القصد فملاحظته تبعية ، ولكن نهاية القصد لا يتحقق إلا في فعل من الأفعال والفعل لا تتحق عباديته إلا بالقصد .

تعريف العبادة في التراث الحراني الوهابي

عرف ابن تيمية العبادة بقوله أنها : " اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة " [٢] .

(١) الحدائق الناضرة ج٢ ص ١٧٠ -١٧٢ .

(٢) مجموعة الفتاوى ج١٠ ص ٩١ .

وقال حفيد ابن عبدالوهاب : " قال شيخ الإسلام : العبادة هي طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة الرسل ، وقال أيضا : العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، قال ابن القيم : ومدارها على خمس عشرة قاعدة من كمّلها كمّل مراتب العبودية وبيان ذلك أن العبادة منقسمة على القلب واللسان والجوارح والأحكام التي للعبودية خمسة واجب ومستحب وحرام ومكروه ومباح ، وهن لكل واحد من القلب واللسان والجوارح ... " [1] .

الذي تراه أن هذه التعريفات تنصب على تعريف الأعمال المتعبد بها ، فالقول : بأنها الاسم الجامع لكل ما يحبه الله ... الخ وكذلك تعريفها بأنها الطاعة تعريف للعبادة بمعنى الأفعال المتقرب بها إلى الله ، ولكنه تعريف لا ذكر فيه للفصل المميز لمطلق الطاعات عن خصوص العبادات ، فالحقيقة التي تجعل العمل المتعبد به عبادة هي النية وقصد الخضوع الخاص ، وهذا ما لم يبين في التعريف .

فكأنما جعل مطلق الطاعة عبادة مع أن العلماء الذين مرت كلماتهم أكدوا على ضرورة التمييز بين مطلق الطاعات وخصوص العبادات المتقومة بالقصد الخاص ، فلو أنقذت مسلما من الموت أو أنفقت على زوجتك وعيالك فما تقوم به قد يعد طاعة لله ، ولكنها ليست عبادة بالمعنى الخاص ، فهي عمل يمكن التقرب به إلى الله لو نوى فعله قربة لله ، ولكنه ليس عبادة من العبادات التي يشترط في صحتها النية والقصد كما أن الصلاة عبادة .

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص ٣٥ - ٣٦ .

ولكن هذا لا يعني أنهم لم يميزوا بين الاستعمالين في كلماتهم ، بل تجد التمييز واضحا في بعض ما كتبوه حول التعريف .

إقرار الوهابيين بوجود استعمالين للكلمة

فقد صرح الوهابيون بوجود استعمالين للكلمة ، فأقر بذلك ابن عثيمين - وهو من كبار علمائهم - قائلا : " والعبادة تطلق على شيئين :

الأول : التعبد بمعنى التذلل لله - عز وجل - بفعل أوامره واجتناب نواهيه محبة وتعظيما .

الثاني : المتعبد به ، فمعناها كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة .

مثل ذلك الصلاة ففعلها عبادة وهو التعبد ، ونفس الصلاة عبادة وهو المتعبد به ، فإفراد الله بهذا التوحيد أن تكون عبدا لله وحده تفرده بالتذلل محبة وتعظيما وتعبده بما شرع " (١) .

وهكذا تجد هذا التفريق في ما كتبه الدكتور محمد الخميس قال :

" أما معنى العبادة في الاصطلاح : فهي توحيد الله بالذل والخضوع مع كمال المحبة والطاعة ... وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابدا له ، ولو أحب شيئا ولم يخضع له لم يكن عابدا له كما يحب الرجل ولده وصديقه .

ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء وأن يكون الله أعظم عندهم من كل شيء بل لا يستحق

(١) القول المفيد ج١ ص ١٤ - ١٥ .

المحبة والذل التام إلا الله ، وكل ما أحب لغير الله فمحبته فاسدة وما عظم بغير أمر الله فتعظيمه باطل ... .

ويطلق اسم العبادة على الأعمال الشرعية التي تفعل تقربا إلى الله ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية : العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة "[١] .

وجذور هذا التفريق تجده في كلمات ابن تيمية نفسه ، قال : " ودين الإسلام مبني على أصلين وهما : تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فلا تحب مخلوقا كما تحب الله ولا ترجوه كما ترجو الله ولا تخشاه كما تخشى الله ، ومن سوى بين المخلوق والخالق في شيء من ذلك فقد عدل بالله ... ، وقد جعل مع الله إلها آخر وإن كان مع ذلك يعتقد أن الله وحده خلق السماوات الأرض ، فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السماوات والأرض كما قال تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ...

الأصل الثاني : أن نعبده بما شرع على ألسن رسله ... ، والدعاء من جملة العبادات فمن دعا المخلوقين من الموتى والغائبين واستغاث بهم – مع أن هذا أمر لم يأمر به الله ولا رسوله أمر إيجاب ولا استحباب – كان مبتدعا في الدين مشركا برب العالمين "[٢].

لكن ترى غالب كلماتهم تدور حول فلك ما قاله ابن تيمية في تعريف العبادة من أنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، وهو تعريف للشيء بمصاديقه أو تعريف للمتعبد به وليس

---

(١) سبيل الهدى والرشاد في بيان حقيقة توحيد رب العباد ص ٣٣٢ .

(٢) مجموعة الفتاوى ج١ ص ٢١٨ .

بيانا لحقيقة الشيء ، وقد أكد الفوزان على تعريف ابن تيمية بقوله : " العبادة هي فعل ما شرعه الله سبحانه وتعالى ، الصلاة عبادة والصوم عبادة والحج عبادة وصلة الأرحام عبادة ... والإحسان إلى اليتيم عبادة إلى آخره ، كل ما شرعه الله فهو عبادة " [1] .

ولكن من الواضح أن الكلمة في مثل قولنا : اعبدوا الله وعبادة الله ، ولا تعبدوا الأصنام وعبادة الأصنام – وهو المعنى الملاحظ في البحث العقائدي وفي آيتي الزلفى و الشفعاء – لا يقصد بها هذا المعنى فليس المقصود الإشارة إلى الأفعال بل إلى العقيدة ومتبنيات المرء وقصده في الفعل الذي خضع فيه خضوعا خاصا ومميزا ، وحصيلة المقصود أن الخضوع والخوف والرهبة والرغبة لله ، ولاتجوز أن تكون للأصنام والأوثان ، نعم هي حالة تظهر بالأعمال المتعبد بها .

ونهاية من قصد الله وخضع له بالعمل المتعبد به فقد عبد الله واتخذه إلها فهذه عبادة الله ، ومن قصد به الصنم فقد عبده واتخذه إلها ، وقد اتضح ذلك عند استعراض تعريفات اللغويين والمفسرين والمتكلمين في بيان المقصود بالعبادة .

وأما عندما يقال الصلاة عبادة فلا يقصد بها ما قصد في كلمات علماء الإسلام السابقة التي كانت في صدد تعريف التعبد ، بل المقصود أن الصلاة مما يتعبد به الله أي عمل إذا أقامة المكلف بقصد الخضوع الخاص لله فقد قام بعبادة الله ، فالصلاة مصداق من مصاديق عبادة الله كما أن الصوم مصداق آخر ، ولكن ليس هو حقيقة العبادة ، وكما أن حقيقة الطاعة ليست هي العمل المطاع به ، فحينما نريد أن نتحدث عن طاعة العبد المملوك لمولاه ونسأل ما هي

(١) اعانة المستفيد ج١ ص ٣٩ .

حقيقة طاعته ؟ يقال في الجواب خضوعه الخاص النابع من مملوكيته له ، ولا يقال إن الطاعة هنا اسم جامع لمجموع الأعمال التي يطيع بها العبد مولاه كتقديم الماء الذي يطلبه المولى أو شراء المتاع الذي يطلبه ، نعم هي طاعة بمعنى أنها أعمال تتحقق بها الطاعة .

وكمثال آخر لا يقال في تعريف حقيقة الإنسان هو اسم جامع لكل أفراد الإنسان ، بل هو الحيوان المتميز عن غيره من الحيوانات بالعقل والإدراك الخاص ، كذلك لا يصح أن يقال في تعريف العبادة وبيان حقيقتها هي اسم جامع لأفراد العبادات ، نعم الصلاة عبادة أي مصداق للعبادة كما أن زيد إنسان أي مصداق للإنسان .

افتقاد تعاريفهم للدقة

لنميز بين الأمور ببعض الأمثلة :

فمن الواضح أننّا حينما نقول فلان وحد الله في العبادة ولم يشرك بالله في ذلك فهو يعني أولا أنه يتبنى عقائديا أن الخضوع الخاص لا يكون إلا لله ولا يجوز أن يقع لغيره ، وثانيا حينما يقيم العبادات يقصد التقرب بها إلى الله ولا يتقرب بها إلى غيره .

وأما إذا قلنا الصلاة عبادة والزواج ليس عبادة فنحن نتحدث عن الأعمال التي يشترط في صحتها نية الإخلاص فهي وأما الأعمال التي لا يشترط فيها ذلك فليست عبادة ، ومجرد إمكان فعلها تقربا إلى الله لا يدخلها في العبادة الاصطلاحية .

وحينما نقول إن الصلاة عبادة مشروعة يعني عملاً شرعه الله للتعبد في مقابل قولنا إن صوم الصمت عبادة غير مشروعة في الرسالة الخاتمة يعني عمل لم يشرع ولم يجز الشرع التعبد به .

وأما عند اصحاب هذه الرؤية ، فلافتقادهم الدقة ولعدم التمييز بين العبادة بمعنييها في بعض كلماتهم وعدم التأكيد على قوام العمل المتعبد به وهو قصد القربى فيه تحققت نقاط خلل متعددة بل حدثت اضرار كبيرة يمكن تلخيصهما في أمرين أساسيين :

الأول : الخلط بين مقام التوحيد والشرك ومقام السنة والبدعة .

الثاني : الخلط بين مطلق الطاعات التي لا تشترط القربة إلا في ثوابها والعبادات التي لا تصح إلا بقصد القربة إلى الله .

الخلل الأول في الخلط بين بحثي الشرك والبدعة

والغريب في عبارة ابن تيمية التي نقلناها أنه ميز بين المعنيين ، ولكن عندما انتقل للحديث عن العبادة بمعنى العمل المشروع مقابل العمل المبتدع أعقبه بقوله : " مشركا برب العالمين " ، في حين أن مخالفة الأصل الأول هو الذي يوجب الوقوع في الشرك وأما مخالفة الأصل الثاني يوجب الوقوع في البدعة ، فلا أعرف هل جهلا أم عمدا خلط بين الأمرين مع وضوح الفرق بين ما يوجبه كل منهما ؟!

والذي تلاحظه من استقراء التعريفات التي ذكرها علماء الإسلام جميعا قبل ابن تيمية وبعده – عدا مقلديه – أنهم حينما يتحدثون على المستوى العقدي لا يدخلون العمل الذي يخضع ويتعبد به الإنسان لله في جوهر تعريف العبادة بمعنى التعبد إذ هنا لا يلحظ إلا متبنى الإنسان وقصده ونيتة ، نعم إذا أصبح

البحث فقهيا تحدثوا عن الأفعال وأعمال العبادية ، ولكنهم يؤكدون في الوقت نفسه على أن مقوم الأفعال العبادية هو القصد الخاص .

والخلط أو اللبس بدأ مع ابن تيمية وتبعه الذين تبنوا الرؤية الوهابية للتوحيد والشرك ، فالعلماء قديما وحديثا عندما يعرفون العبادة بمعنى التعبد لا يخلطون به المتعبد به ، نعم الوهابيون هم الذين يؤكدون على دخوله في تعريف العبادة بمعنى التعبد ، فحتى ابن عثيمين مع أنه ميز بين الأمرين وبنحو جيد ، رجع وتبعهم في الخلل فأضاف قيد : " وتعبده بما شرع " على تعريف توحيد العبادة بما يكشف خضوعه ثقافيا للرؤية السابقة الخاطئة ، وكما معلوم تعبده بما شرع هو حديث عن السنة في قبال البدعة أي عبادة الله بما لم يشرع .

والخلاصة أن تعريف ابن تيمية المشهور هو تعريف للعبادة بمعنى المتعبد به كما هو صريح إقرار ابن عثيمين والخميس ، ولكنهم كأنهم تعاملوا معه معاملة تعريف العبادة بمعنى التعبد ، فنتج من ذلك خلط بين بحث التوحيد والشرك وبحث السنة والبدعة .

فالحديث عن العبادة بمعنى التعبد هو الذي يجري في البحث العقائدي كبحث التوحيد والشرك فالتعبد يجب أن يكون لله وهو التوحيد ولا يكون لغيره وإلا تحقق الشرك .

وأما إذا انتقل الحديث إلى العمل المتعبد به ، وافترضنا أن الفاعل توجه بفعله إلى الله وقصده ، ولكنها كانت عبادة غير مأخوذة من الله ولم تشرع من قبله ، نكون قد دخلنا في بحث آخر هو بحث السنة والبدعة .

الخلل والخلط الثاني عدم تمييز مطلق الطاعات عن العبادات

ويتلخص في أنهم يتحدثون عن العبادة بمعنى الأعمال المتعبد بها دون التأكيد على تقيده من حيث صحة وقوعها عبادة بالنية والقصد الخاص ، لذا حدث خلط آخر انعكس على عدم التمييز بين العبادات ومطلق الطاعات ، قال صالح الفوزان :

" والعبادة لا بد من معرفة معناها ، هي الذلة والخضوع هذا أصلها في اللغة ، يقال طريق معبد يعني طريق ذللته الأقدام بوطئها .

وأما العبادة في الشرع فهي كما عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية (ر) : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة ، العبادة هي فعل ما شرعه الله سبحانه وتعالى ، الصلاة عبادة والصوم عبادة والحج عبادة ، وصلة الأرحام عبادة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عبادة ، والإحسان إلى اليتيم عبادة إلى آخره ، كل ما شرعه الله فهو عبادة ، ليست العبادة أن الإنسان يتقرب إلى الله بشيء من عند نفسه فهذه بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، إذا العبادة ما شرعه الله من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة ، لأن العبادة منها ما هو على الجوارح والأعضاء الظاهرة مثل الصلاة والجهاد في سبيل الله ، هذا ظاهر على الجوارح تتحرك تعمل ، ومنها ما هو على اللسان مثل الذكر (سبحان الله والحمد لله) هذه عبادة باللسان ، ومنها ما هو بالقلب مثل الخوف والخشية والرغبة والرهبة والرجاء هذه أعمال قلوب ، فالعبادة تكون على القلوب وتكون على الألسنة وتكون على الجوارح " [١] .

---

(١) إعانة المستفيد ج١ ص ٣٩ — ٤٠ .

فترى ما حدث عند حذف القيد المقوم في تعريف العبادة التي يقصد بها العمل المتعبد به ، وهو توقف العمل العبادي على النية ، فالفقهاء جميعا قالوا في تعريف العبادة : " هي فعل ما يتوقف على النية بأصل الشرع " ، وإلا إذا لم يوضع هذا القيد فلن يمنع التعريف الأغيار كالطاعات والقربات غير العبادية ، وانعكس ذلك على كلماتهم فتراهم كأنهم اعتبروا كل طاعة وقربة عبادة ، نعم لا نرفض أن تسمى كل طاعة وقربة عبادة ، لكن تنزيلا لا حقيقة لحصول الثواب إن قصد بها الله .

وأصل هذا الخلل نبع من كلمات ابن تيمية في تعريف العبادة كقوله : " هي طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة الرسل " أو قوله الآخر بأنه : " اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة "، فالله يحب مطلق الطاعات والقربات ، لكن لا يصدق عليها كلها بأنها عبادة بمعنى العمل المتعبد به ، وأما على تعريف ابن تيمية فكلها تدخل في العبادات ، ولذا تجد الاختلال في كلمات الفوزان حينما يفسر ذلك قائلا : " وصلة الأرحام عبادة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عبادة ، والإحسان إلى اليتيم عبادة إلى آخره ، كل ما شرعه الله فهو عبادة " ، فهل هذه هي العبادة بمعنى المتعبد به في اصطلاح العلماء منذ صدر الإسلام إلى زماننا أم هذا تعريف لمطلق الطاعات والقربات فليست العبادات إلا نوعاً وجزءاً منها ؟! وأما ما يقصده علماء الإسلام من كلمة العبادة بمعنى العمل المتعبد به فهو خصوص ما يشرحونه في باب العبادات دون المعاملات .

وهكذا تجد الخلط واضحا في كلمات بعضهم حينما يقول : " وأحسن هذه التعريفات وأجلاها وأعلاها وأولاها هو تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية ...

وجميع أنواع العبادات داخلة في دائرة تلك التعريفات من أعمال تعبدية عملية أو اعتقاديه .

فتبين من تعريف العبادة أن الدين كله داخل في مفهوم العبادة بدون استثناء فالأعمال الاعتقادية واللفظية والبدنية والمالية كلها من أنواع العبادة ، وأجل ذلك دعاء المسألة فهو مع كونه داخلا في العبادة وواحدا من أفرادها فهو من أجل تلك الأنواع ، ودعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة فهما متلازمان " [1] .

أي معنى لهذا القول : أن الدين كله داخل في مفهوم العبادة بدون استثناء ؟! هل البيع والشراء - وهو من الدين - عبادة ؟! هل الطلاق - وهو من الدين - عبادة ؟!

إن مراجعة بسيطة لتعريف السابقين تنبئك عن مدى القصور في تمييز الأمور علميا في كلماتهم وافتقادها للدقة وسلامة التمييز بين الأمور المتداخلة .

بم تحقق شرك العبادة التي أُتهم بها المسلمون ؟

على ضوء ما سبق ، ليس هناك إلا معنى واحد للعبادة ولكن قد يسلط الضوء على القصد والمنطلقات العقائدية للعبادة فيقال هو بمعنى التعبد هنا ، وقد يسلط الضوء على الفعل الذي قصد به العبادة فيقال هو بمعنى المتعبد به .

ولذا إذا أردنا أن نقول بتحقق شرك في البين ، فإما ننظر إلى التعبد والقصد فمن قصد غير الله وتعبد لذلك الغير مشرك وإن قصد الله في طول ذلك أو عرضه ، ومن لم يقصد إلا الله في عمله فقد وحد الله ولم يتعبد إلا لله .

---

(١) الواسطة بين الله وخلقه ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

وإذا أردنا ان ننظر إلى العمل المتعبد به – بهدف الحديث عن الشرك – لا يمكن النظر إليه مجردا عن القصد والنية التي تميزه عن غيره من الأفعال العادية ، نعم يمكن النظر إليه مجردا عن القصد ولكن سيكون لحاظنا لتشريعه – كي كونه عبادة وعدم ذلك – وهو لحاظ يحدد السنة من البدعة لا التوحيد من الشرك .

والمهم في الفصل القادم أن نحدد أين تحقق الشرك في العبادة عند المسلم في نظر هؤلاء وهو ما سندرسه في الباب التالي .

الباب الثاني

ما هي العبادة التي أشرك بها المسلمون ؟

تذكيرا بما سبق نقول : إن الوهابية تؤكد على الفصل بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ومن ثم تميز بين نوعين من الشرك شرك الألوهية وشرك الربوبية كمقدمة لعرض رؤيتها التي تقوم على أن الشرك الواقع بين البشر ليس في الاعتقاد بوجود شريك للباري في خلقه وتدبيره بل جل الشرك الواقع هو الشرك في الألوهية الذي يعني التعبد والتنسك لغير الله عز وجل إضافة إلى عبادة الله ، وهي نقطة مهمة وأساسية في نظرهم لأنهم بها - وفق زعمهم - ينقحون مفصل الخلل الذي جر البشر للانحراف عن التوحيد والذي واجهه رسول الله ﷺ في حربه على الشرك المنتشر بين قاطني جزيرة العرب .

الآيات تؤكد على توحيد الله في عبادته ونبذ الشرك

إن توحيد الله في عبادته أهم حقائق القرآن ومحكماته فيتكرر في القرآن قول الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم ﴿ **ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ هود/ ٥٠ ، وهكذا بالنسبة لحديث القرآن عن الشرك وعبادة غير الله كما في استنكار المشركين دعوة هود عليه السلام للتوحيد وقولهم ﴿ **أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا** ﴾ الأعراف/ ٧٠ ، ومنها الآيات التي يركز عليها أصحاب هذه الرؤية وهي قوله تعالى ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ**

يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ ﴾ ، وكذلك قوله عز وجل ناقلا قول المشركين ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ .

وننبه أنها نبحث هذا الأمر بغض النظر عن أنها عبادة لآلهة اعتقدوا بتأثيرها المستقل في شئون الكون والضر والنفع كما هو الحق أو آلهة لا تأثير مستقل لها لأنهم كانوا يوحدون لله في الربوبية كما هو متبنى أصحاب هذه الرؤية ، فالمهم هنا والنقطة الأساس التي يجب أن ننطلق لها هو التحديد الدقيق للعبادة التي أوقعها المقصودون في الآيتين لغير الله ، وبعبارة أخرى لا شك بأن المشركين الذين عبدوا الأوثان لم يعبدوها في عرض عبادة الله بل في طولها ، وهذا يمكن أن ينطلق من كونهم موحدين في الربوبية كما هو مفاد الأصل المتسالم عندهم والمذكور في الفصل السابق أو مع القول بأنهم اعتقدوا بربوبية تلك الآلهة الأخرى الصغيرة كما هو الصواب .

والمهم أنه من خلال تتبع أقوال أصحاب هذه المدرسة يمكن تحديد صياغتين متفاوتين لمعايير شرك العبادة المذكور في الآيات :

١- **الصياغة الأولى** : أن الشرك نبع من تقديس الأوثان واعتبارها وسيلة وواسطة تقربهم إلى الله وتوجب شفاعتها عنده ، فما عدهم القرآن مشركين بالله إلا لأنهم وسّطوا الأصنام عند تقربهم لله ، وهذا التوسيط بمجرده عبادة لتلك الوسائط ، فالنكتة التي يؤكدون عليها في الآيتين هي أن عبادة المشركين للأصنام تتلخص في اتخاذها وسائط تشفع لهم عند الله و تقربهم منه ، وهذا ما يقع فيه كثير من المسلمين بتوسيط الأولياء وأصحاب القبور ، وبعضهم يلحق التوسل بالشفاعة او يخلط بينهما .

٢-**الصياغة الثانية** : أن الشرك يتلخص في التوجه ببعض العبادات للأوثان والأصنام ، ولكن العبادة التي يتحدثون عنها – أي التي قصد بها المسلم المتهم بالشرك غير الله- تارة هي الذبح والنذر ونحوهما .

وتارة أخرى يركزون على الدعاء كأخطر وأهم عبادة أشرك بها بعض المسلمين فهي التي أوجبت عدهم مشركين في الألوهية ، وهي عبادة مارسها ويمارسها عباد الأوثان في تلك الأزمة ويمارسها عباد القبور في زماننا كما يدعي أصحاب هذه الرؤية .

وإليك تفصيلا في توضيح الصياغتين .

الصياغة الأولى : مجرد اتخاذ الوسطاء عبادة لها وشرك بالله

فموجب الوقوع في الشرك هو مجرد اتخاذ الوسائط والشفعاء للتقرب إلى الله ، وإليك بعض كلماتهم التي ظاهرها ذلك .

قال ابن عبدالوهاب : " إن الله ذكر في كتابه أن الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكم ويتبعون المتشابه ، وما ذكرته لك من أن الله تعالى ذكر أن المشركين يقرون بالربوبية وأن كفرهم بتعلقهم على الملائكة والأنبياء والأولياء مع قوله ﴿ **هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ** ﴾ هذا أمر محكم بين لا يقدر أحد أن يغير معناه " [1] .

وقال : " فإن قال : الكافر يريد منهم – الأصنام – وأنا أشهد أن الله هو النافع المدبر لا أريد إلا منه والصالحون ليس لهم من الأمر شيء ولكن أقصدهم أرجو من الله شفاعتهم .

---

(١) شرح كشف الشبهات ص ٧٦ – ٧٧ .

فالجواب : أن هذا قول الكفار سواء بسواء واقرأ عليه قوله تعالى ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** ﴾ الزمر/٣ وقوله تعالى ﴿ **وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ** ﴾ يونس/١٨ " [١] .

فتراه حينما قيل له في الإشكال : إننا نعتقد بأن الضار النافع الله فقط ونعتقد أن الصالحين ليس لهم من الأمر شي ولكن نقصدهم نرجو من الله شفاعتهم ، كان ظاهر جوابه أن مجرد التوجه إلى الله بتوسيطهم هو الذي أوجب الشرك لتماثله مع فعل المشركين في الآيتين .

قال سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب : " فإن قلت : إنما حكم سبحانه وتعالى بالشرك على من عبد الشفعاء ، أما من دعاهم للشفاعة فقط فهو لم يعبدهم ، فلا يكون ذلك شركا .

قيل : مجرد اتخاذ الشفعاء ملزوم للشرك ، والشرك لازم له ، كما أن الشرك ملزوم لتنقص الرب سبحانه وتعالى ، والتنقص لازم له ضرورة شاء المشرك أم أبى " [٢] .

وعبارة عبداللطيف آل الشيخ في رده على من يتوسل بالصالحين ظاهرة في ذلك حيث قال : " أن هذا بعينه قول عباد الأنبياء والصالحين من عهد قوم نوح إلى أن بعث إليهم خاتم النبيين ولم يزيدوا على ما ذكره هؤلاء الغلاة فيما انتحلوه من الشرك الوخيم والقول الذميم كما حكى الله عنهم ذلك في كتابه الكريم قال تعالى ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ**

---

(١) شرح كشف الشبهات ص ٨٥ - ٨٦ .

(٢) تيسير العزيز الحميد ص٢٢١ .

أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ ، فهذه النصوص المحكمة صريحة في أن المشركين لم يقصدوا إلا الجاه والشفاعة والتوسل بمعنى جعلهم وسائط تقربهم إلى الله " [١] .

وذلك واضح في قول آخر منهم هو أبو السمح : " فيظنون أن أولياء تقرب العباد من الله فيكونون وسطاء عنده لغيرهم ممن ليسوا بأولياء ولم يدروا أن اتخاذ الأولياء وسطاء وشفعاء من دون الله هو دين المشركين في كل زمان " [٢] .

فهذه العبارات يظهر منها أنهم اعتبروا أن قصد الله من خلال الوسائط وهو ما يعبر عنه بالشفاعة أحيانا والمذكورة في قوله تعالى ﴿ **وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ** ﴾ هي التي تحقق الشرك ، فليس الحديث هنا عن الدعاء والطلب من غير الله ، ولنقل أن التشفع أو الاستشفاع هو الموجب للوقوع في الشرك وهو بمعنى طلب المحتاج من الشفيع أن يذهب للتوسط عند الله .

وأحيانا أخرى يتم الحديث عن عنوان التوسل بأصحاب القبور على نحو يتداخل الأمر مع الحديث عن الشفاعة ، ولذا سنتطرق لذلك أيضا .

الصياغة الثانية : قصد غير الله بالأعمال العبادية شرك بالله

الشيء الواضح من الآيتين هو تحقق عبادة الآلهة التي تقرب إلى الله ، ولذا يجب تحديد العبادات التي صدرت من هؤلاء تجاه الآلهة المقربة ، ولذا تتركز كلمات أصحاب هذه الرؤية في صياغتهم الأخرى تارة على عبادة الذبح والنذر ، وتارة أخرى الدعاء بافتراض أنها عبادة بصريح آيات القرآن الكريم .

---

(١) نقلا عن كتاب (الواسطة بن الله وخلقه عند أهل السنة ومخالفيهم) ص٥٥١ .

(٢) الواسطة بين الله وخلقه عند أهل السنة ومخالفيهم ص ٣٥٨ .

والحق أن كلماتهم تتركز على الصياغة الثانية وينطلقون منها في اتهام المسلمين أكثر من الصياغة السابقة ، فمن الواضح أن جعل الوسائط لا يمكن أن يحقق معنى العبادة المبحوث عنها أي التعبد لغير الله ، نعم اتخاذ الوسائط يتناسب مع البحث في بدعية العمل المتعبد به الذي اتخذ فيه واسطة لله وأما شركيته ففيه تكلف مع افتراض أن الفاعل قصد الله .

نعم إذا قصد الفاعل الواسطة في عمل متعبد به لا شك بوقوعه في شرك العبادة .

الصياغة الثانية في تراث ابن عبدالوهاب

ويتضح تأكيد ابن عبدالوهاب على الصياغة الثانية أكثر في تقرير الإشكال التالي ، وخلاصته أن ما يفعله المسلمون عند القبور هو مجرد التوسل بصاحب القبر وليس من العبادة لصاحب القبر في شيء ، بل الأمر بالعكس هي عبادة لله كما كان السجود لآدم عليه السلام عبادة لله وكما يتوسل الإنسان ويتقرب إلى الله من خلال الصلاة متجها للكعبة والطواف حولها ، فالمسلم الزائر يرى أن زيارة الولي والتوسل به مما شرعه الله كما شرع الصلاة ، فالعبادة لله وليست عبادة لصاحب القبر ، وأما المشركون في الآية فيصرحون بأن عبادتهم للآلهة والأصنام أي قصدوا تلك الآلهة في العبادة ، وإن كانت عبادتهم لتلك الآلهة والأصنام بقصد التقرب إلى الله .

فقد أشار ابن عبدالوهاب إلى الاشكال السابق قائلا في تقرير: " فإن قال : أنا لا أشرك بالله شيئا حاشا وكلا ، ولكن الالتجاء إلى الصالحين ليس بشرك ، فقل له : إذا كنت تقر أن الله حرم الشرك أعظم من تحريم الزنا وتقر أن الله لا يغفره ، فما هذا الأمر الذي حرمه الله وذكر أنه لا يغفره ؟! فإنه لا يدري .

فقل له : كيف تبرئ نفسك من الشرك وأنت لا تعرفه ؟ أم كيف يحرم الله عليك هذا ويذكر أنه لا يغفره ولا تسأل عنه ولا تعرفه ، أتظن أن الله يحرمه ولا يبينه لنا ؟

فإن قال : الشرك عبادة الأصنام ، ونحن لا نعبد الأصنام ، فقل له : ما معنى عبادة الأصنام ؟ أتظن أنهم يعتقدون أن تلك الأخشاب والأحجار تخلق وترزق وتدبر أمر من دعاها ؟ فهذا يكذبه القرآن .

وإن قال : هو من قصد خشبة أو حجراً أو بنية على قبر أو غيره ، يدعون ذلك ويذبحون له ويقولون إنه يقربنا إلى الله زلفى ، ويدفع الله عنا ببركته أو يعطينا ببركته .

فقل : صدقت وهذا هو فعلكم عند الأحجار والأبنية التي على القبور وغيرها ، فهذا أقر أن فعلهم هذا هو عبادة الأصنام فهو المطلوب .

ويقال له أيضا : قولك : الشرك عبادة الأصنام ، هل مرادك أن الشرك مخصوص بهذا وأن الاعتماد على الصالحين ودعاؤهم لا يدخل في ذلك ؟ فهذا يرده ما ذكر الله في كتابه من كفر من تعلق على الملائكة أو عيسى أو الصالحين ، فلا بد أن يقر لك أن من أشرك في عبادة الله أحدا من الصالحين فهو الشرك المذكور في القرآن وهذا هو المطلوب

وسر المسألة أنه إذا قال : أنا لا أشرك بالله ، فقل له : وما الشرك بالله ؟ فسره لي .

فإن قال : هو عبادة الأصنام ، فقل له : وما معنى عبادة الأصنام ؟ فسرها لي ، فإن قال : أنا لا أعبد إلا الله ، فقل له : ما معنى عبادة الله ؟ فسرها لي ، فإن

فسرهما بما بينه القرآن فهو المطلوب ، وإن لم يعرفه فكيف يدعي شيئا وهو لا يعرفه ؟

وإن فسر ذلك بغير معناه بينت له الآيات الواضحات في معنى الشرك بالله وعبادة الأوثان وأنه الذي يفعلونه في هذا الزمان بعينه " [١] .

وكما ترى هو حدد معيارين :

الأول في قوله : " هو من قصد خشبة أو حجراً أو بنية على قبر أو غيره ، يدعون ذلك ويذبحون له ... وهذا هو فعلكم عند الأحجار والأبنية التي على القبور "

والثاني في قوله : " هل مرادك أن الشرك مخصوص بهذا وأن الاعتماد على الصالحين ودعاؤهم لا يدخل في ذلك ؟ فهذا يرده ما ذكر الله في كتابه من كفر من تعلق على الملائكة أو عيسى أو الصالحين " .

والفقرتان تدوران حول عبادة الذبح وعبادة الدعاء .

مشكلة ابن عبدالوهاب وأتباعه أنهم يقولون وبكل جرأة : " صدقت وهذا هو فعلكم عند الأحجار والأبنية التي على القبور وغيرها " ، والسؤال المهم الموجه لهم : من أقر أو يقر لكم بذلك ؟!! كيف تتجرأون وبكل سهولة فتقولون : " فلا بد أن يقر لك أن من أشرك في عبادة الله أحدا من الصالحين فهو الشرك المذكور في القرآن وهذا هو المطلوب " !!

ألم يأت في ذهن ابن عبدالوهاب أن الخصم يرد على دعواه تلك بقوله : ونحن لا نقوم بذلك بل نعبد الله ، فنقصده ونعبده بعبادة مشروعة من قبله وإن كانت تلك العبادة طوافا حول أحجار سميت بيته الحرام أو تقبيلا لحجر أسود أو

---

(١) شرح كشف الشبهات ص ٩٥- ٩٩ .

زيارة لقبر نبيه الكريم ﷺ ، ولا يعد ذلك عبادة للبيت الحرام ولا للحجر الأسود ولا لقبر نبيه الكريم ﷺ .

المهم أن كلماته في العبارات السابقة تدور حول عبادتي الذبح والدعاء ، واعتبار أن قصد تلك الموجودات بالعبادة هو الموجب للشرك أمر صحيح في نفسه ، ولكن المشكلة في أنه يجزم أن ما يفعله المسلمون عند قبور الأولياء هو من هذا القبيل ، بل مصيبته وأمثاله أن الخصم يقول له : أنا لا أفعل ذلك ، فيرد بقوله : أنت تفعل ذلك .

عبادة الذبح والنذر في كلماتهم

يقول ابن عبدالوهاب : " باب ما جاء في الذبح لغير الله وقول الله تعالى ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ** ﴾ وقوله ﴿ **فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ** ﴾ ، عن علي رضي الله عنه حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات : لعن الله من ذبح لغير الله ... " [1] ، وقال في كشف الشبهات وهو يتحدث عن المشركين : " وتحققت أن رسول الله ﷺ قاتلهم ليكون الدعاء كله لله والذبح كله لله والنذر كله لله" [2] .

لذا قال الفوزان : " (من ذبح لغير الله) أي تقرب بالذبح لغير الله من الأصنام ومن الأضرحة ... ... فمن فعل ذلك فهو مشرك وملعون سواء تلفظ وقال : هذه الذبيحة للقبر أو للبدوي أو لسيده الحسين أو لفلان أو لفلان أو نوى بقلبه فقط " [3] .

(١) التوحيد ص ٢٧ .

(٢) شرح كشف الشبهات ص ٣٦ .

(٣) إعانة المستفيد ج١ ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

وقال : " ودل على أن هذه الأضرحة المبنية على القبور التي يطاف بها الآن وينذر لها ويذبح لها ويستغاث بها أنها أوثان ، لا فرق بينها وبين اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى وإن سموها مساجد أو سموها مقامات الصالحين ، فالتسمية لا تغير المعنى ، هي أوثان كما سماها الرسول ﷺ " [١] .

وقال ابن عبدالوهاب : " باب من الشرك النذر لغير الله " [٢]

قال الفوزان في شرح ذلك : " والشيخ – رحمه الله – في هذه الأبواب إنما يحكي أنواعا تقع من الناس وهي من الشرك يريد أن يحذر المسلمين منها ، ومن ذلك النذر لغير الله من الجن والأولياء أو الصالحين أو أصحاب القبور ، وهذا عبادة لغير الله عز وجل فهو شرك ، وهذا واقع في هذه الأمة بكثرة من حين وحدت الأضرحة وبنيت على القبور ... ... فالخطر شديد من هذه الأمور لأنها كثرت في الأمة بسبب وجود الأوثان التي يسمونها الأضرحة : ضريح الست نفيسة ، ضريح البدوي ، ضريح لفلان ، صرفت لها العبادات من نذور ، وذبح لغير الله ، وتبرك بها وطواف لها ، ودعاء عندها إلى غير ذلك أو استغاثة بها من دون الله عز وجل " [٣] .

عبادة الدعاء في كلماتهم

إن الأقوال التالية لأئمة هذه الرؤية صريحة في أن المناط في تحقق شرك المشركين في آيتي الزلفى والشفعاء هو دعاء غير الله باعتباره أهم أنواع

(١) إعانة المستفيد ج١ ص ٤١٨ .

(٢) التوحيد ص ٣٠ .

(٣) إعانة المستفيد ج١ ص٢٤٩ – ٢٥٠ .

العبادات ، فالمشركون المذكورون في الآيتين أشركوا لأنهم دعوا غير الله ، إذ بذلك عبدوا ذلك الغير .

قال ابن تيمية : " فهذه الأنواع من خطاب الملائكة والأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم وفي مغيبهم ، وخطاب تماثيلهم هو أعظم أنواع الشرك الموجود في المشركين من غير أهل الكتاب وفي مبتدعة أهل الكتاب والمسلمين الذين أحدثوا من الشرك والعبادات ما لم يأذن به الله تعالى ، قال تعالى ﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ** ﴾ فإن دعاء الملائكة والأنبياء بعد موتهم وفي مغيبهم وسؤالهم والاستغاثة بهم واستشفاع به في هذه الحال – ونصب تماثيلهم بمعنى طلب الشفاعة منهم – هو من الدين الذي لم يشرعه الله "[1] .

وقال كذلك : " وقد ذكر علماء الإسلام وأئمة الدين الأدعية الشرعية وأعرضوا عن الأدعية البدعية ، فينبغي إتباع ذلك والمراتب في هذا الباب ثلاث :

إحداها : أن يدعو غير الله وهو ميت أو غائب سوء كان من الأنبياء والصالحين أو غيرهم فيقول : يا سيد فلان أغثني ... أو انصرني على عدوي ... فهذا شرك بهم وإن كان يقع كثير من الناس في بعضه "[2] .

وقال ابن عبدالوهاب بعد استشهاده بآيتي الزلفى والشفعاء : " فإن قال أن لا أعبد الله وهذا الالتجاء إلى الصالحين ودعاؤهم ليس بعبادة .

---

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ١٨ .

(٢) المصدر السابق ص ١٦٤ .

فقل له : أنت تقر أن الله فرض عليك إخلاص العبادة لله وهو حقه عليك ، فإذا قال : نعم ، فقل له : بين لي هذا الذي فرض عليك وهو إخلاص العبادة لله وحده وهو حقه عليك فإن كان لا يعرف العبادة ولا أنواعها ، فبينها له بقولك : قال الله تعالى ﴿ ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾، فإذا أعلمته بهذا فقل له : هل علمت هذا عبادة لله فلا بد أن يقول : نعم ، والدعاء مخ العبادة .

فقل له : إذا أقررت أنها عبادة ودعوت الله ليلا ونهارا خوفا وطمعا ثم دعوت في تلك الحاجة نبيا أو غيره هل أشركت في عبادة غيره ؟ فلا بد أن يقول : نعم " [١] .

ويتابع كلامه قائلا " وقل له أيضا : المشركون الذين نزل فيهم القرآن هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات وغير ذلك ؟ فلا بد أن يقول : نعم ، فقل به : وهل كانت عبادتهم إياهم إلا في الدعاء والذبح والالتجاء ونحو ذلك ! وإلا فهم مقرون أنهم عبيده وتحت قهره وأن الله هو الذي يدبر الأمر ، ولكن دعوهم والتجأوا إليهم للجاه والشفاعة وهذا ظاهر جدا " [٢] .

فهنا يصرح ابن عبدالوهاب الدعاء بأنه الدعاء للجاه والشفاعة فهل بذلك صدق دعاء العبادة ، وهذا حديث عن الدعاء كعبادة من العبادات وهو ما سنتطرق إليه مفصلا في الباب الثالث القادم .

ففي هذه العبارة وفيما نقلناه سابقا من قوله : " النبي ﷺ أعطي الشفاعة وأنا أطلبه مما أعطاه الله ؟ فالجواب : أن الله أعطاه ونهاك عن هذا " دليل على أن

(١) شرح كشف الشبهات ص ٨٧ -٨٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٩٠ .

الوهابية ترى أن الشرك في مثل آيتي الزلفى والشفاعة يتحقق بدعاء غير الله والطلب منه ، وعلى هذا استقرت أغلب كلماتهم في تقرير النقطة التي أوجبت اعتبار القائلين في الآيتين مشركين ، فهي متضمنة في كلمة العبادة بمعناها اللغوي والعرفي ، ولكن باعتبار أن الطلب والدعاء أجلى مصاديقها ، فليس في قولهم المنقول ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** ﴾ ولا في قولهم الآخر﴿ **هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ** ﴾ حديث عن الدعاء والطلب ، لكنهم يرون أن الدعاء والطلب واضح في من يطلب الشفاعة لقضاء الحاجة ، فهو لا يستشفع بالآلهة إلا من أجل أن تقضى حوائجه .

وقال سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب : " ، فإن الدعاء عبادة ، بل هو مخ العبادة ، فإذا دعاه للشفاعة فقد عبدهم وأشرك في عبادة الله ، شاء أم أبى " [١] .

وقال عبدالعزيز العبداللطيف في (**دعاوى المناوئين**) :

" ولما دخلت جيوش الموحدين مكة سنة ١٢١٨ هـ كان مما حدث مع علماء مكة ما سطره الشيخ عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب : عرفناهم أنا دائرون مع الحق أينما دار ... فذكر بعضهم شبهة أو شبهتين فرددناها بالدلائل القاطعة من الكتاب والسنة حتى أذعنوا ... لم يبق لديهم شك في من قال : يا رسول الله ... طالبا بذلك دفع شر أو جلب خير ... أنه مشرك الشرك الأكبر الذي يهدر دمه ويبيح ماله وإن كان يعتقد أن الفاعل المؤثر في تصريف الكون هو الله وحده ، لكنه قصد المخلوقين بالدعاء متقربا له لقضاء حاجته " [٢] .

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص٢٢١ .

(٢) دعاوى المناوئين ص ٣٥٧ – ٣٥٨ ، عن الهدية السنية .

ونقل عن الشيخ سليمان حفيد ابن عبدالوهاب في شرحه لتوحيد جده :

" الدعاء عبادة من أجل العبادات بل هو أكرمها على الله ... فإن لم يكن الإشراك فيه شركا فليس في الأرض شرك وإن كان في الأرض شرك فالشرك في الدعاء أولى أن يكون شركا من الإشراك في غيره من أنواع العبادة بل الإشراك في الدعاء هو أكبر شرك المشركين الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ فإنهم يدعون الأنبياء والصالحين والملائكة ليشفعوا لهم عند الله ، ولهذا يخلصون في الشدائد لله وينسون ما يشركون "[1] .

قال ابن عثيمين في شرحه لتوحيد ابن عبدالوهاب :

" من الشرك أن يدعو غير الله ، وذلك لأن الدعاء من العبادة ، قال الله تعالى ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ عبادتي أي دعائي فسمى الله الدعاء عبادة ، وقال ﷺ : إن الدعاء هو العبادة .

والدعاء ينقسم إلى قسمين :

١- ما يقع عبادة وهذا صرفه لغير الله شرك وهو المقرون بالرهبة والرغبة والحب والتضرع .

٢- ما لا يقع عبادة فهذا يجوز أن يوجه إلى المخلوق قال النبي ﷺ : من دعاكم فأجيبوه ، وقال : إذا دعاك فأجبه ، وعلى هذا فمراد المؤلف بقوله : أو يدعو غيره ، دعاء العبادة أو دعاء المسألة فيما لا يمكن للمسؤول إجابته "[2] .

وقال صالح الفوزان في شرحه لتوحيد ابن عبدالوهاب :

---

(١) دعاوى المناوئين ص ٣٤٧ - ٣٤٨ ، نقله عن تيسر العزيز الحميد باختصار يسير .

(٢) القول المفيد ج١ ص ٢٦٠

" من أنواع الشرك الأكبر أن يستغيث بغير الله والاستغاثة طلب الغوث ولا تكون إلا في وقت الشدة ، وأما الدعاء فهو عام في وقت الشدة وفي غيرها فعطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص ، والاستغاثة بالمخلوق على قسمين :

القسم الأول : الاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى ، فهذه هي الشرك الأكبر لأنها صرف للعبادة لغير الله سبحانه وتعالى .

أما الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه المخلوق الحاضر عنده ، كاستغاثة الإنسان بغيره في الحرب ليساعده ويناصره على عدوه فهذا جائز كما قال الله تعالى عن موسى عليه السلام ﴿ **فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ** ﴾ ، فالاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه – كالاستغاثة بالأموات والغائبين – شرك أكبر ، لأنه يستغيث بمن لا يقدرون على شيء أبدا ، فالذين يستغيثون بالأضرحة وبالأولياء وبالصالحين والأموات أو يستغيثون بالغائبين من الجن أو بالشياطين كل هذا من النوع الممنوع " [١] .

وقال الشيخ ابن عثيمين مبينا أن حقيقة الشرك في دعاء غير الله :

" ثم إن هذا المشرك المشبه ليس يريد من رسول الله ﷺ أن يشفع له ، ولو كان يريد ذلك لقال : اللهم شفع فيّ نبيك محمدا رسول الله ﷺ ، ولكنه يدعو الرسول مباشرة ، ودعاء غير الله شرك أكبر مخرج من الملة ، فكيف يريد هذا الرجل الذي يدعو مع الله غيره أن يشفع له أحد عند الله سبحانه وتعالى ؟! " [٢] .

---

(١) إعانة المستفيد ج١ ص٢٦٧

(٢) شرح كشف الشبهات ص ٩٣ – ٩٤ .

خلاصة ما سبق

باعتبار أن موجب الشرك في العبادة ومحققه تردد في كلماتهم بين أن يكون مجرد اتخاذ الوسائط ، فتتحقق العبادة باتخاذ الشفعاء وتوسيطهم والتوسل بهم وبين أن يكون في تحقق أحد العبادات المعروفة وهي مرددة بين عبادة الذبح والنذر وعبادة الدعاء أي طلب الحاجة مباشرة من غير الله ، لذا استيفاءً للبحث ندرس الشفاعة والتوسل في المبحث الأول من باب الثالث ، وعبادة الذبح والنذر والدعاء أي طلب قضاء الحوائج من غير الله في المبحث الثاني منه .

ومهمتنا في النهاية أن نحدد مدى سلامة فهمهم لما حقق الشرك في العبادة في الآيتين ﴿ **وَيَعْبُدُونَ** ﴾ في سورة يونس ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ** ﴾ في سورة الزمر ، وكذلك سلامة تمييزهم لمصاديقها عن مصاديق غيرها من الأمور التي ليست عبادة .

الباب الثالث

في هذا الباب نناقش مدى صحة المعايير التي وضعها أصحاب هذه الرؤية لتحقق الشرك في العبادات والتي ادعوا أنها تنطبق على المسلمين فحكموا بشركهم ، وكما قلنا هي تدور بين تحققه بمجرد التوسيط في عبادة الله هي عبادة للوسيط الشفيع أو المتوسل به وهو المبحث الأول من هذا الباب ، وبين تحققه بسبب قصدِ موجودات أخرى غير الله ببعض العبادات المعهودة وهو المبحث الثاني في الباب .

ولكن لأن المبحث الثاني ينقسم إلى مشكلتين متفاوتتين ، الأولى تتعلق بخطأ خارجي حول ما يقوم به المسلمون عند قبور الأولياء ، والثاني في عبادية مطلق الدعاء كما يظهر من بعض كلماتهم ، سينقسم المبحث الثاني إلى قسمين : الأول : نبحث فيه في العبادات التي هي من قبيل الذبح والنذر ونحوهما ، والثاني نبحث فيه حول عبادة الدعاء .

المبحث الأول

هل تتحقق عبادة غير الله بالشفاعة والتوسل ؟

رأينا أن كلمات ابن تيمية تدل على أنه يعتبر طلب الشفاعة – إن قصد بها طلب الدعاء من الميت – بدعة وليس شركا ، ولكن مع ذلك تجد أن بعض علمائهم ركز على عنوان الشفاعة واتخاذ الشفعاء كموجب للوقوع في الشرك ، وقد عرضنا كلماتهم فيما سبق .

كلمة الشفاعة في المعاجم اللغوية

وفي البدء ينبغي تحديد المعنى اللغوي للكلمة ، قال الأزهري : " قال المنذري : وسمعت أبا العباس وسئل عن اشتقاق الشفعة في اللغة ، فقال : الشفعة الزيادة ، وهو أن يشفعك فيما تطلب حتى تضمه إلى ما عنده فتزيده وتشفعه بها أي تزيده بها ، أي أنه كان وترا واحدا فضم إليه ما زاده وشفعه ... " ، وعن المعنى المستعمل في الشرع قال : " والشفاعة كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره " [(1)] .

وقال الخليل : " والشافع : الطالب لغيره ، وتقول استشفعت بفلان فشفع لي إليه فشفّعه في والاسم الشفاعة واسم الطالب الشفيع " [(2)] .

وقال ابن المنظور : " والشفاعة كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره ، وشفع إليه في معنى طلب إليه والشافع الطالب لغيره يتشفع به إلى المطلوب ،

---

(١) تهذيب اللغة ج١ ص ٢٧٨ .

(٢) العين ص ٤٨٥ .

يقال : تشفعت بفلان إلى فلان فشفعني فيه واسم الطالب شفيع ... واستشفعته إلى فلان أي سألته أن يشفع لي إليه ، وتشفعت إليه في فلان فشفعني فيه تشفيعا ... " ، وعن المعنى المقصود هنا قال : " وقد تكرر ذكر الشفاعة في الحديث فيما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة وهي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم ، والمشفِّع الذي يقبل الشفاعة والمشفَّع الذي تقبل شفاعته "[(١)] .

وقال الطريحي : " والشفعة كغرفة ، قد تكرر ذكرها في الحديث ، وهي في الأصل التقوية والإعانة ، وفي الشرع استحقاق الشريك الحصة المبيعة في شركة ، واشتقاقها على ما قيل من الزيادة ، لأن الشفيع يضم المبيع إلى ملكه فيشفعه به ،كأنه كان واحدا وترا فصار زوجا شفعا " ، وقال عن المعنى المستعمل فيه هنا : " وفي الحديث تكرر ذكر الشفاعة فيما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة ، وهي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم ، ومنه قوله ﷺ : " أعطيت الشفاعة "[(٢)] .

تعريف المفسرين وعلماء الحديث للكلمة

قال الطبري : " والشفاعة مصدر من قول الرجل : شفع لي فلان إلى فلان شفاعة وهو طلبه إليه في قضاء حاجته ، وإنما قيل للشفيع شفيع وشافع لأنه ثنى المستشفع به ، فصار له شفْعا ، فكان ذو الحاجة قبل استشفاعه به في حاجته فردا فصار صاحبه له فيها شافعا ، وطلبه فيه وفي حاجته شفاعة ، ولذلك سمي الشفيع في الدار وفي الأرض شفيعا لمصير البائع به شفعا "[(٣)] .

(١) لسان العرب ج ٨ ص ١٨٤ .

(٢) مجمع البحرين ج٤ ص ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(٣) تفسير الطبري ، المجلد الأول ، ج١ ص ٣٨١ .

وقال الراغب : " الشفع ضم الشيء إلى مثله ، ويقال للمشفوع شفع ... والشفاعة الانضمام إلى آخر ناصرا له وسائلا عنه ، وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى ، ومنه الشفاعة في يوم القيامة قال ﴿ **لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا** ﴾ ... أي لا يشفع لهم " [1] .

والظاهر أن ما ذكره اللغويون في توضيح المعنى المستعمل فيه مصدره قول ابن الأثير في (النهاية في غريب الحديث) : " قد تكرر ذكر الشفاعة في الحديث فيما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة وهي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم بينهم " [2] .

قال ابن حجر في تفسير الخبر المروي عنه ﷺ : " فيقولون : لو استشفعنا على ربنا : ضمن معنى استشفعنا سعى ، لأن الاستشفاع طلب الشفاعة ، وهي انضمام الأدنى إلى الأعلى ليستعين به على ما يروعه " [3] .

الشفاعة شاملة لحوائج الدنيا والآخرة

وقد حدث خلاف في هذه الشفاعة التي اعتقد بها المشركون هل هي خصوص الشفاعة في الآخرة أم يقصد به الشفاعة في قضاء حوائج الدنيا والآخرة ، فالظاهر من حال المشركين إنهم يرجون من الشفاعة قضاء حوائجهم الدنيوية خاصة بملاحظة عدم اعتقادهم بالبعث والنشور ، وذهب الكثير من المفسرين إلى ذلك ، نعم خلافا لذلك جزم مقاتل في تفسيره بأن الشفاعة يوم

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص ٢٦٣ .

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر ج٢ ص ٤٣٤ .

(٣) فتح الباري ج١١ ص ٤٣٢ - ٤٣٣ .

القيامة قال : " وذلك أن أهل الطائف عبدوا اللات وعبد أهل مكة العزى ومناة وهبل ... قالوا : نعبدها لتشفع لنا يوم القيامة " [(١)] ، كما احتمل عدد من المفسرين أن يكون مقصودهم أنها تشفع لنا يوم القيمة إن كان ما يدّعى من البعث والنشور صحيحا ، فقد روى ابن أبي حاتم في تفسيره عن عكرمة قال النضر بن الحارث : إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى قال : فأنزل الله ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّه ﴾ [(٢)] .

قال ابن الجوزي في (زاد المسير) : " ﴿ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّه ﴾ قولان : أحدهما شفعاؤنا في الآخرة قاله أبو صالح عن ابن عباس ومقاتل ، والثاني : شفعاؤنا في إصلاح معايشنا في الدنيا لأنهم لا يقرون بالبعث قاله الحسن " [(٣)] .

ولا شك أن الكلمة في التراث الإسلامي استعملت في الغالب عند الحديث عن شفاعة الآخرة ، ولكن استعملت أيضا في الشفاعة في قضاء الحوائج الدنيوية ، فالكلمة تعني الشفاعة في حوائج الدنيا والآخرة ، وقد صرح اللغويون بذلك ، ويكفيك دليلا عليه حديث الأعمى الذي استعملت فيه كلمة الشفاعة لقضاء حاجة من حوائج الدنيا ، قال ابن تيمية :

" وحديث الأعمى الذي رواه الترمذي والنسائي هو من القسم الثاني من التوسل بدعائه ، فإن الأعمى قد طلب من النبي ﷺ أن يدعو له بأن يرد الله عليه بصره ، فقال له : إن شئت صبرت وإن شئت دعوت لك ، قال : بل ادعه ، فأمره أن يتوضأ ويصلي ركعتين ويقول : (اللهم إني أسألك بنبيك نبي الرحمة ، يا محمد يا رسول الله ، إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه ليقضيها ، اللهم

---

(١) تفسير مقاتل ج٢ ص٢٣٢ .

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ج٦ ص ١٩٣٦

(٣) زاد المسير ج٤ ص ١٣ .

فشفعه فيّ) ، فهذا توسل بدعاء النبي ﷺ وشفاعته ودعا له النبي ﷺ ، ولهذا قال : وشفعه فيّ ، فسأل الله أن يقبل شفاعة رسوله فيه وهو دعاؤه " [(١)] .

الاعتقاد بالشفاعة من مسلمات الإسلام !

إن محاولة تضمين الشرك في مفهوم الشفاعة المستعملة في قوله تعالى ﴿ **وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ** ﴾ تواجه مشكلة أساسية ، فالشفاعة في نفسها من الواضحات التي يقبلها القرآن ويقر بها ، فليست هي مرفوضة في الإسلام ولا مذمومة في نفسها ، بل الرفض هو لبعض تصورات الكفار التي لازمت الشفاعة لا أصل الشفاعة ، وآيات القرآن واضحة في إثباتها للمؤمنين ونفيها عن المشركين ، كما أن من الواضح أن الكفار كانوا يؤمنون بها ويرجونها .

فأي رؤية لآيتي الزلفى والشفعاء يجب ألا تصطدم بمسلمة إسلامية هي ثبوت شفاعة رسول الله ﷺ بل شفاعة كل مؤمن أذن الله له ، وتجد ذلك في قوله تعالى ﴿ **يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ** ﴾ طه/١٠٩ ، فإذا كانت الشفاعة شركا ، فهل يمكن أن يجيز الله الشرك في بعض الأحيان مع تحقق ضابطته وموجبه ؟! كيف وقد قال عز وجل ﴿ **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۞ وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ آل عمران/٧٩-٨٠ .

---

(١) قاعدة جليلة ص ٩٩ ، قال الترمذي بعد أن نقل الخبر : " هذا حديث حسن صحيح غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبي جعفر وهو الخطمي " ، سنن الترمذي ج٥ ص ٥٦٩ .

قد يتخيل البعض ذلك بل يتوهمه من قوله تعالى ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا** ﴾ الأعراف/٣٣ ، فالآية توهم إمكان أن ينزل الله بسلطان أي حجة يجيز الشرك ، قال الرازي تعليقا على الآية : " وفيه سؤال : وهو أن هذا يوهم أن في الشرك بالله ما قد أنزل به سلطانا ، وجوابه : المراد منه أن الإقرار بالشيء الذي ليس على ثبوته حجة ولا سلطان ممتنع ، فلما امتنع حصول الحجة والتنبيه على صحة القول بالشرك ، فوجب أن يكون القول به باطلا على الإطلاق " [١] .

واعتبرها الزمخشري تهكما بالمشركين إذ قال : " ﴿ **مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا** ﴾ فيه تهكم ، لأنه لا يجوز أن ينزل برهانا بأن يشرك به غيره " ، وكذلك اعتبرها الشوكاني في تفسيره [٢] .

لكن الظاهر أن عدم نزول السلطان من الله كناية عن عدم وجود دليل عندهم ، واستعمال صيغة الماضي ﴿ **مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا** ﴾ باعتبار أنه مواجهة لعقيدة قديمة فاسدة انطلقت من الماضي فلم ينزل به سلطان حينما بدأت ، وكل موراد استعمال العبارة في القرآن استعملت على نحو النفي في الماضي كما في قوله تعالى ﴿ **مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ** ﴾ يوسف/٤٠ ، فالمقصود أنها لم تنطلق من دليل وبرهان وحجة ، ومثل هذا المقصود وهذا المعنى لا مفهوم له ، والأرجح ان كلام الرازي يرجع إلى ذلك .

---

(١) تفسير الرازي ، المجلد السابع ، ج١٤ ص ٧٠

(٢) الكشاف ج٢ ص ٦١ ، فتح القدير ج٢ ص ٢٢٩ .

وعلى مثل هذا يجب حمل قوله تعالى ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ الزخرف/ ٤٥ وقوله تعالى ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ الأنبياء / ٢٤ ، ولا بد من الحمل على ذلك لأنه لا يمكن أن ينزل برهانا وسلطانا يجيز الشرك ، كيف وقد قال عز وجل ﴿ وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ آل عمران / ٨٠ .

الشفاعة في الآيات

والآيات التي تثبت الشفاعة بإذن الله واضحة ومتكررة ، وهي غالبا بصيغة الاستثناء ، وقد ذكرت في آيات عديدة :

﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ الزخرف/ ٨٦ .

﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ مريم / ٨٧ .

﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ﴾ طه / ١٠٩ .

﴿ إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا ﴾ يس / ٢٣ .

﴿ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء ﴾ النجم / ٢٦ .

﴿ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ سبأ / ٢٣ .

﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ الأنبياء / ٢٨ .

﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ البقرة / ٢٥٥ .

تصريح العلماء بأن الشفاعة من مسلمات الإسلام الثابتة

قال القاضي عياض : " مذهب أهل السنة جواز الشفاعة عقلا ووجوبها بصريح قوله تعالى ﴿ **لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ** ﴾ ، ﴿ **وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى** ﴾ وأمثالها ، وبخبر الصادق سمعا ، وقد جاءت الآثار التي بلغت بمجموعها التواتر بصحتها في الآخرة لمذنبي المؤمنين وأجمع السلف الصالح ومن بعدهم من أهل السنة عليها ، ومنعت الخوارج وبعض المعتزلة منها وتأولت الأحاديث الواردة فيها ، واعتصموا بمذاهبهم في تخليد المذنبين في النار واحتجوا بقوله ﴿ **فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ** ﴾ وبقوله ﴿ **مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ** ﴾ ، وهذه الآيات في الكفار ، وتأولوا أحاديث الشفاعة في زيادة الدرجات وإجزال الثواب ، وألفاظ الأحاديث التي في الكتاب وغيره تدل على خلاف ما ذهبوا إليه ، وأنها في المذنبين وفي إخراج من استوجب "[١] .

قال ابن تيمية مقررا ثبوت الشفاعة : " نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه أو يكون عونا لله ، ولم يبق إلا الشفاعة فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب كما قال تعالى ﴿ **وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى** ﴾ فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده لا يبدأ بالشفاعة أولا ثم يقال له : ارفع رأسك وقل يسمع وسل تعط واشفع تشفع .

(١) إكمال المعلم ج١ ص ٥٦٥ .

وقال له أبو هريرة : من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله ؟ قال : من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه " ، فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله ولا تكون لمن أشرك بالله .

وحقيقته أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص ، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود ، فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك ، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع ، وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص " [(١)] .

وكذلك صرح ابن عبدالوهاب بأن النبي ﷺ يشفع قائلا :

" فإن قال : أتنكر شفاعة رسول الله ﷺ وتبرأ منها ؟ فقل : لا أنكرها ولا أتبرأ منها ، بل هو ﷺ الشافع المشفع وأرجو شفاعته ، ولكن الشفاعة كلها لله كما قال الله تعالى ﴿ **قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ** ﴾ الزمر / ٤٤ ، ولا تكون إلا من بعد إذن الله كما قال عز وجل ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِه** ﴾ البقرة / ٢٥٥ ، ولا يشفع في أحد إلا من بعد أن يأذن الله فيه كما قال عز وجل ﴿ **وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى** ﴾ الأنبياء / ٢٨ وهو لا يرضى إلا التوحيد كما قال عز وجل ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ** ﴾ آل عمران / ٨٥ " [(٢)] .

---

(١) مجموعة الفتاوى ج٧ ص ٥٤ - ٥٥ .

(٢) شرح كشف الشبهات ص ٩٠ .

الشرك عند العرب في عبادة الشفيع لا في مجرد الاعتقاد بشفاعته .

ما دامت الشفاعة في نفسها من مسلمات الإسلام ، فإذن علينا أن نتساءل أين كان شركهم إذا لم يكن في الشفاعة ؟! أين تحقق الشرك الذي تحدث عنه ابن تيمية في قوله : " فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك " ، فما هي الشفاعة التي فيها شرك ؟ ومتى تكون كذلك ؟

اعتقد أن الربط بين الشرك وتوسيط الآلهة في تقربهم المذكور في آية الزلفى أو شفاعتها المذكورة في آية الشفعاء سبب لبسا عند الكثيرين ، وفي معناهما قوله تعالى ﴿ **وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ** ﴾ الأنعام/٩٤ ، وقوله تعالى ﴿ **وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاء وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ** ﴾ الروم/١٣ إذ ذكر فيهما اعتقاد المشركين بشفاعة آلهتهم مع ذكر أنهم أشركوا بالله باتخاذها آلهة .

والآيات ليس فيها أكثر من تقرير عقيدتهم بأن الآلهة تشفع لهم عند الله ، لذا قال ابن عباس في تفسير آية الأنعام : " شفعاؤكم أي آلهتكم الذين زعمتم أنهم يشفعون لكم " [1] ، وقال ابن كثير في تفسير الآية نفسها : " وقوله ﴿ **وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء** ﴾ تقريع وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان ظانين أنها تنفعهم في معاشهم ومعادهم إن كان ثم معاد " [2] ، وقال في آية

(١) زاد المسير ج٣ ص ٦٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص ١٦٣ .

الروم : " ﴿ **وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاء** ﴾ أي ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى " [١] .

و يتكرر في القرآن ذكر عبادة المشركين لغير الله من دون ربط للأمر بالتقرب إلى الله والشفاعة كما في قوله تعالى ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا** ﴾ الفرقان/٥٥ ، كما أن القرآن يذكر الشفاعة في آيات أخرى دون أن يكون الحديث عنها حديثا عن الشرك بل يقر بوجودها وتحققها على أنها حق وصواب ، ولكن بعد أن يأذن الله كما في قوله تعالى ﴿ **مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ** ﴾ يونس/٣ ، وخطأ الوهابية أنها قامت بالربط بين الأمرين وكأنهما أمر واحد وحقيقة واحدة .

ولتوضيح الأمر أكثر نقول هناك آيات في القرآن قد يستظهر منها نفي وجود الشفيع بصورة مطلقة كقوله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ البقرة/٢٥٤ ، ﴿ **وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾ الأنعام/٥١ ، ﴿ **أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ** ﴾ الأنعام/٧٠ .

فما المقصود بالنفي في هذه الآيات ؟

قال الطبري في حديثه عن الآية الأولى : " وهذه الآية مخرجها في الشفاعة عام والمراد بها خاص ، وإنما معناه : من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا

(١) تفسير ابن كثير ج٣ ص ٤٣٨ .

شفاعة لأهل الكفر بالله ، لأن أهل ولاية الله والإيمان به يشفع بعضهم لبعض " [1] .

وقال ابن كثير : " ولا شفاعة : أي لا تنفعهم شفاعة الشافعين " [2] .

وقال الشوكاني : " ولا شفاعة مؤثرة إلا لمن أذن الله له " [3] .

وقال الشيخ الطوسي : " ﴿ **وَلاَ شَفَاعَةٌ** ﴾ وإن كان على لفظ العموم فالمراد به الخصوص بلا خلاف لأن عندنا قد تكون شفاعة في إسقاط الضرر وعند مخالفينا في الوعيد قد يكون في زيادة المنافع فقد أجمعنا على ثبوت الشفاعة وإنما ننفي نحن الشفاعة قطعا عن الكفار ، ومخالفونا عن كل مرتكب كبيرة إذا لم يتب منها " [4] .

وقال الشيخ الطبرسي : " ﴿ **وَلاَ شَفَاعَةٌ** ﴾ أي لغير المؤمنين مطلقا ، فأما المؤمنون فقد يشفع بعضهم لبعض ويشفع لهم أنبياؤهم كما قال سبحانه ﴿ **وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى** ﴾ ، ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ** ﴾ ... ﴿ **وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ ... وأخبر أنه حرم الكافر هذه الأمور " [5] .

وعليه كل الآيات التالية هي بيان لحال الكفار ﴿ **وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ** ﴾ البقرة / ٤٨ ، ﴿ **وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ** ﴾ البقرة/١٢٣ ، وكذلك قوله تعالى عنهم ﴿ **فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ۞**

---

(١) تفسير الطبري المجلد الثالث ،ج٣ ص ٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ج١ ص ٣١٢ .

(٣) فتح القدير ج١ ص ٣١٠ .

(٤) التبيان في تفسير القرآن ج٢ ص ٣٠٦ .

(٥) مجمع البيان ج١ ص ٣٦٠ .

وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ الشعراء/١٠٠- ١٠١ ، فكلها آيات صريحة في أنه أمر لا يحصل عليه الكفار .

بل الأمر واضح في القرآن حينما يقول عز وجل ﴿ **فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ** ﴾ المدثر/٤٨ فالآية صريحة في وجود الشافعين لكن شفاعتهم لا تنفع ، وعلى ذلك يحمل قوله تعالى ﴿ **قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا** ﴾ الأعراف/٥٣ فهم يعلمون بوجود الشفعاء فيطلبون شفاعتهم ، ولكنه ليس طلبا حقيقيا هنا بل هو لبيان الحسرة التي يعيشونها حينذاك ، وعليه يكون قوله تعالى ﴿ **مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ** ﴾ غافر/١٨ صريحا في أنه ليس لهؤلاء الظالمين شفيع يطاع ولكن لغيرهم شفيع يطاع .

ما نريد بيانه أن المفسرين أجمعوا على أن تلك الآيات ليست في صدد نفي أصل الشفاعة وإنما تنفي حصول نوع معين من الناس عليها وهم الكفار .

ولا شك أن القرآن ذم تخيلات المشركين بأن آلهتهم تشفع في آيات عدة منها آيتي القربى والشفعاء الأساسيتين في الباب ، ولكن الآيات التي ذمت مثل تلك التخيلات لم تكن في صدد ذم أصل الشفاعة أو اعتبارها فكرة خاطئة في نفسها ، بل هي ذمت خصوص تخيلاتهم الخاطئة في تحديد الشفعاء وأنهم يلجأون إلى شفعاء لا يشفعون لهم ولا ينفعونهم ، فذمهم لأنهم جعلوها لموجودات من دون إذن من الله مع أن الشفاعة بيد الله وأمرها إليه ، فانحرافهم يكمن في أنهم جعلوها لآلهة اختلقوها ، قال تعالى ﴿ **أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاء قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ۞ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ الزمر/٤٣-٤٤ .

فعبارة لله الشفاعة جميعا تعني أن أمرها بيد الله ، فهي رد على المشركين الذين جعلوها لآلهتهم التي اتخذوها من دون الله ، ولذا تتكرر الآيات التي تؤكد على وجود الشفاعة ولكنها تؤكد في الوقت نفسه على أن أمرها بيد الله ، فكيف جعلتموها لآلهتكم المختلقة ؟!

ويتكرر الحديث في القرآن عن أن الشفعاء المزعومين لا يشفعون قال تعالى ﴿ **وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ** ﴾ الأنعام/ ٩٤ ، والمعنى ذاته يتكرر في قوله تعالى ﴿ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ۞ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاء وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ** ﴾ الروم/ ١٢- ١٣ ، وكذلك قال عز وجل ﴿ **أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ** ﴾ يس/٢٣ .

وكحصيلة لما سبق ، نقول لا شك بأن آية الزلفى وآية الشفاعة تحدثتا عن أمر واحد يقوم به المشركون عبر عنه تارة ﴿ **لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** ﴾ وتارة أخرى ﴿ **شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ** ﴾ ، وتجد الوحدة بين الأمرين واضحة في قول ابن الجوزي : " قوله تعالى ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ** ﴾ أي يقولون ما نعبدهم ﴿ **إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** ﴾ أي إلا ليشفعوا لنا إلى الله " [1] ، فاعتبر إن معنى يقربونا : يشفعوا لنا .

(١) زاد المسير ج٧ ص ٤١ .

ولكن الأمر المهم الذي أردنا بيانه هنا ، هل كان الشرك في مجرد اتخاذها وسائط في التقرب وشافعة عنده ، فالعبادة تحققت عندما اعتقدوا بأنها تشفع لهم عند الله كما هو ظاهر أصحاب هذه الرؤية ؟ أم لم يكن الشرك في ذلك وإنما تحقق بعبادتهم لتلك الآلهة ، تلك العبادة المذكورة في القسم الأول من الآيتين أي قوله ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ** ﴾ في الأولى ، وقوله ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ** ﴾ في الثانية ، وقصد بها المعنى الذي وضحه بعض المفسرين بقوله : " ويكون مقصودهم من عبادتها توجيه تلك العبادات إلى أصحاب تلك الصور "(١) ؟

فما نقوله هنا إن الحديث عن شركهم بالله قد اكتمل في قوله تعالى ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ** ﴾ وأما بقية الآية أي قوله تعالى ﴿ **وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ** ﴾ فهو مطلب آخر لا علاقة له بالشرك ، وكذلك قوله تعالى ﴿ **لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** ﴾ هو بيان للعلة الغائية للعبادة ولا علاقة لها بحقيقة العبادة ، فالعبادة حقيقتها متضمنة في كلمة العبادة نفسها التي في قوله تعالى ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ** ﴾ وبمعناها اللغوي عند العرب دون حاجة لإضافة أي توضيح آخر ، وباقي الآية لبيان غاية العبادة وأنها بقصد الحصول على شفاعتها ، وتجد ذلك واضحا في كلمات المفسرين .

فقد روى ابن أبي حاتم أن النضر بن الحارث قال : إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى ، فأنزل الله ﴿ **وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ** ﴾ "(٢) .

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ج١٦ ص ٤٧٠ .

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ج٦ ص ١٩٣٦ .

وقال مقاتل في تفسيره : " قالوا : نعبدها لتشفع لنا يوم القيامة ، فذلك قوله ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ ﴾" [١] .

وقال الطبري : " ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ ﴾ يعني أنهم كانوا يعبدونها رجاء شفاعتها عند الله " [٢] ، لا أن اتخاذ الشفيع هو العبادة .

وعبارة البغوي التالية تفيد أن هناك أمران : الأول عبادة الأوثان والثاني أنها تشفع ، قال : " ومعنى الآية : أتخبرون الله أن له شريكا وعنده شفيعا بغير إذنه " [٣] ، فشريكا شيء وشفعيا بغير إذنه شيء آخر .

قال البيضاوي : " وهذا من فرط جهالتهم حيث تركوا عبادة الموجد الضار النافع إلى عبادة ما يعلم قطعا أنه لا يضر ولا ينفع على توهم أنه ربما يشفع لهم عنده " [٤] ، فمن الواضح أنه يعتبر رؤيتهم للشفاعة غاية تترتب على العبادة لا أنها داخلة في حقيقة العبادة .

وقال الشيخ الطوسي : " وقوله ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ ﴾ إخبار منه تعالى عن هؤلاء الكفار إنهم يقولون إنا نعبد هذه الأصنام لتشفع لنا عند الله ، فتوهموا إن عبادتها أشد في تعظيم الله من قصده تعالى بالعبادة ، فحلت من هذه الجهة محل الشافع عند الله " [٥] .

---

(١) تفسير مقاتل ج٢ ص ٢٣٢ .

(٢) تفسير الطبري ، المجلد السابع ، ج١١ ص ١٢٩ .

(٣) تفسير البغوي ج٢ ص ٢٩٤ .

(٤) تفسير البيضاوي ج١ ص ٤٣١ .

(٥) التبيان في تفسير القرآن ج٥ ص ٣٥٥ .

وقال الطبرسي : " أمر نبيه ﷺ أن يقول لهم على وجه الإلزام أتخبرون الله بما لا يعلم من حسن عبادة الأصنام وكونها شافعة " [1] ، وكلامه واضح في افتراق الأمرين العبادة والشفاعة .

هل يمكن أن تدخل الشفاعة تحت مفهوم العبادة التي بحثت سابقا ؟

المشكلة الأساسية التي تواجه هؤلاء أن معنى العبادة أصبح واضحا ومحددا ، وتردد كما قلنا سابقا أن يقصد به التعبد أوالعمل المتعبد به ، وعليه هل اتخاذ الشفيع إلى الله هو تعبد لغير الله أو هو عمل متعبد به قصد به غير الله .

اعتقد شتان ما بين الكلمتين الشفاعة والتعبد ، ففي التعبد يقصد الإنسان خضوعا خاصا للإله المعبود لا يوجد أثر من هذا القصد عند التوجه للشفيع وطلب الشفاعة منه .

والواضح من ذلك أن الشفاعة ليست من العبادات أي ليست هي من قبيل الصلاة أو الصيام والحج حتى يقال هو عمل متعبد قصد به غير الله .

نعم يتوجه دخوله في بحث الشرك عند طلبه من الشفيع فهذا الطلب دعاء ، ولكنه سيدخل في هذه الحالة في المبحث الثاني أي العبادات وخصوص القسم الثاني أي عبادة الدعاء ، عموما محل نقاشه هناك .

القول بأن طلب الشفاعة هو الموجب للشرك انتقال إلى بحث الدعاء

وعليه لن تجد معنى محصلا لقول ابن تيمية الذي نقل سابقا : " فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك " ، فشركهم كان في عبادتهم للأوثان لا في اعتقادهم بأنها تشفع ، ولا علاقة للشرك بالشفاعة ، فمن أين ربط بين

(١) مجمع البيان ج٣ ص ٩٨ .

الأمرين ؟ وقال : الشفاعة التي فيها شرك ، فحقيقة الشفاعة كما في تعريف ابن تيمية نفسه : " وحقيقته أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود " ، فكيف يمكن أن يصبح الاعتقاد بوجود شفعاء شركا في غير مورد عبادتها وهو الشرك الذي وقع بها المشركون ؟! وهو ما لم يحدث بين المسلمين ولا يمت إلى الشفاعة عند المسلمين ؟!

هذا الذي جر ابن عبدالوهاب أن يتحول بالبحث إلى بحث الدعاء والطلب فقال وهو يتحدث عن ثبوت الشفاعة لرسول الله ﷺ : " إن الله أعطاه الشفاعة ونهاك عن هذا ، فقال ﴿ **فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** ﴾ ... ، فصح أن الملائكة يشفعون والأولياء يشفعون والأفراط يشفعون ، أتقول : إن الله أعطاهم الشفاعة فأطلبها منهم ؟ " [1] .

ويتبين من ذلك أن القول بأن طلب الشفاعة هو الموجب للوقوع في الشرك - وليست هي الطلب المباشر لقضاء الحاجة بل توسيط عند الله - انتقال إلى موضوع دعاء المسألة الذي قيدوه بكون الأمر المسئول والمطلوب مما لا يقدر عليه إلا الله ، واعتقد إن من الواضحات أن الشفاعة هي في مقدور غير الله إلا أن يخص بطلبها من الميت وأنها ليست في مقدور الميت ، وهي مسألة سنناقشها فيما بعد ، المهم أننا هنا نبحث الشفاعة بمعنى أن يسأل الشفيع الله ويدعوه كي يقضي حاجة المستشفع لا طلب قضاء الحاجة من الشفيع على أن يقضيها بنفسه ، أي هي من الأمور التي في مقدور الشفعاء وليست مما لا يقدر عليه إلا الله .

(١) شرح كشف الشبهات ص ٩٣ - ٩٤ .

نعم قد يشكل بوجود تعبير **شفعاء من دون الله** كما في قوله تعالى ﴿ **أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاء** ﴾ الزمر/٤٣ بما يوهم الترادف بين الكلمتين ، ولكن ذكرنا سابقا أنها بتقدير حذف الموصوف فكأن أصلها آلهة شفعاء من دون الله كما هو الحال في كلمة الشهداء في قوله تعالى ﴿ **وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ البقرة/٢٣ فلا شك بأن الشهادة ليست من موجبات الشرك ، ولكن المقصود آلهة شهداء بحذف الموصوف .

والخلاصة أن عقيدة المشركين تتلخص في ضرورة عبادتها لأنه الطريق للتقرب إلى الله ، ولأنها بذلك تصبح شفعاء لنا عند الله ولا يتحقق المطلوب بدون ذلك ، وهذا التبرير يتوافق مع تصوير الأبناء بأنهم ليسوا أربابا وإنما هم فقط آلهة تعبد كما هي الرؤية الوهابية ، ويتلاءم مع الصحيح من أنهم اعتقدوا ربوبية الأبناء المختلقين ؟! فالشفاعة تكون على التصوير الثاني أحد المهام التي تقوم بها فيما أمره خاص بالإله الأكبر ، ولها مهام وإمكانات أخرى كطلب النصرة منها مباشرة فيما تقدر عليه وتستقل به .

ونهاية لا يمكن أن يكون مجرد الاعتقاد بوجود الشفيع هو الموجب للشرك وسببه ، ولذا يجب نقلها إلى التصوير الثاني لمناط الشرك الواقع في العبادة وإلى خصوص بحث الدعاء كعبادة من العبادات المدعى وقوع الشرك بها .

ارتباك ومفارقة بين ابن تيمية والمدرسة الوهابية

قلنا يظهر من كلمات ابن تيمية أن معيار الوقوع في الشرك هو الطلب المباشر من المدعو لقضاء الحاجة التي لا يقدر عليها إلا الله دون طلب الشفاعة منه لذلك ، فقد ميز بين أمرين كما نقلنا سابقا إذ قال : " إحداها : أن يدعو غير الله وهو ميت أو غائب سواء كان من الأنبياء والصالحين أو غيرهم فيقول :

يا سيد فلان أغثني ... أو انصرني على عدوي ... فهذا شرك بهم وإن كان يقع كثير من الناس في بعضه .

الثانية : أن يقال للميت أو الغائب من الأنبياء والصالحين : ادع الله لي أو ادع لنا ربك أو اسأل الله لنا ... ، فهذا أيضا لا يستريب عالم أنه غير جائز وأنه من البدع التي لم يفعلها أحد من سلف الأمة ... " .

وأما ابن عبدالوهاب فيظهر من عباراته أن الشرك في دعاء وطلب الشفاعة عند الله أو الأعم منه ومن الطلب المباشر ، وهذا صريح قوله الذي نقلناه قبل قليل : " إن الله أعطاه الشفاعة ونهاك عن هذا ، فقال ﴿ **فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** ﴾ ... فصح أن الملائكة يشفعون والأولياء يشفعون والأفراط يشفعون ، أتقول : إن الله أعطاهم الشفاعة فأطلبها منهم ؟ " .

وهذا الأخير هو مقتضى النظرية القائمة على افتراض أن المشركين موحدون لله في الربوبية ، إذ ينبغي أن تحمل تلك العبارات على طلب الشفاعة لقضاء الحوائج لا الطلب المباشر من الآلهة ، فتوحيدهم لله في الربوبية يعني أنهم يرون أن الأمور بيد الله وهو الذي يقضي الحاجات وهذه الآلهة لا شأن لها في الخلق والتدبير بل كل ما يطلب منها هو الشفاعة عند الله لقضاء الحاجة ، وعليه حتى لو كان ظاهر كلام الداعي هو الطلب المباشر يجب حمله على طلب الشفاعة وأنه نوع تجوز منه في الإسناد أي أنه في الحقيقة يريد من الشفيع المدعو أن يطلب من الله ويسأله قضاء حاجته لا أن المدعو يقضي الحاجة مباشرة .

لكن المشكلة التي يواجهها هذا الرأي - الذي يرى الشرك في طلب الشفاعة - أنه يقيد الدعاء والطلب الممنوع والشركي بخصوص ما لا يقدر عليه المدعو كما سيأتي ، في حين طلب الشفاعة في مقدور المدعو ، فإذا طلبت من رسول الله أن يشفع فهو قادر عليه وليس هو من قبيل الخوارق وطلب

الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله ، وأما دعوى أنه شرك في خصوص الطلب من الميت فسنبحثه عند الحديث عن الدعاء .

وأما مشكلة من يعتبر الشرك في خصوص الدعاء المباشر من المدعو لقضاء الحاجة - كما هو مقتضى كلام ابن تيمية - عدم تلاؤمه مع تصوير المشركين موحدين في الربوبية ، فكيف يطلب من غير الله - بقصد أن يقضي الحاجة المدعو بنفسه - من يعتقد بأن الأمور كلها بيد الله والآلهة الأخرى لا حول ولا قوة لها بل مجرد موجودات يستجيب الإله الأكبر لشفاعتها .

والخلاصة مشكلة المدرسة الوهابية أن شفاعة المؤمن عند الله في مقدور المؤمن وليست مما لا يقدر عليه إلا الله ، ومشكلة الرأي الذي تبناه ابن تيمية أنه خلاف الفرضية التي قامت عليها نظريتهم وهي اعتبار المشركين موحدين في الربوبية ، فانظر إلى الارتباك ، والحصيلة أن ما عده ابن تيمية بدعة عده هؤلاء الوهابيون شركا .

تجويز الشفاعة إذا طلبت من الله ومنعها إذا طلبت من الشفيع

وحصيلة ما سبق : لوضوح أن الشفاعة حقيقة قبلها القرآن كما بيّنا بل هي من اعتقادات المسلمين عدلت الوهابية عن اعتبارها موجبا للشرك بل لنقل إن عباراتهم السابقة لم تكن دقيقة بل الأدق أن يقال بأن الشرك يتحقق في طلب الحاجة ودعاء الشفيع كي يقضيها لا في مجرد الاعتقاد بالشفاعة وتمنيها وطلبها من الله .

قال ابن عبدالوهاب : " فإذا كانت الشفاعة كلها لله ، ولا تكون إلا من بعد إذنه ولا يشفع النبي ﷺ ولا غيره في أحد حتى يأذن الله فيه ولا يأذن إلا لأهل

التوحيد ، تبين لك أن الشفاعة كلها لله فاطلبها منه ، فأقول : اللهم لا تحرمني شفاعته ، اللهم شفعه فيّ ، وأمثال هذا .

فإن قال : النبي ﷺ أعطي الشفاعة وأنا أطلبه مما أعطاه الله ؟ فالجواب : أن الله أعطاه ونهاك عن هذا فقال ﴿ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ الجن/١٨ "[1] ، فالذي تراه جليا أن ابن عبدالوهاب لم يجد مخرجا من أن يعتبر الأمر الموجب للشرك هو الطلب من الشفيع ودعاؤه .

ويؤكد عدولهم عن تحقق الشرك بمجرد اعتبار الآلهة شفعاء وإن المعيار الذي يؤكدون عليه في كلماتهم هو الدعاء والطلب – أو لنقل العبارات الأدق وليس عدولا – ما تجده في كلمات الجيل اللاحق لابن عبدالوهاب .

قال عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب :

" ونثبت الشفاعة لنبينا محمدا ﷺ ... ونسألها من المالك لها والآذن فيها ... بأن يقول أحدنا متضرعا إلى الله تعالى : اللهم شفع نبينا محمد ﷺ ... أو نحو ذلك مما يطلب من الله لا منهم فلا يقال يا رسول الله أو ولي الله أسألك الشفاعة أو غيرها "[2] .

وكتب مجموعة من علماء مكة وعلماء نجد :

" ونعتقد أن الشفاعة ملك لله وحده ولا تكون إلا لمن أذن الله له ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ ولا يرضى الله إلا عمن اتبع رسله ، فنطلبها من الله مالكها ، فنقول : اللهم شفع فينا نبيك مثلا ، ولا نقول : يا رسول الله اشفع لنا فذلك لم يرد به كتاب ولا سنة ولا عمل سلف ولا صدر ممن يوثق به من

---

(١) شرح كشف الشبهات ص ٩٠- ٩٣ .

(٢) دعاوى المناوئين ص٢٩١ عن الهدية السنية ص ٤٢

المسلمين فنبرأ إلى الله أن يتخذ واسطة تقربنا إلى الله أو تشفع لنا عنده ، فنكون ممن قال الله فيهم وقد أقروا بربوبيته وأشركوا بعبادته ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ** ﴾ " [1] .

ووجه السؤال التالي إلى الشيخ عبدالعزيز بن باز ، هل الوهابية ينكرون شفاعة الرسول عليه الصلاة والسلام ؟ فأجاب :

" لا يخفى على كل عاقل درس سيرة الإمام محمد بن عبدالوهاب وأتباعه أنهم براء من هذا القول ، لأن الإمام – رحمه الله – قد أثبت في مؤلفاته لا سيما في كتابيه (التوحيد) و (كشف الشبهات) شفاعة الرسول ﷺ لأمته يوم القيامة ، ومن هنا يعلم أن الشيخ رحمه الله وأتباعه لا ينكرون شفاعته عليه الصلاة والسلام وشفاعة غيره من الأنبياء والملائكة والمؤمنين بل يثبتونها كما أثبتها الله ورسوله ، ودرج على ذلك سلفنا الصالح عملا بالأدلة من الكتاب والسنة ، وبهذا يتضح أن ما نقل عن الشيخ وأتباعه من إنكار شفاعة النبي ﷺ من أبطل الباطل ومن الصد عن سبيل الله والكذب على الدعاة إليه ، وإنما أنكر الشيخ رحمه الله – وأتباعه طلبها من الأموات ونحوهم ... " [2] .

والحصيلة هنا أن ابن عبدالوهاب وأتباعه لم ينكروا وجود الشفاعة وهو نوع من التوسيط في التقرب إلى الله ولكن الطلب يكون من الله فيدعوه ويقول : " لا تحرمني شفاعته ، شفعه فيّ " ، فلا يكون على نحو الطلب من الشفيع مباشرة وإلا وقع في الشرك ، وأما طلب ذلك من الله فلا إشكال فيه ،

(١) دعاوى المناوئين ص ٢٩٨ عن البيان المفيد ص ٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٠٠ عن مجلة البحوث العلمية العدد ٩ ص ٣٢٣ .

المهم في هذا الكلام وهذا التفصيل إنه رجوع إلى المعيار الثاني للوقوع في شرك العبادة وهو الطلب والدعاء الذي سندرسه في المبحث التالي .

التوسل

وأما الأمر الثالث الذي ذكره ابن تيمية في قوله : " أن يقال : أسألك بفلان أو بجاه فلان عندك ونحو ذلك الذي تقدم عن أبي حنيفة وأبي يوسف وغيرهما أنه منهي عنه ، وتقدم أيضا أنه هذا ليس بمشهور عن الصحابة ... " [١] ، فمن الواضح أن هذا هو ما يعرف في التراث الإسلامي بعنوان التوسل أي أن الطلب من الله ولكن تقسم عليه بمكانة مخلوق كريم عنده .

وعبارة ابن تيمية هنا واضحة في أن الحديث عن التوسل لا يمكن أن يكون إلا حديثا عن السنة والبدعة ، فمع قوله تعالى ﴿ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ المائدة/ ٣٥ وقوله ﷺ: " سلوا الله لي الوسيلة " [٢] ، فلا بد من القبول بأن هناك توسلا بالأعمال الصالحة أو الصالحين – على الأقل في حال حياتهم – كما سيتضح من قبولهم لخبر توسل عمر في الاستسقاء بالعباس عم النبي ﷺ .

والحق أن أصحاب هذه الرؤية يقرون بأن هذا البحث أي بحث التوسل يختلف عن بحث الشرك والتوحيد ولا علاقة له به ، فيعتبرون بعض أنواع التوجه لله من خلال مكانة الأنبياء والأولياء مما ثبت في النصوص فيدخل تحت عنوان السنة وبعضها لم يثبت فيدخل تحت عنوان البدعة ، قال ابن تيمية : " وما زلت أبحث وأكشف ما مكنني من كلام السلف والأئمة والعلماء هل جوز أحد منهم التوسل بالصالحين في الدعاء أو فعل ذلك أحد منهم فما

---

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ١٦٤ – ١٦٨ .

(٢) صحيح مسلم ج١ ص ٢٨٨ – ٢٨٩ .

وجدته ثم وقفت على فتيا للفقيه أبي محمد بن عبدالسلام أفتى بأنه لا يجوز التوسل بغير النبي ﷺ وأما النبي ﷺ فجوز التوسل به إن صح الحديث في ذلك " [١] .

بل تجد الاعتراف بالتوسل في كلمات ابن عبدالوهاب نفسه فينفي أنه يكفر من يتوسل ، قال : " ولكن أنكرنا على من دعا المخلوق أعظم مما يطلب منه تفريج الكربات وإعطاء الرغبات ، فأين هذا ممن يدعو الله مخلصا له الدين لا يدعو مع الله أحدا ، ولكن يقول في دعائه : أسألك بنبيك أو بالمرسلين أو بعبادك الصالحين ، أو غيره يدعو عنده ، لكن لا يدعو إلا الله مخلصا له الدين " [٢] .

ويصرح حمد بن ناصر بجواز التوسل بالحي قائلا : " الذي فعله الصحابة (رض) هو التوسل إلى الله بالأسماء والصفات والتوحيد ، والتوسل بما أمر الله به من الإيمان بالرسول ومحبته وطاعته ونحو ذلك ، وكذلك توسلوا بدعاء النبي ﷺ وشفاعته في حياته ، وتوسلوا بدعاء العباس وبيزيد ... " [٣] .

وصرح عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب بأن التوسل بالميت من البدع لا من الشرك قائلا : " وأما التوسل ، وهو أن يقال : اللهم إني أتوسل إليك بجاه نبيك محمد ﷺ أو بحق نبيك أو بجاه عبادك الصالحين أو بحق عبدك فلان ، فهذا من أقسام البدع المذمومة ولم يرد بذلك نص " وقال أيضا : " وهذا يفعله كثير

(١) دعاوى المناوئين ص ٢٦١ نقلا عن كتاب (الرد على شبهات المستعينين بغير الله) ص ٤٩ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٥٦ نقلا عن (مجموعة مؤلفات الشيخ) ٣/ ٦٨ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٥٦ نقلا عن (الدرر السنية) ج٩ ص١٧ .

من المتأخرين وهو من البدع المحدثة في الإسلام ولكن بعض العلماء يرخص فيه وبعضهم ينهى عنه ويكرهه .. لكنه لا يوصله إلى الشرك الأكبر ..." [(١)] .

ولذا لا حاجة للوقوف طويلا عند عنوان التوسل ، إذ لو ثبت بطلانه في بعض الموراد فلا ينبغي أن يوصف بأكثر من كونه بدعة وليس شركا .

وإليك إعادة للمراتب الثلاث وفقا للترتيبها المذكور عند ابن تيمية وذلك لما فيها من اختصار لما ذكرناه في هذا المبحث :

المرتبة الأولى : عبادة الشفعاء تتحقق بطلب قضاء الحاجة منها وبنفسها

نهاية اعتبر ابن تيمية الطلب المباشر من الشفيع كي يقضي الحاجة بنفسه موجب الشرك وسببه ، فيكون الدعاء بمعنى الطلب المباشر من المعبود من دون الله هو المحقق للشرك وذلك عندما تطلب الحاجة منه مباشرة لا أن يشفع له في ذلك عند الله ، وهي الفرضية التي ذكرها ابن تيمية بقوله : " إحداها : أن يدعو غير الله وهو ميت أو غائب سواء كان من الأنبياء والصالحين أو غيرهم فيقول : يا سيد فلان أغثني ... أو انصرني على عدوي ... فهذا شرك بهم وإن كان يقع كثير من الناس في بعضه " .

ولكن المشكلة المهمة التي تواجهها هذه الفرضية تتلخص بمنافاتها وتعارضها مع تصوير هؤلاء للمشركين بأنهم موحدون في الربوبية ، فكيف يطلبون من غير الله مباشرة مع افتراض اعتقادهم بأن الله هو الخالق المدبر لا هذه الآلهة ؟! ومن يعتقد بأن الأمور بيد الله لن يتعامل مع الموجودات الأخرى التي يدعوها إلا بعنوان شفعاء ووسائط عند الإله الأكبر لقضاء

---

(١) دعاوى المناوئين ص ٢٥٩ ، الفقرة الأولى عن (الدرر السنية) ١ /١٢٩ ، والثانية عن (مجموعة الرسائل والمسائل) ١ / ٦٩ باختصار .

الحاجة ، وسنتعرض بحث الدعاء ودخوله في شرك العبادة بنحو مفصل في المبحث التالي .

المرتبة الثانية : العبادة تتحقق بطلب الشفاعة منها

وهذا الاحتمال الثاني في تقسيم ابن تيمية أي قوله : " أن يقال للميت أو الغائب من الأنبياء والصالحين : ادع الله لي أو ادع لنا ربك أو اسأل الله لنا " ، وهذا أيضا أقر بأنه لا يمكن أن يكون موجبا للوقوع في الشرك بل هو موجب للوقوع في البدعة ، وهو ما يعبر عنه في التراث الإسلامي بطلب الشفاعة من الأولياء عند الله .

وقد بحثنا الأمر ، ولكن نهاية هل يعقل أن يكون محقق الشرك هو طلب الشفاعة من موجود من الموجودات التي لها مكانة عند الله ولو في اعتقاد المستشفع ؟ بمعنى أن يتوجه إلى الشفيع ويطلب منه أن يدعو الله لقضاء حاجته ، فليس طلب الشفاعة بهذا المعنى إلا من قبيل طلب الدعاء من الأخ المؤمن ، ولا شك بجواز طلب الدعاء من الأخ المؤمن فضلا عن عدم إمكان عده شركا ، وعدم الفرق هذا هو الذي يجعل ابن تيمية يبعد عنها فرضية الشرك ، ولكن كما رأيت تجد في كلمات بعض علماء الوهابية أن الشرك يتحقق بمجرد الاستشفاع بموجود ما بمعنى أن تطلب منه الشفاعة ، ولذا فصلنا الحديث عن الشفاعة أكثر .

المرتبة الثالثة : العبادة تتحقق بالتوسل بها عند دعاء الله

وهو الاحتمال الثالث المذكور في كلمة ابن تيمية السابقة أي قوله : " أن يقال : أسألك بفلان أو بجاه فلان عندك " ، فهو حديث عما اصطلح عليه في

التراث الإسلامي بالتوسل ، فهل الأمر الذي حقق الشرك هو التوجه إلى الله والطلب منه متوسلا بالشفعاء والوسطاء أو الإقسام بمكانتهم ؟ فيكون على ضوء ذلك مجرد اتخاذ الشفيع والتوجه إلى الله من خلاله دون المباشرة في ذلك يعني عبادته من دون الله ، فعلى ذلك الشرك في العبادة هو في التوجه إلى الله متوسلين بالوسائط ، وبعبارة أخرى في مجرد عدم التوجه إلى الله مباشرة ، ولكن مثل هذا التوسل أمر مشروع عند المسلمين ، وقد اعترفوا هم بذلك كما رأينا .

المبحث الثاني

الشرك يتحقق بقصد غير الله ببعض العبادات

قلنا إن الصياغة الثانية تقوم على أساس افتراض عبادات محددة قام بها المشركون وقصدوا بها آلهتهم هي التي أوجبت وقوعهم في الشرك وهذه العبادات يدعي أصحاب هذه الرؤية أن المسلمين يقصدون بها الأولياء في الأضرحة فيشركون بالله بذلك كما أشرك من قبلهم من مشركي العرب وغيرهم .

وفي هذا الباب ندرس العبادات التي ادعى أصحاب هذه الرؤية وقوعها من المسلمين في بعض المجتمعات الإسلامية وقصد غير الله بها ، وهي تتركز في الذبح والنذر ونحوهما والدعاء .

ولكن لوجود اختلاف بين خطأهم في أمر الذبح والنذر عن خطأهم في الدعاء نقسم المبحث الثاني إلى قسمين هما بحث الذبح والنذر ونحوهما من العبادات الخاصة والآخر بحث الدعاء كأحد العبادات في تعريف أصحاب هذه الرؤية .

القسم الأول

العبادات التي هي من قبيل الذبح والنذر هي موجب الشرك

الموحد لله في الربوبية يمكن أن يعبد غيره

فوجود شرك في العبادة بمعنى إمكان أن يقيم إنسان طقوسه لا لله بل لموجود آخر فيصلي لغير الله وإن كان يعتقد بخالقية الله وتدبيره لشئون الكون هو مطلب تسالمت عليه أجيال علماء الإسلام بصورته الكلية والنظرية ويتفق عليه جميع المسلمين ، بمعنى أنه مع التحقق والتيقن بأن فعلا ما قصد به غير الله وخضع به لغير الله – وبنفس المعنى الذي يخضع فيه لله – لا شك أنه سيكون عبادة لذلك الغير وشركا بالله ، إذ لا شك بلزوم توحيد الله في العبادة بمعنى عدم جواز قصد غير الله بالخضوع الخاص الذي يتحقق بعبادات معهودة عادة .

وتجد ذلك واضحا فيما رواه الصدوق عن عباس بن يزيد عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال : " قلت : إن هؤلاء العوام يزعمون إن الشرك أخفى من دبيب النمل في الليلة الظلماء على المسح الأسود ، فقال : لا يكون العبد مشركا حتى يصلي لغير الله أو يذبح لغير الله أو يدعو لغير الله عز وجل " [1] .

ويصلي لغير الله ويذبح لغير الله واضح ، وأما يدعو لغير الله ، فلا ينبغي أن يتخيل أنه بمعنى يدعو غير الله ، بل الواضح أن المقصود به يدعو لإله غير الله

---

(١) الخصال ص ١٣٦ – ١٣٧ ، ويزيد بن إسحاق شعر لا توثيق صريح له ، ولكن العلامة المجلسي قال في (الوجيزة) ص ٣٤٢ : " يزيد بن إسحاق شعر فيه مدح عظيم ، وحكم العلامة بصحة الحديث ، والشهيد الثاني بتوثيقه " ، ولكن يبقى إشكال في عباس بن يزيد فالنجاشي وثق شخصا بهذا الاسم ، ولكنه اسم مشترك بين شخصين أحدهما يروي عن الكاظم عليه السلام بواسطة أبيه ، والآخر المذكور هنا ويروي عن الصادق عليه السلام ، وظاهر توثيق النجاشي يتعلق بالأول .

أي بالمعنى الذي استخدمت كلمة تدعونني في قوله تعالى ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ ﴾ غافر/٤٣ ، وبمعناه الإيجابي في قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ فصلت/٣٣ ، وبعبارة أخرى الحديث عن الدعوة إلى معبود ما ، وقد يكون معبودا بحق وقد يكون بباطل .

فلا ينبغي أن نختلف مع أصحاب هذه الرؤية في هذه النقطة ، فمثلا لو صلى أحد وقصد أن تكون صلاته لصاحب القبر بحيث جعله قبلة ومقصودا بالصلاة يركع له ويسجد له يكون مشركا بلا شك ، وشركه ثابت وإن قصد بالعمل السابق التقرب إلى الله ، نعم قد لا يحكم بالكفر إذا احتمل في حقه أنه غير ملتفت إلى التلازم بين عنوان الصلاة وعنوان العبادة إلا بعد إقامة الحجة عليه .

وكذلك يكون مشركا من ذبح ولم يذكر اسم الله بل باسم فلان صاحب القبر وقربة لصاحب القبر كما نذبح نحن لله لا لمجرد التبرك بذكر اسمه ، وأما لو نذر ذبيحة لله وقصد أن يكون ثوابها لوالده أو لأحد الصالحين وذكر اسم الله على الذبيحة وقصد القربة إلى الله ، فهذا ليس من الذبح لغير الله كما قد تجده في كلمات الوهابية .

وتحقق هذا الشرك في خصوص العبادة بمعنى جعل غير الله مقصودا في الخضوع الخاص هو واضح في كلمات كل من ذهب إلى أن مشركي العرب كانوا يوحدون الله في الخالقية والتدبير ، فليست هذه النكتة من اكتشافات ابن تيمية ، فقد ذهب إلى ذلك عدد من العلماء قبل ابن تيمية ، وصرحوا باختصاص شركهم بشرك العبادة مع إيمانهم بأن الله هو الخالق المدبر ، ومن هؤلاء ابن جرير الطبري في تفسيره حيث اعترض على تخصيص مجاهد لقوله

تعالى ﴿ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة/٢٢ بأهل التوراة والإنجيل قائلا :

" وأحسب أن الذي دعا مجاهدا إلى هذا التأويل وإضافة ذلك إلى أنه خطاب لأهل التوراة والإنجيل دون غيرهم الظن منه بالعرب أنها لم تكن تعلم أن الله خالقها ورازقها بجحودها وحدانية ربها وإشراكها معه في العبادة غيره ، وإن ذلك لقول ، ولكن الله جل ثناؤه قد أخبر في كتابه عنها أنها كانت تقر بوحدانيته غير أنها كانت تشرك في عبادته ما كانت تشرك فيها فقال جل ثناؤه ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ... فالذي أولى بتأويل قوله ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ إذ كان ما كان عند العرب من العلم بوحدانية الله وإنه مبدع الخلق وخالقهم ورازقهم ... أن يكون تأويله ما قاله ابن عباس وقتادة من أنه يعني بذلك كل مكلف عالم بوحدانية الله وأنه لا شريك له في خلقه يشرك معه في عبادته غيره "[1] .

فكما ترى هناك من القدماء من يعتقد بأن مشركي قريش كانوا موحدين في الربوبية كما تقول الوهابية ، ويظهر تأييد ذلك من الشيخ الطوسي إذ قال في تفسير الآية السابقة :

" قال ابن عباس : إنه خاطب بقوله ﴿ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ جميع الكفار من عباد الأصنام وأهل الكتابين لأن معنى قوله ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه لا رب لكم يرزقكم غيره وإنما تعبدون ما لا يضر ولا ينفع ، وروي عن مجاهد أنه عنى بذلك أهل الكتابين لأنهم الذين كانوا يعلمون أنه لا خالق لهم غيره ولا منعم عليهم سواه والعرب ما كانت تعتقد وحدانيته تعالى ، والأول

(١) تفسير الطبري ، المجلد الأول ، ج١ ص ٢٣٨ .

أقوى ، لأن الله تعالى قد أخبر أن العرب قد كانت تعتقد وحدانيته تعالى ، فقال تعالى حكاية عنهم ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ " [1] .

شرك العبادة في كلمات الفقهاء

إن كلمات الفقهاء والمفسرين منذ القرون الأولى صريحة بتحقق الشرك في العبادة بمجرد نية الخضوع الخاص لغير الله بأعمال متعبد بها ومن الواضح أن كلماتهم تشمل من يعتقد بأن الله هو الخالق المدبر لا شريك له في ذلك ، بل يعد مشركا لو قصد أن يخضع لغير الله بالخضوع العبادي الخاص في عمل مبتدع من عنده ، فكما قلنا إن المحقق للشرك هو القصد الخاص ، فالعمل في حد ذاته ليس له دخل في تحقق الشرك ما لم ينطلق من نية خاصة او يحمل عنوانا ملازما لعنوان العبادة لا ينفك عنه ، وإليك بيان أكثر لذلك .

الأفعال المتمحضة في العبادية وغير المتمحضة فيها

أحد أهم المرتكزات التي تقوم عليها الرؤية الوهابية هو القول بتحقق الشرك بمجرد قصد غير الله بعبادة ما ، وهو كلام صحيح إذا كان العبادية لازم ذاتي للعمل بحيث لا يمكن التفكيك بين العمل والتعبد وبمعنى آخر لا يقع هذا العمل إلا على نحو التعبد ولا يمكن أن يقع على نحو آخر ، وتوضيح ذلك أنه لا شك أنه لو قال أحد : أنا أعبد هذا الموجود بقصد عبادة الله يكون قد وقع في شرك ، ويشمل الأمر كل مرادف للعبادة مثل التنسك ، بل حتى كلمة الصلاة وكلمة الدعاء إذا استعملت على أنها مرادفات للعبادة والتنسك ،

(١) التبيان في تفسير القرآن ج١ ص ١٠٢ ، ولكنه رأي غير صحيح كما مر .

فمن صلى لغير الله بمعنى عبده أو دعاه بمعنى عبده سنقول إنه أشرك في العبادة ، فكلمة الصلاة يقصد بها هنا العبادة لا العبادة المخصوصة المتكونة من ركوع وسجود ، وهذا المعنى هو الأظهر في قوله تعالى ﴿ **وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً** ﴾ الأنفال/ ٣٥ فالمقصود ما كانت عبادتهم ، باعتبار أنه لم يعهد للمشركين ركوع وسجود ، وهكذا قصد بكلمة الدعاء العبادة في قوله تعالى ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾ غافر/ ٦٠ فادعوني يعني اعبدوني ، بل حتى الركوع والسجود إذا استعملت كنوع كناية عن العبادة كما قد يقال في قوله تعالى ﴿ **يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ** ﴾ آل عمران/ ٤٣ ، ففي مثل هذه الحالات طرحت الكلمة التي يقصد بها أفعال معينة ولكن بمعنى التعبد الذي يلزم معه نية الخضوع الخاص ، وقد ذكر ذلك ابن تيمية في كلمة السجود في قوله تعالى ﴿ **وَلَهُ يَسْجُدُونَ** ﴾ الأعراف/ ٢٠٦ قال : " وقوله ﴿ **وَلَهُ يَسْجُدُونَ** ﴾ فإنه إن سلم أنه يفيد الحصر ، فالقصد منه والله أعلم الفضل بينهم وبين البشر الذين يشركون بربهم ويعبدون غيره ، فأخبرهم أن الملائكة لا تعبد غير الله "[1] ، فعلى هذا كلمة يسجدون قصد بها يعبدون .

إذا اتضح ذلك نقول إضافة إلى ما سبق من كون قصد عنوان العبادة لغير الله هو المحقق للشرك هناك بعض الأعمال التي لا تنفك عن كونها عبادة ، فلا يمكن أن نقبل قول من يقول أنا أصلي لفلان قربة إلى الله ، لأن العبادية من ذاتيات عنوان الصلاة لا تنفك عنه ، فما وقع به شرك في العبادة ، ولكن ليس بالضرورة أن نحكم عليه بذلك إذا لم نحرز التفاته إلى التلازم بين عنوان الصلاة

---

(١) مجموع الفتاوى ج٤ ص ٢٢٠ .

وعنوان التعبد أي إلى أن هذا العمل المتعبد به لا ينفك عن عنوان التعبد ، وكما يقال في الفقه لم يلتفت إلى اللوازم الباطلة لفعله .

وأما إذا كان الحديث عن مجرد الأفعال أو الأعمال المتعبد بها من دون أن يكون هناك تلازم بين عنوان العمل وعنوان التعبد و الخضوع الخاص الذي لا يكون إلا لله ، فهنا العمل في حد ذاته وبدون ملاحظة النية والقصد يحتمل وقوعه على أحد نحوين :

الأول : يقصد به عبادة ، وقد يكون المقصود بالعبادة هو الله فهو من التوحيد ، وقد يقصد به غير الله فيكون شركا ، فما يفعله عبدة الأصنام من السجود لأصنامهم بأن تقصد في الخضوع العبادي الخاص يعد شركا جليا .

الثاني : لا يقصد به العبادة بل يقصد به شيء آخر كالاحترام والتقدير ، فهنا إن كان بأمر الله وبطلب منه عز وجل سيكون العمل احتراما وتقديرا لمن أقيم العمل له ولكن عبادة لله ، ومثاله الواضح السجود ، فقد وقع لآدم عليه السلام ولم يكن شركا وكان كما في بعض الأخبار طاعة لله وإكراما لآدم ، ومثله من يقبل الحجر الأسود بقصد عبادة الله فهو يفعل بعض ما ندب إليه الشرع فليس ذلك عبادة للحجر بل عبادة لله .

والخلاصة يتحقق الشرك بقصد عبادة غير الله بمعنى التعبد لغيره وكذلك الحال لو فرض قصد عنوان آخر لا ينفك عن العبادة كعنوان الصلاة ، ففعل ذلك عمل شركي بمجرد فعله للغير ، ولكن قد لا نحكم بكفر فاعله ما لم نحرز قيام الحجة عليه ورفع الشبه عنه كما قلنا قبل قليل .

وأما إذا لوحظ العمل بمجرده ومن دون أن يكون هناك تلازم بينه وبين عنوان التعبد ، فمجرد فعله للغير لا يمكن أن يعد شركا مع افتراض خلوه من نية

العبادة لذلك الغير ، ولذا كل الفقهاء يناقشون تلك الأفعال والأعمال ضمن الحديث عن البدعة لا الشرك عند افتراض أن الفاعل قصد عبادة الله بتلك الأفعال ، وسنعرض لك أمثلة ذلك .

العبادات والطاعات والقربات

بل تجد لعلماء الإسلام جهدا واضحا في التفريق بين عناوين ثلاثة يمكن أن تتداخل هي العبادة والقربة والطاعة ، ففي حاشية الطحاوي على مراقي الفلاح يقول : " والعبادة مطلق الطاعات ، وفرق شيخ الإسلام بين العبادة والطاعة والقربة .

فالأولى : ما تتوقف على معرفة المعبود مع النية .

والثانية : امتثال الأمر والنهي عرف الآمر والناهي أم لم يعرف .

والثالثة : ما تتوقف على معرفة المتقرب إليه وإن لم تتوقف على نية كالعتق .

فأخصها العبادة وأعمها الطاعة " [1] .

وكذلك حرص أبو البقاء على عدم الخلط بين هذه العناوين الثلاثة فميز بينها في كلياته قائلا : " **والطاعة** : هي الموافقة لأمر أعم من العبادة لأن العبادة غلب استعمالها في تعظيم الله غاية التعظيم ، والطاعة تستعمل لموافقة أمر الله وأمر غيره والعبادة تعظيم يقصد به النفع بعد الموت ، والخدمة : تعظيم يقصد به النفع قبل الموت .

والعبودية : إظهار التذلل والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ، والطاعة فعل المأمورات ولو ندبا وترك المنهيات ولو كراهة فقضاء الدين والإنفاق على الزوجة والمحارم ونحو ذلك طاعة لله وليس بعبادة ، وتجوز الطاعة لغير الله في غير المعصية ولا تجوز العبادة لغير الله تعالى .

---

(١) حاشية الطحاوي على مراقي الفلاح ج١ ص ٥ .

والقربة : أخص من الطاعة لاعتبار معرفة المتقرب إليه فيها ، والعبادة أخص منهما لأنه يعتبر فيها النية "[1] .

قال الفاضل الهندي وهو من كبار فقهاء الإمامية : " وأقسام الملتزم ثلاثة :

الأول : كل عبادة مقصوده للشارع كالصلاة والصوم والحج والهدي والصدقة والعتق ...

الثاني : القربات غير العبادات كعيادة المريض وإفشاء السلام وزيارة القادم فهذه قربات وليست عبادات فإن العبادة أقصى غاية الخضوع له سبحانه ...

الثالث : المباحات كالأكل والشرب "[2] .

قال الشيخ السبحاني معلقا على تعريف ابن تيمية : " وهذا الكاتب لم يفرق - في الحقيقة- بين العبادة وبين التقرب وتصور أن كل عمل يوجب القربى إلى الله عبادة له تعالى أيضا ، في حين أن الأمر ليس كذلك ، فهناك أمور توجب رضا الله وتستوجب ثوابه قد تكون عبادة كالصوم والصلاة والحج ، وقد تكون موجبة للقربى إليه دون أن تعد عبادة كالإحسان إلى الوالدين وإعطاء الزكاة والخمس فكل هذه الأمور - الأخيرة - توجب القربى إلى الله في حين لا تكون عبادة وإن سميت في مصطلح أهل الحديث عبادة فيراد منها كونها نظير العبادة في ترتب الثواب عليها .

وبعبارة أخرى إن الإتيان بهذه الأعمال يعد طاعة ولكن ليس كل طاعة عبادة ، وإن شئت قلت : إن هناك أمورا عبادية وأمورا قربية وكل عبادة مقرب وليس كل مقرب عبادة ، فدعوة الفقير إلى الطعام والعطف على اليتيم مثلا

---

(١) الكليات ص ٥٨٣ .

(٢) كشف اللثام ج٩ ص ٨٢ .

توجب القرب ، ولكنها ليست عبادة ، بمعنى أن يكون الآتي بها عابدا بعمله لله تعالى " [١] .

والمهم أننا لا نريد القول بأن كلمة العبادة لا تطلق على القربات أحيانا ، ولكن كما قال الشيخ السبحاني : " وإن سميت في مصطلح أهل الحديث عبادة، فيراد منها كونها نظير العبادة في ترتب الثواب عليها " لا أنها حقيقة عبادة .

وهكذا تجد الشيخ المشكيني يسمي مطلق القربات عبادة بالمعنى الأعم مميزا بينها وبين العبادة بالمعنى الأخص : " إنها تنقسم إلى عبادة بالمعنى الأخص وعبادة بالمعنى الأعم ، والأول : ما تعلق به أمر المولى مع كون قصد التقرب مأخوذا فيه شطرا أو شرطا بحيث لو لم يتحقق في مقام العمل كان فاسدا باطلا ... والثاني : العمل القابل لأن يؤتى به بقصد التقرب مع قصده " [٢] .

توضيح أكثر للفروق

وعليه إنما يقال هذا العمل كالإنفاق الواجب على الزوجة طاعة وليست عبادة لأنه لا يشترط في صحتها نية القربة كما هو الحال في الصلاة بمعنى لو فعل الواجب تخلصا من كلام الناس لا يبطل إنفاقه خلافا للصلاة فلو صلى رئاء بطلت صلاته .

وتلك الطاعة التي يجوز أن تفعل بدون القربة لو نوى بها التقرب من الله له أجر على ذلك ولكنها مع ذلك لا تعد عبادة في الاصطلاح الخاص وإن سميت قربة .

(١) التوحيد والشرك في القرآن الكريم ص ٩٨ ، ويقصد بإعطاء الزكاة والخمس إيصاله للفقير لا مجرد إخراجه

(٢) مصطلحات الفقه ص ٣٦٦ .

ونهاية لا تكون نية القربة إلا لله ، فإذا كان العمل المتقرب به عبادة فلا يصح وتبطل بدون نية القربة ، وإذا نوى به التقرب إلى غير الله أشرك ، فلو نوى أمرا آخر ليس من قبيل عبادة الغير كالرياء بطل دون أن يعد مشركا ، وأما غيرها من الطاعات فقد يقصد بها الإنسان وجوها أخرى ولا يوجب ذلك بطلانها كما لو قام المسئول بمهامه تقربا للحاكم لا لله ، فلا يعد هذا شركا ، لكن لا أجر عليها إلا إذا نوي بها القربة إلى الله ، فإذا نوى التقرب بها إلى الله تصبح قربة لا مجرد طاعة ، والطاعة تكون لغير الله كطاعة الوالدين وطاعة الأمير ولكن وفق قاعدة لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

ولذا ما يهمنا هو تحديد العمل العبادي أو العمل المتعبد به الذي إذا فعله المكلف عامدا عالما بقصد القربة والخضوع لغير الله أصبح مشركا .

فمن العرض السابق لا يمكن أن نعتبر المشرك إلا من قام بعمل متعبد به قاصدا أن يخضع بالخضوع الخاص لغير الله ، وهذا يشمل الخضوع بعمل عبادي متسالم على عباديته مثل الصلاة أو بعمل ابتدعه من عنده كالجلوس أمام الغير صامتا بقصد الخضوع الخاص والعبادة ، والخلاصة أن الشرك في العبادة يتحقق بالقيام بالفعل المتعبد به أو المبتدع بقصد التذلل العبادي إلى غير الله ، وهذا الأمر أي كونهم قصدوا آلهة من دون الله هو الذي أوجب شرك من تحدث عنهم في قوله تعالى ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ** ﴾ ، ولا يمنع من الحكم بكفرهم وشركهم كونهم عبدوها تقربا إلى الله ، كما لا يمنعنا من الحكم بشرك من قصد أن يخضع بالخضوع العبادي الخاص لنبي ما فقصده في العبادة أو صلى له وقصده في صلاته فهو مشرك وإن

ادعى أنه يفعل ذلك قربة إلى الله ، نعم قد يكون في الصورة الثانية جاهلا غير ملتفت للتلازم بين عنوان الصلاة والعبادة ، فيجب رفع جهله وإقامة الحجة عليه .

العبادات التي يمكن أن يقصد بها غير الله

١- الصلاة

فلا شك بأن من يقصد بالصلاة - أي الركوع والسجود المتعبد به - التعبد لغير الله مشرك شرك عبادة ، كل ذلك باعتبار أنها متمحضة للعبادة بمعنى أنها أفعال لا يمكن أن تقع إلا على وجه واحد هو العبادة ، فهذا يعني أن مجرد فعلها للغير وقصد الغير شرك وإن قصد بذلك التقرب إلى الله ، ولكن لا يحكم بالكفر لمجرد ذلك كما قلنا لاحتمال عدم التفاته للتلازم بين عنوان الصلاة وعنوان العبادة .

وأما مجرد جعل موجود ما قبلة في الصلاة مع أن القصد عبادة الله ، فلا يقصد عبادة ذلك الموجود ولا يقصد أن يكون العمل له بل جعله مجرد قبلة كما نجعل نحن المسلمين الكعبة قبلة ، فهذا أمر يختلف عما سبق ، فمجرد اتخاذه لذلك الموجود قبلة لا يعني أن صلاته لذلك المخلوق ، فلا يعد شركا ما لم يقصد الخضوع العبادي الخاص بالله لذلك المخلوق ، وعليه قد يكون لنفس الفعل ظاهر يوافق ظاهر ما عند المشركين ومع ذلك لا نحكم بأن ما يحدث أو الواقع شرك .

ويدل على ذلك شروح العلماء للحديث المروي في الصحيحين عن عائشة عنه ﷺ : " لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مسجدا ، قالت :

ولولا ذلك لأبرزوا قبره غير أني أخشى أن يتخذ مسجدا " [1] ، فلم يعتبر أحد منهم مجرد اتخاذها مسجدا شركاً وعبادة لصاحب القبر .

فانظر إلى التمييز الجيد في الكلمات التي نقلها المباركفوري في شرحه على سنن الترمذي : " لما أعلمه الله بقرب أجله فخشي أن يفعل بعض أمته بقبره الشريف ما فعلته اليهود والنصارى بقبور أنبيائهم فنهى عن ذلك ، قال التوربشتي هو مخرج على وجهين : أحدهما : كانوا يسجدون لقبور الأنبياء تعظيما لهم وقصد العبادة في ذلك .

وثانيهما : أنهم كانوا يتحرون الصلاة في مدافن الأنبياء والتوجه إلى قبورهم في حالة الصلاة والعبادة لله نظرا منهم أن ذلك الصنيع أعظم موقعا عند الله لاشتماله على الأمرين : العبادة والمبالغة في تعظيم الأنبياء ، وكلا الطريقين غير مرضية .

وأما الأول فشرك جلي ، وأما الثاني فلما فيها من معنى الإشراك بالله عز وجل وإن كان خفيا ، والدليل على ذم الوجهين قوله ﷺ : اللهم لا تجعل قبري وثنا ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، والوجه الأول أظهر وأشبه كذا قال التوربشتي ، وبذلك صرح النووي ، وقال التوربشتي : وأما إذا وجد بقربها موضع نبي للصلاة أو مكان يسلم فيه المصلي عن التوجه إلى القبور فإنه في منحة من الأمر ، وكذلك إذا صلى في موضع قد اشتهر بأن فيه مدفن نبي لم ير للقبر فيه علما ولم يكن تهده ما ذكرناه من العمل المتلبس بالشرك الخفي .

---

(١) صحيح البخاري ج٢ ص ١١١ ، صحيح مسلم ج١ ص ٣٧٦ .

وفي شرح الشيخ مثله حيث قال : وخرج بذلك اتخاذ مسجد بجوار نبي أو صالح والصلاة عند قبره لا لتعظيمه والتوجه نحوه بل لحصول مدد منه حتى يكمل عبادته ببركة مجاورته لتلك الروح الطاهرة ، فلا حرج في ذلك لما ورد أن قبر إسماعيل عليه السلام في الحجر تحت الميزاب وأن في الحطيم بين الحجر الأسود وزمزم قبر سبعين نبيا ، ولم ينه أحد عن الصلاة فيه انتهى ، وكلام الشارحين مطابق في ذلك " [1] .

والشاهد أن القائل لم يعتبر أن الشرك تحقق بمجرد التوجه للقبر ، فمع افتراض أنهم توجهوا لقبور الأنبياء في صلاتهم لم يحكم بأنه شرك واضح جلي كما لو قصدوا عبادة صاحب القبر بل قصدوا عبادة الله متوجهين إلى القبور ، والتوربشتي حمل اللعن في الرواية على العبادة الحقيقية .

ولكن آخرين حملوا لعن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على من قام بذلك على نحو الوجه الثاني حذرا من أن يجر إلى الوجه الأول الذي هو شرك جلي ، والمهم أنهم أجمعوا على أن الشرك لا يتحقق بمجرد اتخاذ قبور الأنبياء مساجد ، بل مدح العديد منهم الصلاة إلى جوار قبورهم عليهم السلام إذا لم يتضمن أحد الوجهين المبغوضين في الشرع كما رأيت في كلمات التوربشتي نفسه .

وتجد العظيم آبادي في شرح الحديث لا يذكر احتمال عبادة القبر بل يقتصر على احتمالين عند شرح الحديث السابق قال : " (مساجد) أي قبلة يصلون إليها أو بنوا مساجد عليها يصلون فيها ، وإلى الثاني يميل كلام المصنف حيث ذكره في باب البناء على القبر " [2] ، فيصرح بأن أبا داود صاحب السنن حمل

---

(١) تحفة الأحوذي ج٢ ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٢) عون المعبود ج٩ ص ٣٤ .

الخبر على مجرد كراهة بناء المسجد على القبر ، فلم يحمل الحديث على أنه حديث عن الشرك .

قال العيني : " وإنما كان يحذرهم من ذلك الصنيع لئلا يفعل بقبره مثله ، ولعل الحكمة فيه أنه يصير بالتدريج شبيها بعبادة الأصنام " (١) ، فانظر إلى عبارته يصير بالتدريج كذلك لا أنه في نفسه كذلك !

ونحو ذلك قال ابن حجر : " الوعيد على ذلك يتناول من اتخذ قبورهم مساجد تعظيما ومغالاة كما صنع أهل الجاهلية وجرهم ذلك إلى عبادتهم ... " ، وقال تعليقا على ما روي عنه ﷺ : (أولئك إذا كان فيه الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه) : " وإنما فعل ذلك أوائلهم ليتأنسوا برؤية تلك الصور ويتذكروا أحوالهم الصالحة فيجتهدوا كاجتهادهم ، ثم خلف من بعدهم خلوف جهلوا مرادهم ووسوس لهم الشيطان أن أسلافكم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها فعبدوها ، فحذر النبي ﷺ عن مثل ذلك سدا للذريعة المؤدية إلى ذلك " .

قال البيضاوي : " لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيما لشأنهم ويجعلونها قبلة يتوجهون في الصلاة نحوها واتخذوها أوثانا لعنهم ومنع المسلمين عن مثل ذلك ، فأما من اتخذ مسجدا في جوار صالح وقصد التبرك بالقرب منه لا التعظيم له ولا التوجه نحوه فلا يدخل في ذلك الوعيد " (٢) ، وظاهر عبارة البيضاوي أنها حديث - بالنسبة إلى اليهود - عن وصول الأمر عندهم إلى الشرك بقصد صاحب القبر بالعمل الذي لا ينفك عن كونه عبادة .

---

(١) عمدة القاري ج٣ ص ٤٥٥ .

(٢) فتح الباري ج١ ص ٥٢٤ - ٥٢٥ .

قال القاضي عياض : " وتغليظ النبي ﷺ في النهي عن اتخاذ قبره مسجدا لما خشيه من تفاقم الأمر وخروجه عن حد المبرة إلى المنكر وقطعا للذريعة ... ويدل على صحة هذا المعنى قوله في الحديث الآخر (اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) ولهذا لما احتاج المسلمون إلى الزيادة في مسجده ﷺ لتكاثرهم بالمدينة وامتدت الزيادة إلى أن أدخل فيها بيوت أزواجه ومنها بيت عائشة الذي دفن فيه - عليه السلام - وذلك في أيام عثمان بنى على قبره حيطانا أحدقت به لئلا يظهر في المسجد فيقع الناس فيما نهاهم عنه من اتخاذ قبره مسجدا ، ثم إن أئمة المسلمين حذروا أن يتخذ موضع قبره قبلة ، إذا كان مستقبل المصلين فتتصور الصلاة إليه صورة العبادة له ، ويحذر أن يقع في نفوس الجهلة من ذلك شيء فرأوا بناء جدارين من ركني القبر الشماليين حرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال حتى لا يمكن أحد استقبال موضع القبر عند صلاته ، ولهذا قال في الحديث : ولولا ذلك أبرز قبره - عليه السلام - غير أنه خشى أن يتخذ مسجدا " [1] .

هذه العبارات كلها ظاهرة في الحديث عن الشرك إن قصد عبادة صاحب القبر ، والحرمة أو الكراهة إن توجه المصلي للقبر في الصلاة وقصد الله في العبادة ، وفسرها البعض بأن المقصود النهي عن الصلاة على القبر وحكم بحرمة ذلك أو كراهته ، والبعض على بناء المسجد الذي يصلى فيه جماعة على القبر وبحيث كان التوجه لجهة القبر في الصلاة .

---

(١) إكمال المعلم ج٢ ص ٤٥٢ -٤٥٤ .

ومن تحدث عن الشرك تحدث عن خوف أن يؤول الأمر إلى الشرك واتخاذ القبر وثنا يعبد ، كما هو صريح الخبر الذي ذكره القاضي عياض (اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد) ، فلو صح الخبر [1] فالمقصود منه التنبيه على خطر الشرك الذي يمكن أن يتحول إليه الأمر عند اتخاذ قبر النبي مسجدا لا أن مجرد اتخاذ قبور الأنبياء مساجد هو شرك في نفسه .

وهكذا ينقل المناوي عبارات القاضي الذي يتحدث عن بلوغها حد الشرك بقصد صاحب القبر بالصلاة والعبادة : " قال القاضي : لما كانت اليهود يسجدون لقبور الأنبياء تعظيما لشأنهم ويجعلونها قبلة ويتوجهون في الصلاة نحوها ، فاتخذوها أوثانا لعنهم الله ومنع المسلمين عن مثل ذلك ونهاهم عنه ، أما من اتخذ مسجدا بجوار صالح أو صلى في مقبرته وقصد به الاستظهار بروحه أو وصول أثر من آثار عبادته إليه لا التعظيم له والتوجه نحوه فلا حرج عليه ، ألا ترى أن مدفن إسماعيل في المسجد الحرام عند الحطيم ؟ ... ... وظاهره أنها

---

(١) الخبر رواه مرسلا مالك في الموطأ ج١ ص ١٧٢ ، وروي بسند لا بأس به في مسند الحميدي ج٢ ص٤٤٥ ومسند أبي يعلى ج١٢ ص٣٤ ومسند أحمد ج١٢ ص ٣١٤ عن أبي هريرة ، ولكن اعتقد أنها خطأ أو سوء حفظ سهيل لرواية (لا تتخذوا قبري عيدا) قال عنه ابن حجر في (تقريب التهذيب) ج١ ص ٤٠١ : " تغير حفظه بآخره روى له البخاري مقرونا وتعليقا " ، عموما هي زيادة على حديث (لعن الله اليهود والنصاري اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) لا ينبغي أن تقبل من مثله .

وأما ما قاله ابن عبدالبر في (التمهيد) ج٢ ص ٤٧٠ : " وقد أسند حديث هذا عمر بن محمد وهو من ثقات أشراف المدينة ... وهو عمر بن محمد بن عبدالله بن عمر بن الخطاب (رض) فهذا الحديث صحيح عند من قال بمراسيل الثقات وعند من قال بالمسند لاسناد عمر بن محمد له وهو ممن تقبل زيادته " فخطأ وقع فيه ابن عبدالبر نبه عليه الألباني في كتابه (تحذير الساجد) ص ٢٤ قائلا : " وفيما قاله ابن عبدالبر في عمر هذا نظر ، فقد قال الحافظ ابن رجب في (الفتح) أخرجه من طريق البزار وعمر هذا هو ابن صهبان جاء منسوبا في بعض نسخ البزار ، وظن ابن عبدالبر أنه عمر بن محمد العمري ، والظاهر أنه وهم " ، قال ابن حجر في (التقريب) ج١ ص٧٢٠ : " عمر بن صهبان ... ضعيف من الثامنة "

كراهة تحريم ، لكن المشهور عند الشافعية أنها كراهة تنزيه فيحمل ما تقرر عن القاضي على ما إذا لم يخف ذلك " [١] ، فمن الواضح أنه يقول لا بأس بالأمر إذا أمن المحذور ، وحمل الشافعية للنهي على التنزيه دون التحريم دليل واضح على الحديث في الخبر عن مجرد اتخاذ القبور مساجد ليس حديثا عن الشرك وإلا لا يمكن لأحد أن يفتي بأن النهي عن الشرك كراهة تنزيه وليس كراهة تحريم .

بل تجد هذا البحث والخلاف في الخبر قد جرى بين فقهاء الشيعة ، فقد نقل الصدوق عن النبي ﷺ مرسلا : " وقال النبي ﷺ : لا تتخذوا قبري قبلة ولا مسجدا فإن الله عز وجل لعن اليهود حيث اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " [٢] .

ورواه بسند حسن عن الباقر عليه السلام قال الصدوق : " حدثنا محمد بن موسى بن المتوكل قال حدثنا علي بن إبراهيم عن أبيه عن حماد عن حريز عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام: قال : قلت له : الصلاة بين القبور ، قال : صل في خلالها ولا تتخذ شيئا منها قبلة ، فإن رسول الله ﷺ نهى عن ذلك ، وقال : ولا تتخذوا قبري قبلة ولا مسجدا فإن الله تعالى لعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " [٣] .

لذا أفتى الشيخ الطوسي بكراهة الصلاة في المقبرة ، فقال : " وروت عائشة وعبدالله بن عباس قالا : لما حضرت رسول الله ﷺ الوفاة كشف وجهه ، وقال : لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ... ، ويقوي ما قلناه من أن ذلك وإن كان مكروها فإن الصلاة ماضية ما رواه أبو ذر ... " [٤] .

---

(١) فيض القدير ج٤ ص ٥٩١ .

(٢) من لا يحضره الفقيه ج١ ص ١١٤ .

(٣) علل الشرائع ج٢ ص ٥٦ .

(٤) الخلاف ج١ ص ٤٩٦ .

وقال العلامة الحلي : " تكره الصلاة إلى القبور وأن يتخذ مسجدا يسجد عليه ، وقال : ابن بابويه : لا يجوز فيها وهو قول بعض الجمهور ، لنا على الجواز الأصل ... وعلى الكراهية ما رواه الجمهور ... وعن عائشة وعبدالله بن عباس قالا : لما حضرت رسول الله ﷺ الوفاة كشف عن وجهه وقال : لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ... والجواب إن ذلك محمول على الكراهية إذ القصد بذلك النهي عن التشبه بمن تقدمنا في تعظيم القبور بحيث تتخذ مساجد ، ومن صلى لا لذلك لم يكن قد فعل محرما ، إذ لا يلزم من المساواة التحريم كالسجود لله تعالى المساوي لسجود للصنم في الصورة " (١) .

ولكن ظاهر الشهيد الأول مخالفة ذلك إذ علق على الخبر السابق بقوله : " هذه الأخبار رواها الصدوق والشيخان وجماعة المتأخرين في كتبهم ولم يستثنوا قبرا ، ولا ريب أن الإمامية مطبقة على مخالفة قضيتين من هذه : إحداهما البناء ، والأخرى الصلاة في المشاهد المقدسة ، فيمكن القدح في هذه الأخبار لأنها آحاد ، وبعضها ضعيف السند وقد عارضها أخبار أشهر منها ... وبالأخبار على تعظيم قبورهم وعمارتها وأفضلية الصلاة عندها ... والأخبار في ذلك كثيرة ومع ذلك فقبر رسول الله ﷺ مبني عليه في أكثر الأعصار ولم ينقل عن أحد من السلف إنكاره بل جعلوه أنسب لتعظيمه ، وأما اتخاذ القبور مسجدا ، فقد قيل هو لمن يصلي فيه جماعة أما فرادى فلا " (٢) .

---

(١) منتهى المطلب ج٤ ص ٣١٦ .

(٢) الذكرى ج٢ ص٣٧ .

وقال الإمام الخميني : " ولعل أمره بهدم القبور لأجل تعظيم الناس إياها بنحو العبادة للأصنام وكانوا يسجدون عليها كما يشعر به بعض الروايات الناهية عن اتخاذ قبر النبي ﷺ قبلة ومسجدا "(١) .

فمن الواضح أن العديد من علماء الشيعة حكموا بالكراهة كالشافعي ، واتجهت كلماتهم في تفسير لعن اليهود لاتخاذهم قبور الأنبياء مساجد باعتبار أنها جرّت اليهود إلى اعتبار قبور الأنبياء مثل الكعبة في الصلاة ، والبعض أفتى بالكراهة وفهم أن النصوص أرادت أن تبين كراهة هذا الفعل وهو جعل القبر بينك وبين القبلة معللة ذلك بما حدث عن الأمم السابقة إذ تحول عندهم بالتدريج إلى أن يقصدوا القبر بدل القبلة التي أمروا بها ، كما هو الحال في الخبر الذي ذكر مبدأ الشرك عند قوم نوح عليه السلام والمروي عند الطرفين .

وجلهم خص الكراهة باستقبال القبر في الصلاة وعند التوجه للقبلة لا مطلق الصلاة عند قبر نبي أو ولي بل كما قال العديد من علماء السنة : " فأما من اتخذ مسجدا في جوار صالح وقصد التبرك بالقرب منه لا التعظيم له ولا التوجه نحوه فلا يدخل في ذلك الوعيد " ، وهو ما نبه عليه الشهيد الأول بتقديم الأخبار التي تأمر بزيارتهم عليهم السلام وتعظيم قبورهم بقوله : " وقد عارضها أخبار أشهر منها ... على تعظيم قبوروهم وعمارتها وأفضلية الصلاة عندها " .

٢- السجود

يخطئ من يقول إن السجود فعل متمحض في العبادة ولا يقع إلا على وجه العبادة ، لأنه كلام يخالف ظاهر آيات القرآن التي سيأتي ذكرها ، والمقدار المسلم

---

(١) المكاسب المحرمة ج١ ص ١٧٠ .

هو اختصاص جوازه بالأمم السابقة وحرمة فعله لغير الله في الأمة الخاتمة ، وتجد الحديث عن الأمر واسعا عندما يتطرق العلماء لسجود الملائكة لآدم عليه السلام وتفسير قوله ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ ﴾ البقرة/٣٤ ، وتبعا له ما صرح به القرآن من سجود يعقوب ليوسف عليهما السلام في قوله تعالى ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا ﴾ يوسف/١٠٠ ، وفي الوقت نفسه من الواضح أن السجود من الأعمال العبادية التي نتعبد بها الله ، فما الذي يفرق بين السجودين - أي السجود لله والسجود لآدم – مع أنهما من حيث المظهر الخارجي واحد في الحالتين ، لا تجد فارقا غير القصد والنية ، ففي الحالة الأولى كانت بنية الخضوع العبادي الخاص والثاني لم تكن كذلك وإنما كانت طاعة لله كما صرح بذلك جل علماء الإسلام .

قال الطبري : " وكان سجود الملائكة تكرمة لآدم وطاعة لله لا عبادة لآدم كما حدثنا به بشر ... عن قتادة قوله ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ ﴾ فكانت الطاعة لله والسجدة لآدم ، أكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته " (١) .

قال البغوي : " الأصح أن السجود كان لآدم على الحقيقة ، وتضمن معنى الطاعة لله عز وجل امتثال أمره ، وكان ذلك سجود تعظيم وتحية لا سجود عبادة كسجود أخوة يوسف له في قوله عز وجل ﴿ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا ﴾يوسف/١٠٠ ولم يكن فيه وضع الوجه على الأرض إنما كان انحناء ... ، وقيل معنى قوله ﴿ اسْجُدُواْ لآدَمَ ﴾ أي إلى آدم فكان آدم قبلة والسجود لله تعالى كما جعلت الكعبة قبلة للصلاة والصلاة لله عز وجل " (٢) .

---

(١) تفسير الطبري ج١ ص ٣٢٧ ، رواه ابن أبي حاتم عن قتادة عن ابن عباس ، ج١ ص ٨٤ .

(٢) تفسير البغوي ج١ ص ٣٣ .

قال القرطبي : " واختلف الناس في كيفية سجود الملائكة لآدم بعد اتفاقهم على أنه لم يكن سجود عبادة ، فقال الجمهور : كان هذا أمرا للملائكة بوضع الجباه على الأرض كالسجود المعتاد في الصلاة ...

واختلف أيضا هل كان ذلك السجود خاصا بآدم عليه السلام فلا يجوز السجود لغيره من جميع العالم إلا لله تعالى أم كان جائزا بعده إلى زمان يعقوب عليه السلام لقوله تعالى ﴿ **وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا** ﴾ فكان آخر ما أبيح من السجود للمخلوقين ؟ والذي عليه الأكثر أنه كان مباحا إلى عصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأن أصحابه قالوا له حين سجدت له الشجرة والجمل : نحن أولى بالسجود لك من الشجرة والجمل الشارد ، فقال لهم : لا ينبغي أن يسجد لأحد إلا لله رب العالمين " [١] .

قال ابن كثير : " قال بعض الناس : كان هذا سجود تحية وسلام وإكراما قال تعالى ﴿ **وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا** ... ﴾ ، وقد كان هذا مشروعا في الأمم الماضية ولكنه نسخ في ملتنا ... وقال بعضهم : بل كانت السجدة لله وآدم قبلة فيها كما قال تعالى ﴿ **أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ** ﴾ وفي هذا التنظير نظر ، والأظهر أن القول الأول أولى والسجدة لآدم إكراما وإعظاما واحتراما وسلاما ، وهي طاعة لله عز وجل لأنها امتثال أمره تعالى " [٢] .

وفي مصادر أهل البيت عليهم السلام روي في تفسير القمي عن محمد بن عيسى أن يحيى بن أكثم سأل موسى بن محمد بن علي بن موسى مسائل ، فعرضها على أبي الحسن عليه السلام ، وكان أحدها : أخبرني عن قول الله عز وجل ﴿ **وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا** ﴾ أسجد يعقوب وولده ليوسف وهم أنبياء ؟

(١) الجامع لأحكام القرآن ج١ ص ٢٧٦- ٢٧٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ج١ ص ٨١ .

فأجاب أبو الحسن عليه السلام : أما سجود يعقوب وولده ليوسف فإنه لم يكن ليوسف وإنما كان ذلك من يعقوب وولده طاعة لله وتحية ليوسف كما كان السجود من الملائكة لآدم ولم يكن لآدم ، وإنما كان ذلك منهم طاعة لله وتحية لآدم ، فسجد يعقوب وولده " [1].

وفي تفسير العياشي عن ابن أبي عمير عن بعض أصحابنا عن أبي عبدالله عليه السلام ... ، وفي قوله ﴿ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا ﴾ قال : كان سجودهم ذلك عبادة الله " [2].

وفي الاحتجاج في قصة اليهودي الشامي : " قال اليهودي : هذا آدم عليه السلام أسجد الله له ملائكته فهل فعل محمد شيئا من هذا ؟ فقال له علي عليه السلام : قد كان كذلك ولئن أسجد الله لآدم ملائكته فإن سجودهم له لم يكن سجود طاعة أنهم عبدوا آدم من دون الله عز وجل ، ولكن اعترافا بالفضيلة ورحمة من الله له " [3].

قال الشيخ الطوسي : " واختلفوا في أمر الملائكة والسجود لآدم على وجهين ، قال قوم : إنه أمرهم بالسجود له تكرمة وتعظيما لشأنه – وهو المروي في تفسيرنا وأخبارنا – وهو قول قتادة وجماعة من أهل العلم واختاره ابن الإخشيد والرماني وجرى ذلك مجرى قوله ﴿ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا ﴾ في أولاد يعقوب ... وقال الجبائي والبلخي وجماعة أنه جعله قبلة لهم فأمرهم بالسجود إلى قبلتهم ، وفيه ضرب من التعظيم له ، وهذا ضعيف " [4].

---

(١) تفسير القمي ج١ ص ٣٥٦ ، وروى نحوه العياشي ج٢ ص ١٩٧ .

(٢) تفسير العياشي ج٢ ص ص ١٩٧ .

(٣) الاحتجاج ج١ ص ٤٩٨ -٤٩٩ .

(٤) التبيان في تفسير القرآن ج١ ص ١٥٠ .

وهكذا صرح الفيض الكاشاني بأن السجود كان لله سبحانه عبودية ، ولآدم طاعة [(١)] .

وقال السيد الطباطبائي : " وقوله تعالى ﴿ **اسْجُدُواْ لآدَمَ** ﴾ يستفاد منه جواز السجود لغير الله في الجملة إذا كان تحية وتكرمة للغير وفيه خضوع لله تعالى بموافقة أمره ونظيره قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام ﴿ **وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا** ... ﴾ ... وأما ما ربما ظنه بعض من أن السجدة عبادة ذاتية فليس بشيء فإن الذاتي لا يختلف ولا يتخلف ، وهذا الفعل يمكن أن يصدر بعينه من فاعله بداع غير داعي التعظيم والعبادة " [(٢)] .

وتجد كلمات الجميع مجتمعة على إن المميز بني السجدتين السجدة لله والسجدة لآدم أو ليوسف عليهما السلام هي نية الساجد وقصده لا السجود بمجرده كفعل من الأفعال ، وهذا لا يتنافى مع القول بأنه لغير الله حرام مطلقا في الأمة الخاتمة كما هو مذهب الفقهاء سنة وشيعة ، فالتحريم هنا تحريم تشريعي لا لأنه شرك بمجرد فعله للغير .

وعن خصوص الركوع قال في حاشية ابن عابدين : " مطلب في إطالة الركوع للجائي ، قوله وكره تحريما لما في (البدائع) و (الذخيرة) عن أبي يوسف ، قال : سألت أبا حنيفة وابن أبي ليلى عن ذلك فكرها ، وقال أبو حنيفة : أخشى عليه أمرا عظيما يعني الشرك ، وروى هشام عن محمد أنه كره ذلك أيضا ، وكذا روي عن مالك والشافعي في الجديد ، وتوهم بعضهم من كلام الإمام أنه يصير مشركا ، فأفتى بإباحة دمه ، وليس كذلك ، وإنما أراد

(١) تفسير الصافي ج١ ص ١٦٨ .

(٢) الميزان ج١ ص ١٢٢- ١٢٣ .

الشرك في العمل لأن أول الركوع كان لله تعالى ، وآخره للجائي ، ولا يكفر لأنه ما أراد التذلل والعبادة ، وتمامه في (الحلية) و (البحر) "[(١)] .

فانظر إلى قوله : ولا يكفر لأنه ما أراد التذلل والعبادة ، فإن قصد التذلل العبادي هو المحقق لشرك العبادة ، لا أن يتحقق الشرك بمجرد قصد القادم للجماعة مع خلوه من تلك النية .

٣- الذبح

وهكذا فيما يتعلق بالذبح فمجرد ذكر اسم غير الله لا يكون شركا ما لم يكن على نحو التشريك إذ يمكن أن يكون على نحو التبرك بالاسم الثاني مع أن الذبح لله فقط وباسم الله .

قال النووي : " قال الرافعي : واعلم أن الذبح للمعبود وباسمه نازل منزلة السجود ، وكل واحد منهما من أنواع التعظيم والعبادة المخصوصة بالله تعالى الذي هو المستحق للعبادة ، فمن ذبح لغيره من حيوان أو جماد كالصنم على وجه التعظيم والعبادة لم تحل ذبيحته ، وكان فعله كفرا ، كمن يسجد لغير الله تعالى سجدة عبادة ، وكذا لو ذبح له أو لغيره على هذا الوجه .

فأما إذا ذبح لغيره لا على هذا الوجه بأن ضحى أو ذبح للكعبة تعظيما لها لكونها بيت الله تعالى أو لرسول الله ﷺ لكونه رسول الله فهو لا يجوز أن يمنع حل الذبيحة ، وإلى هذا المعنى يرجع قول القائل : أهديت للحرم أو الكعبة ...، وكذا السجود للغير تذللا وخضوعا لا يوجب الكفر وإن كان ممنوعا ، وعلى هذا فإذا قال الذابح : باسم الله واسم محمد وأراد أذبح باسم الله وأتبرك باسم محمد فينبغي أن لا يحرم ... ، قال : ووقعت منازعة بين جماعة ممن لقيناهم من

(١) حاشية ابن عابدين ج١ ص ٤٩٤- ٤٩٥ .

فقهاء قزوين في أن من ذبح باسم الله واسم رسوله هل تحرم ذبيحته ؟ وهل يكفر بذلك ؟ وأفضت تلك المنازعة إلى فتنة ، قال : والصواب ما بيناه ، هذا كلام الرافعي ، وقد أتقن رحمه الله هذا الفصل ، ومما يؤيد ما قاله واختاره ما ذكره إبراهيم المروزي في تعليقه ، قال : حكى صاحب التقريب عن الشافعي رحمه الله أن النصراني إذا سمى غير الله تعالى كالمسيح لم تحل ذبيحته ، قال صاحب (التقريب) : معناه أن يذبحها له ، فأما إن ذكر المسيح على معنى الصلاة على رسول الله ﷺ فجائز ، قال : قال الحليمي : تحل مطلقا وإن سمى المسيح " [1].

وقال الشوكاني في تفسير ما روي عن علي عليه السلام أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (لعن الله من ذبح لغير الله) : " المراد أن يذبح لغير الله تعالى كمن ذبح للصنم أو الصليب أو لموسى أو لعيسى عليهما السلام أو للكعبة ونحو ذلك ، فكل هذا حرام ، ولا تحل هذه الذبيحة سواء كان الذابح مسلما أو كافرا ، وإليه ذهب الشافعي وأصحابه ، فإن قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له غير الله تعالى والعبادة له كان ذلك كفرا ، فإن كان الذابح مسلما قبل ذلك صار بالذبح مرتدا ، وذكر الشيخ إبراهيم المروزي من أصحاب الشافعي أن ما يذبح عند استقبال السلطان تقربا إليه أفتى أهل بخارى بتحريمه لأنه مما أهل لغير الله ، قال الرافعي : هذا إنما يذبحونه استبشارا بقدومه فهو كذبح العقيقة لولادة النبي ﷺ " [2].

(١) المجموع ج ٨ ص ٣٠٢ ، ونحوه في شرحه على صحيح مسلم ج١٣ ص ١٤١ .
(٢) نيل الأوطار ج ٨ ص ١٤٥ .

فانظر إلى تخصيصه الحكم بالكفر والارتداد بما لو نوى وقصد التعظيم والعبادة عند الذبح لغير الله مع قوله بالحرمة مطلقا لكن الكفر والشرك مرهون بنية العبادة فقط ، والحصيلة أنه عمل واحد يمكن أن يقع على وجه يعد شركا ويمكن أن يقع على وجه لا يعد شركا .

ومثل هذا القول تجده في كلمات علماء الشيعة ، فقد قال الشهيد الثاني وهو يتحدث عن شرط التسمية على الذبيحة : " ولو قال بسم الله ومحمد بالجر لم يجز لأنه شرك وكذا لو قال : ومحمدٍ رسول الله ، ولو رفع فيهما لم يضر لصدق لتسمية بالأول تامة ، وعطف الشهادة للرسول زيادة خير غير منافية بخلاف ما لو قصد التشريك .

ولو قال : بسم الله واسم محمد قاصدا : أذبح باسم الله وأتبرك باسم محمد فلا بأس ، وإن أطلق أو قصد التشريك لم يحل ، ولو قال : اللهم صل على محمد وآل محمد فالأقوى الإجزاء " [1] .

٤- النذر

وفيما يتعلق بالنذر قال في (البحر الرائق) : " وأما النذر الذي ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد كأن يكون لإنسان غائب أو مريض أو له حاجة ضرورية فيأتي بعض الصلحاء فيجعل ستره على رأسه فيقول يا سيدي فلان إن رد غائبي أو عوفي مريضي أو قضيت حاجتي فلك من الذهب كذا أو من الفضة كذا أو من الطعام كذا أو من الماء كذا أو من الشمع كذا أو من الزيت كذا فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه منها أنه نذر مخلوق ، والنذر للمخلوق لا يجوز لأنه عبادة والعبادة لا تكون للمخلوق ، ومنها أن المنذور له ميت والميت لا

---

(١) مسالك الأفهام ج١١ ص ٤٧٩ .

يملك ، ومنها إن ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله تعالى واعتقاده ذلك كفر اللهم إلا إن قال يا الله إني نذرت لك إن شفيت مريضي أو رددت غائبي أو قضيت حاجتي أن أطعم الفقراء الذين بباب السيدة نفيسة أو الفقراء الذين بباب الإمام الشافعي أو الإمام الليث أو أشتري حصرا لمساجدهم أو زيتا لوقودها أو دراهم لمن يقوم بشعائرها ذلك مما يكون فيه نفع للفقراء ، والنذر لله عز وجل ، وذكر الشيخ إنما هو محل لصرف النذر لمستحقيه القاطنين برباطه أو مسجده أو جامعه فيجوز بهذا الاعتبار " (١) .

فعبارته الأخيرة : " إلا أن قال يا الله إني نذرت لك ... الخ " تنبئك أن المقصد ما دام يرجع إلى أن النذر لله لا يضر عدم دقته وخطأه في العبارة ، فقول الناذر : نذرت للولي وإن مثل قوله : نذرت لله من الناحية الشكلية لكنه لا يضر ولا يعد شركا ما دام قصده ومرجعه إلى نذرت لله والمصارف للولي ، وكأنه في حقيقته من المجاز في الإسناد ، وأما إن لم يرجع إلى ذلك بل كان النذر لغير الله حقيقة بأن يقول لفلان علي كما نقول لله علي ، فلا شك بأنه شرك .

٥- العتق

وفيما يتعلق بالعتق إذا كان لآدمي قال في حاشية ابن عابدين : " ثم قال في (البحر) ففرق بين الإعتاق لآدمي وبين الإعتاق للشيطان وعلل حرمة الإعتاق للشيطان بأنه قصد تعظيمه ، أي بخلاف قصد تعظيم فلان منهي ، تأمل .

قوله وحرام بل كفر للشيطان وكذا للصنم كما سيأتي ، ولعل وجه القول بأنه كفر هو ما سيذكره عن الجوهرة أن تعظيمهما دليل الكفر الباطل

(١) البحر الرائق ، ج ٢ ص ٣٢٠ - ٣٢١

كالسجود للصنم ولو هزلا فيحكم بكفره ، وهذا كله إذا لم يقصد التقرب والعبادة وإلا فهو كفر بلا شبهة سواء كان لفلان أو للشيطان " [1] .

والشاهد في قوله : هذا كله إذا لم يقصد التقرب والعبادة وإلا فهو كفر بلا شبهة .

والخلاصة : الواضح من كلمات الفقهاء أن لفظة العبادة المستعلمة في قولنا : عبادة الله و عدم عبادة الأصنام لا تتحقق إلا بقصد الخضوع الخاص الذي لا يكون إلا لله ، ولا نظر في كلمات إلى هيئة العمل والحكم بكفر فاعله ووقوعه في الشرك لمجرد توافقه مع عبادة ما في هيئته .

خلافنا معهم هنا سيصبح خلافا في تحديد الواقع عند المسلمين

بناء على ما سبق خلافنا مع الوهابية هنا سيتركز في تحديد ما يحدث بين المسلمين في الخارج هل هي أعمال وعبادات يقصد بها الله - وقد يكون بعمل ثابت في السنة وقد يكون بدعة - أم هؤلاء يقصدون صاحب القبر فيصلون له ويذبحون له لا لله ، فخطأهم هنا خطأ ينطلق من المعلومات الخاطئة التي يحملونها عما يجري عند قبور الأولياء والصالحين .

والآيات التي يستندون عليها في هذا المحور صريحة في أن المشركين كانوا يعبدون الأوثان بهذا المعنى أي يصلون لها ويذبحون لها ويدعون لها كما يدعون لله ، وهذا لا يعني أن عبادتهم لها كانت في عرض عبادة الله بل كانت في طولها ، فكانوا يرون أن عبادة الأوثان - أي توجيه الخضوع الخاص للأوثان - تقربهم من الله وتوجب شفاعتها لهم عنده ، فلذا عدهم القرآن مشركين لله في العبادة كما هو ظاهر قوله تعالى ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ**

(١) البحر الرائق ج ٣ ص ٦٤٠ .

وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ ﴾ يونس/١٨ وقوله عز وجل ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** ﴾ الزمر/٣.

ونعم ما قرره في هذا الصدد العلامة الكبير الشيخ جعفر كاشف الغطاء في رسالته للأمير عبدالعزيز بن سعود وهو يتحدث عن الذبح قائلا : " لا يشك أحد من المسلمين في أن من ذبح لغير الله ذبح العبادة كما يذبح أهل الأصنام لأصنامهم حتى يذكروا على الذبايح أسماءهم ويهلون بها لغير الله خارج عن ربقة المسلمين سواء اعتقدوا آلهيتهم أو قصدوا أن يقربوهم زلفى لأن ذلك عبادة لغير الله .

وأما من ذبح عن الأنبياء والأوصياء والمؤمنين ليصل الثواب إليهم كما نقرأ القرآن ونهدي إليهم ونصلي لهم وندعو لهم ونفعل جميع الخيرات عنهم ، ففي ذلك أجر عظيم وليس قصد أحد من الذابحين لأنبياء أو لغير الله سوى ذلك ...، وإني والذي نفسي بيده منذ عرفت نفسي إلى يومي هذا ما رأيت ولا سمعت أحدا من المسلمين ذبح أو نحر ذاكرا لاسم نبي أو وصي أو عبد صالح ، وإنما يقصدون إهداء الثواب إليهم ، فإن كان في أطرافكم قبل تسلطكم مثل ذلك فصاحب الدار أدرى بالذي فيها " [١] .

وعن النذر تحدث الشيخ محمد أمين زين الدين وهو من كبار علماء الشيعة المعاصرين قائلا : " لا يجوز النذر لغير الله سبحانه من رسول أو نبي أو ولي أو ملك أو عبد صالح ولا يجوز للكعبة والمشاهد والمساجد والمعابد ... والنذر نحو من أنحاء العبادة ، ومن أجل ذلك فلا بد فيه من القربة ... ولذلك كله فلا يجوز النذر لغير الله تعالى .

(١) منهج الرشاد لمن أراد السداد ، ص ٩٢ - ٩٤ .

والأنبياء والأولياء ... والمساجد ... إنما هي وجوه من القربات التي يتقرب بتكريمها إلى الله فيصح للعبد أن ينذر شيئا لله ... على أن يصرف المنذور في بعض هذه الوجوه المقربة .

والفارق كبير وواضح جدا بين أن ينذر الإنسان لله وحده متقربا إليه ويعين في نذره صرف ما نذره لله في بعض هذه الوجوه المقربة إلى الله ... - وهذا هو ما يفعله خاصة الشيعة وعامتهم حتى الجهلة منهم بالأحكام ، وهذا ما يقصدونه في نذرهم حتى من يغلط منهم في التعبير- وبين أن ينذرها للنبي أو الولي أو المعبد أو المشهد أنفسها ، فلا ينعقد النذر ولا يجوز لأنه لغير الله ، وهذا ما تصرح كتب علماء الشيعة بعدم جوازه " [1] .

عموما ما نريد التأكيد عليه هنا إن هذا الخلل الوهابي إن وقف عند هذا الحد فهو ليس في الفكرة أو الرؤية إنما في المعلومات الخاطئة عند الوهابيين عن واقع ما يفعله المسلم الذي لم يتوجه بالعبادة - أي الخضوع الخاص الذي لا يكون إلا لله - لصاحب القبر ولا لأي موجود آخر غير الله عز وجل لا في الصلاة ولا في الذبح ولا في النذر .

(١) كلمة التقوى ج٦ ص ٤٢٢ - ٤٢٣ .

القسم الثاني

عبادة الدعاء هي الموجب للوقوع في الشرك

نقلنا فيما سبق أقوال علماء هذا المذهب الصريحة في أنهم اعتبروا موجب الشرك هو دعاء غير الله فهي العبادة التي أوجبت وقوع المشركين المذكورين في آيتي الزلفى والشفعاء في الشرك ، فقد أشركوا لأنهم دعوا غير الله .

وعلينا هنا أيضا التمهيد بعرض معنى كلمة الدعاء في اللغة واصطلاح الشرع والمتشرعة اعتمادا على كلمات اللغويين والعلماء بجميع أصنافهم سواء كانوا مفسرين أو محدثين أو فقهاء أو أصوليين .

الاستعمالات اللغوية المتعددة لمفردة الدعاء

قال الراغب في توضيح الاستعمالات المتعددة للكلمة : " الدعاء كالنداء إلا أن النداء قد يقال بيا أو أيا ونحو ذلك من غير أن يضم إليه الاسم ، والدعاء لا يكاد يقال إلا إذا كان معه الاسم ... ، ويستعمل استعمال التسمية نحو دعوت ابني زيدا أي سميته ... ، ودعوته إذا استغثته قال تعالى ﴿ قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ أي سله ، وقال : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾ تنبيها أنكم إذا أصابتكم شدة لم تفزعوا إلا إليه ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ، ﴿ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ، ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا

رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ ، ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ ﴾ ، ﴿ وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ ﴾ " [١] .

ومن الواضح أن الكلمة استعملت بمعنى الذكر والتسبيح في القرآن ، والذكر والتسبيح من قبيل العبادات المختصة بالله عز وجل ، كما في قوله تعالى ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يونس/١٠ ، لذا كانت الكلمة هنا بمعنى الذكر لا بمعنى الطلب والسؤال .

قال ابن الأثير : " وفي حديث عرفة (أكثر دعائي ودعاء الأنبياء قبلي بعرفات : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير) ، إنما سمي التهليل والتحميد والتمجيد دعاء لأنه بمنزلته في استيجاب ثواب الله وجزائه كالحديث الآخر(إذا شغل عبدي ثناؤه علي عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين)" [٢] .

قال الأزهري : " وقال الفراء : ﴿ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ ﴾ يريد : آلهتهم ، يقول : استغيثوا بهم ... فالدعاء هنا بمعنى الاستغاثة ، وقد يكون الدعاء عبادة ومنه قول الله جل وعز ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ أي الذين تعبدون من دون الله .

وقال أبو إسحاق في قول الله عز وجل ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ يعني الدعاء لله على ثلاثة أضرب ، فضرب منها : توحيده والثناء عليه كقولك : يا الله لا إله إلا أنت ، وكقولك : ربنا لك الحمد ، إذا قلته فقد دعوته

---

(١) المفردات ، ص ١٦٩- ١٧٠ .

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر ، ج٢ ص ١١٥ .

بقولك ربنا ثم أتيت بالثناء والتوحيد ، ومثله قوله تعالى ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ الآية ، فهذا الضرب [ضرب] من الدعاء ، والضرب الثاني : مسألة الله العفو والرحمة وما يقرب منه كقولك : اللهم اغفر لنا .

والضرب الثالث : مسألة الحظ من الدنيا كقولك : اللهم ارزقني مالا وولدا ، وإنما سمي هذا أجمع دعاء لأن الإنسان يصدر في هذه الأشياء بقوله : يا الله يا رب يا رحمن ، فلذلك سمي دعاء ... وأما قول الله عز وجل ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يعني أن دعاء أهل الجنة تنزيه الله وتعظيمه وهو قوله ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ﴾ ، ثم قال ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أخبر أنهم يبتدئون دعاءهم بتعظيم الله وتنزيهه ، ويختمونه بشكره والثناء عليه ، فجعل تنزيهه دعاء وتحميده دعاء ، والدعوى هنا معناها الدعاء ...

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : الدعاء هو العبادة ، ثم قرأ ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ ، وقال مجاهد في قوله ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاة وَالْعَشِيِّ ﴾ قال : يصلون الصلوات الخمس ، وروي مثل ذلك عن سعيد بن المسيب ... ، وقال - الأخفش - في قول الله ﴿ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ : أي جعلوا ... ، وقوله ﴿ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا ﴾ أي لن نعبد إلها دونه ، وقال الله عز وجل

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ أي أتعبدون ربا سوى الله ، وقال ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ أي لا تعبد " (١) .

وقال ابن سيده : " الدعاء : الرغبة إلى الله ، ومن كلامهم اللهم أشركنا في دعوى المسلمين ، وقال : دعوت له بخير ، وعليه بشر ...

ودعا الرجل دعوا ودعاء : ناداه والاسم الدعوة ، فأما قوله تعالى ﴿ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ﴾ فإن أبا إسحاق ذهب إلى أن يدعو بمنزلة يقول ، ولمن مرفوع بالابتداء ، ومعناه : يقول لمن ضره أقرب من نفعه إله ورب " (٢) .

وقال الزبيدي : " والدعاء العبادة والاستغاثة ، ومن الثاني ﴿ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم ﴾ أي اسغيثوا بهم " (٣) .

وقد لخص أبو البقاء المعاني المتعددة للدعاء مستشهدا بآيات القرآن الكريم ، قال : " والدعاء : الرغبة إلى الله والعبادة نحو ﴿ وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ ﴾ ، والاستعانة نحو ﴿ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم ﴾ ، والسؤال نحو ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ، والقول نحو ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ﴾ ، والنداء نحو ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴾ ، التسمية نحو ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ " (٤) .

والظاهر صحة ما ذهب إليه ابن فارس من رجوع مادة (دعو) إلى معنى أساسي واحد هو النداء ، قال : " الدال والعين والحرف المعتل أصل واحد وهو

---

(١) تهذيب اللغة ج٣ ص ٧٦ – ٧٩ ، ونقل ذلك ابن منظور في (لسان العرب) ج١٤ ص٢٥٧ .

(٢) المحكم والمحيط ج٢ ص ٣٢٥ .

(٣) تاج العروس ج١٠ ص ١٢٨ .

(٤) الكليات ص ٤٤٧ ، سيأتي أن الصحيح في (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) أنها بمعنى العبادة .

أن تميل الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك تقول : دعوت ادعو دعاء ، والدعوة إلى الطعام بالفتح ، والدعوة في النسب بالكسر "[(١)] .

والمتحصل مما سبق على أن أهم المعاني التي استعملت بها الكلمة :

١- مجرد النداء بمعنى أن يصيح عليه بما ينبه للالتفات أو المجيء مثل قولنا ادعوا زيدا ، وقوله تعالى ﴿ **إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ** ﴾ النمل/٨٠ ، وقوله تعالى ﴿ **ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ** ﴾ ، وقوله تعالى ﴿ **وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ** ﴾ ، وكذلك قوله تعالى ﴿ **تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى** ﴾ كلها آيات استعملت بهذا المعنى ، وقد اجتمعت الكلمة ومرادفتها في قوله تعالى ﴿ **مَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء** ﴾ ، وكذلك قوله تعالى ﴿ **لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضًا** ﴾ النور/٦٣ ، وبهذا المعنى جاء قوله تعالى ﴿ **اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾ الأنفال/٢٤ ، وكذلك قوله تعالى ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا** ﴾ نوح/٥ .

٢- التسمية والادعاء : مثل دعوت المولود زيدا أي سميته زيداً ، وبهذا المعنى استعملت في قوله تعالى ﴿ **تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۞ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا** ﴾ مريم/٩١ ، أي ادعوا زورا أن لله ولدا ، قال الطبري : " وقال ﴿ **أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا** ﴾ يعني بقوله ﴿ **أَن دَعَوْا** ﴾ أن جعلوا له ولدا كما قال الشاعر :

ألا رب من تدعو نصيحا وإن تغلب   تجده بغيب غير منتصح الصدر "[(٢)]

(١) مقاييس اللغة ، ص ٣٣٧ .

(٢) تفسير الطبري ، المجلد التاسع ، ج١٦ ص ١٦٤ .

وقال ابن الجوزي : " قوله تعالى ﴿ أَن دَعَوْا ﴾ قال الفراء : من أن دعوا ولأن دعوا ، وقال أبو عبيدة : معناه : أن جعلوا ، وليس هو من دعاء الصوت ... " [١].

وكذلك استعملت في قوله تعالى ﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ غافر/١٢ ، قال الطبري : " ﴿ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ﴾ فأنكرتم أن تكون الألوهية له خالصة ، وقلتم ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ ، ﴿ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ يقول : إن يجعل لله شريك تصدقوا من جعل ذلك له " [٢].

وقال ابن الجوزي : " ﴿ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ﴾ ، أي إذا قيل لا إله إلا الله أنكرتم وإن جعل له شريك آمنتم " [٣].

٣- الطلب والاستغاثة : وهذا كثير في القرآن مثل قوله تعالى ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ ، وكذلك قوله تعالى ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا ﴾ ، وانطلاقا من هذا المعنى تستعمل في الطلب من الله والاستغاثة به كما هو ظاهر قوله تعالى ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾ الأنعام/٤١ أو ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ الأعراف/٥٦ ، وهكذا في مثل قوله تعالى ﴿ قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً ﴾ الإسراء/٥٦ .

---

(١) زاد المسير ج٥ ص ١٩٦ .

(٢) تفسير الطبري ، المجلد الثاني عشر ، ج٢٤ ص ٦٢ .

(٣) زاد المسير ج٧ ص ٧٢ .

٤- العبادة : وهو المذكور في قول الأزهري : " وقد يكون الدعاء عبادة ومنه قول الله جل وعز ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ أي الذين تعبدون من دون الله " ، وكذلك قول أبي البقاء : " والدعاء الرغبة إلى الله والعبادة نحو ﴿ وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ ﴾ " ، بل أكثر استعمالات القرآن قصد منها هذا المعنى ، فقد قرر الشوكاني استدلال البعض وقوله : " الدعاء في أكثر استعمالات الكتاب العزيز هو العبادة " [1] .

والمعنى الثالث هو الذي اصطلح عليه بدعاء المسألة ، والأخير هو ما يعرف بدعاء العبادة .

المستند القرآني لاعتبار دعاء غير الله شركا بالله تعالى

نذكّر بأننا انطلقنا من آيتي الزلفى والشفعاء ، ولم تتضمنا إلا كلمة العبادة ، فما هو دخل الدعاء في البين ؟! تذكيرا بالأمر نقول بأنّا عقدنا هذا الباب لأن الوهابية ترى أن العبادة التي تجعل المسلمين زوار القبور مشركين بالله وعبدة للقبور هو دعاء صاحب القبر والطلب منه ، فمفردة الدعاء مفردة محورية في الرؤية الوهابية ، فيرون أن الدعاء والطلب من موجود ما هو عبادة لذلك الموجود .

فما يجب عليهم إثباته هنا أن دعاء غير الله عبادة لذلك الغير كما أن الصلاة عبادة ، فما نعرضه هنا هو أدلتهم على أن الدعاء عبادة ، ولا نبالغ إن قلنا إن الجزء الأساس من البحث يتركز في مفردتي العبادة في الباب الأول والدعاء في هذا الباب ، ومستندهم الأساس في ذلك الكم الكبير من الآيات التي يظهر منها نوع وحدة بين لفظتي عبادة الله ودعوة الله أو عبادة غير الله ودعوة غير الله

(١) فتح القدير ج٤ ص٥٧١ .

شكلت أساسا مهما لرؤيتهم ودعواهم بأن الدعاء عبادة ، وإليك نماذج من تلك الآيات .

قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۞ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۞ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ الجن/١٨ .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ ... وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ ﴾ يونس/١٠٤ .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ... هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ غافر/٦٠ .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ فاطر/٤٠ .

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۞ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ الأحقاف/٥-٦ .

﴿ قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ الإسراء/٥٧ .

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۞ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ۞ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ۞ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ الشعراء/٧١ .

وإليك بعض الأمثلة لاستدلالهم بتلك الآيات .

قال ابن تيمية : " وهذا ونحوه مما يبين أن الذين يدعون الأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم من المشركين الذين يدعون غير الله كالذين يدعون الكواكب والذين اتخذوا الملائكة والنبيين أربابا قال تعالى ﴿ **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللّهِ...** ﴾ ... ، وقال تعالى ﴿ **قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** ﴾ وقال تعالى ﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ...** ﴾ ومثل ذلك كثير في القرآن ينهى أن يدعى غير الله لا من الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم فإن هذا شرك أو ذريعة إلى الشرك " [(١)] .

قال ابن عبدالوهاب : " وعرفت أن رسول الله ﷺ قاتلهم على هذا الشرك ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده كما قال الله تعالى ﴿ **فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** ﴾ وكما قال تعالى ﴿ **لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ** ﴾ ، وتحققت أن رسول الله ﷺ قاتلهم ليكون الدعاء كله لله " [(٢)] .

وقال : " من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره ، وقول الله تعالى ﴿ **وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ**

---

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ٣٢ – ٣٣ .

(٢) شرح كشف الشبهات ص ٣٥ – ٣٦ .

الظَّالمينَ ۞ وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ ﴾ الآية ، وقوله ﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ ﴾ الآية ، وقوله ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو من دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ ﴾ الآيتان ، وقوله ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ .

وروى الطبري بإسناده أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين ، فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق ، فقال النبي ﷺ : إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله عز وجل .

وفيه مسائل ... الثالثة : إن هذا هو الشرك الأكبر "(١) .

لكن ينبغي التنبيه أنه لا شك بأن الحديث عن الدعاء ، ولكن الفرض هو الحديث عن أناس يدعون الأولياء عند القبور أي يطلبون منهم ، ويريد هؤلاء أن يثبتوا أنهم أشركوا لأنهم دعوا أصحاب القبور بمعنى سألوهم وطلبوا منهم ، فهل هذه الآيات تتحدث عن الدعاء بمعنى الطلب بعد أن رأينا تعدد معاني الكلمة في اللغة العربية كما هو الحال في استعمالات القرآن ، بل مع إقرار أصحاب هذه الرؤية بأن هناك نوعين من الدعاء ، دعاء العبادة ودعاء المسألة .

---

(١) كتاب التوحيد ص ٣٢ - ٣٣ ، ولا بأس هنا - بعد أن نقل ما روي عنه ﷺ : " أنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله "- من التذكير بقول ابن عبدالوهاب في (كشف في الشبهات) عند رده على من أشكل بثبوت النص على جواز الاستغاثة بالأنبياء : " والجواب أن نقول سبحان من طبع على قلوب أعدائه فإن الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه لا ننكرها كما قال الله تعالى في قصة موسى ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ " ص ١٢٥ -١٢٦ ، رجل لا يستطيع أن يدرك التناقض بين عباراته يتهم المسلمين بالوقوع في الشرك ، مع أن الشيخ أرناؤوط الذي أشرف على تحقيق مسند أحمد علق على سند الخبر بقوله : " إسناده ضعيف لضعف عبدالله بن لهيعة ، ولإبهام الراوي عن عبادة " مسند أحمد ج٣٧ ص ٣٨١ .

ولذا إذا تبين أن الآيات تتحدث عن دعاء العبادة ولا علاقة لها بدعاء المسألة ، يجب عليهم البحث عن دليل آخر على شركية دعاء المسألة الواقع عن بعض من يزور قبور الأولياء ، هذا ما سيجرنا لتشخيص الخلل الأول في الرؤية الوهابية للآيات والبحث حوله .

ثم ، هل يعقل أنك لو طلبت من صديقك وسألته مالا أو حاجة ما أشركت وعلى نحو مطلق أم الحديث عن نوع معين ومقيد من دعاء المسألة ؟! لا بد من التقييد ، وعليه ما هو القيد الذي يجب أن يقيد به دعاء المسألة الشركي ؟ وهل يصح القيد الذي وضعه هؤلاء وهو تحقق الشرك في خصوص طلب ما لا يقدر عليه إلا الله .

هذا ما سيجرنا للحديث عن الخلل الثاني في الرؤية الوهابية عن الدعاء الموجب للوقوع في الشرك ، فلنفصل الحديث حول الخللين الكبيرين في دعواهم بأن دعاء غير الله موجب للشرك الأكبر .

الخلل الأول

الخلط بين دعاء العبادة ودعاء المسألة

إن الآيات التي يظهر منها الوحدة بين الدعاء والعبادة لا تنفع لإثبات الرؤية الوهابية بعد أقرارهم بوجود معنيين واستعمالين لمفردة الدعاء يمكن أن تكون الكلمة استعملت في أحدهما في الآيات المستشهد بها ، والاستعمالان هما دعاء العبادة ودعاء المسألة ، وقد أقر علماؤهم بوجود هذين الاستعمالين ، ونقلنا شيئا منها سابقا ، ولا بأس بإعادتها .

قال ابن عثيمين : " الدعاء ينقسم إلى قسمين :

الأول : دعاء عبادة مثاله الصوم والصلاة ... وهذا القسم كله شرك ... .

الثاني : دعاء المسألة ، فهذا ليس كله شركا بل فيه تفصيل ، فإن كان المخلوق قادرا على ذلك فليس بشرك ... ... ، وأما من دعا المخلوق بما لا يقدر عليه إلا الله ، فإن دعوته شرك مخرج عن الملة " [(١)] .

وقال صالح الفوزان : " أما الدعاء فهو أعم من الاستغاثة – كما سبق – ، وهو نوعان : دعاء عبادة ودعاء مسألة ، دعاء العبادة هو الثناء على الله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته ، ودعاء المسألة هو طلب الحاجات من الله سبحانه وتعالى " [(٢)] .

وتقسيم الدعاء إلى دعاء عبادة ودعاء مسألة مذكور في كلمات ابن تيمية عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ **ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ۞

---

(١) القول المفيد ج١ ص ١٢٠– ١٢١ .

(٢) إعانة المستفيد ج١ ص٢٦٧

وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ الأعراف/٥٥-٥٦ قال : " هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء دعاء العبادة ودعاء المسألة فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة ، ويراد به مجموعهما وهما متلازمان فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي وطلب كشف ما يضره ودفعه ، وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضر .

ولهذا أنكر – تعالى – على من عبد من دونه ما لا يملك ضرا ولا نفعا ، وذلك كثير في القرآن كقوله تعالى ﴿ **وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ** ﴾ يونس/١٠٦ وقال ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ** ﴾ يونس/١٨ ، فنفى – سبحانه – عن هؤلاء المعبودين الضر والنفع القاصر والمتعدي فلا يكون لأنفسهم ولا لعابديهم "[1] .

وعلى ضوء ذلك لا شك أن الدعاء إذا قصد به العبادة ومثل لها بالصلاة والصوم كما في العبارات السابقة ، فإقامته لغير الله شرك بلا شك بل هو من مسلمات الإسلام ، بل لن يكون الشرك في دعاء العبادة إلا عبارة أخرى عن الشرك في العبادة .

ولكن إن قصد به دعاء المسألة وحقيقته أن الداعي لغير الله يطلب منه ويسأله حاجة ، فما هو موجب الشرك وهو أمر نراه يقع يوميا في حياتنا ؟! فلم يعد دعاء غير الله ومسألته شرك ؟! ولأنهم أدركوا أن هذا الإطلاق غير معقول قيد في مثل كلمة ابن عثيمين بدعاء ما لا يقدر عليه إلا الله ، وهو ما سنبحثه في الخلل الثاني .

---

(١) مجموعة الفتاوي ج١٥ ص ١٠ .

ولكن ما نريد التركيز عليه هنا ، هل كل الآيات التي ذكروها تتحدث عن دعاء المسألة ؟ فيكون معنى دعاء غير الله في الآيات أي سؤال غير الله ، ومن ثم تكون دليلا على أن سؤال غير الله والطلب من ذلك الغير شرك ؟! أم الصحيح أنها تتحدث عن دعاء العبادة ولا ذكر في البين لدعاء المسألة المبحوث فيه ، وعليه فما يجب عليهم إثباته أن الحديث في كل الآيات السابقة عن دعاء المسألة لا دعاء العبادة .

وبعبارة أخرى بعد أن أقروا بانقسام الدعاء إلى النوعين السابقين ، يتوجه إليهم الإشكال والسؤال التالي : من قال لكم إن الآيات تتحدث عن دعاء المسألة لا دعاء العبادة ؟! إذ يكفي أن يقال إن الآيات السابقة هي تتحدث عن دعاء العبادة ولا علاقة لها بدعاء المسألة ، فلا وجه للاستدلال بها على شركية دعاء المسألة ، وهو ما تريدون إثبات أنه شرك وتقولون يقع فيه الكثير من المسلمين عند قبور الأولياء ، ولا بد من أن نطيل الوقوف عند هذه النقطة انطلاقا من ضرورة بيان المعنى الصحيح للآيات المستدل بها ، وهل هي تتحدث عن دعاء المسألة أو دعاء العبادة ؟

هل الآيات المستدل بها تقصد دعاء المسألة أم دعاء العبادة ؟

بعد أن رأينا تعدد معاني الكلمة – تعددا انعكس في استعمالات القرآن – لا بد من تحديد المعنى المقصود من الكلمة في خصوص الآيات التي تستدل بها الوهابية ، وقد نقلنا فيما سبق قول ابن فارس أن المعاني المتعددة تدور حول معنى أساس هو إمالة طرف آخر ليتوجه إليك بالصوت أو ما هو من قبيله .

وترى الآيات المستدل بها هي بمعنى نداء الله ولكن تتردد بين أن يكون المقصود بالنداء الطلب والسؤال أو يقصد به الثناء والتمجيد ، والأول هو ما

عبر عنه بدعاء المسألة والثاني دعاء العبادة ، وستجد أن بعض الآيات صريحة في المعنى الأول وبعضها في الثاني وبعضها الثالث تحتمل الأمرين ، نعم هناك آيات أخرى من الواضح أن الكلمة فيها بمعنى التسمية والزعم كما في قوله تعالى ﴿ **أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا** ﴾ أي زعموا أن لله ولدا ، وسيتضح الأمر أكثر من خلال استعراض الآيات وأقوال المفسرين في تفسيرها .

آيات ظاهرة في دعاء العبادة

نذكر بعض الآيات الظاهرة في الحديث عن دعاء العبادة :

١- ﴿ **وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا ۞ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾ مريم/٤٨ .

هي أوضح آية في الدلالة على الترادف بين (يدعو) و (يعبد) في القرآن ، فلا شك أن الآية حينما بدأت بقوله ﴿ **وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾ ثم أعقبته بقوله ﴿ **فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾ أثبتت الترادف بين يدعون من دون الله ويعبدون من دون الله ، وعلى نحو لم يلاحظ في مثل قوله تعالى ﴿ **مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾ معنى الطلب والمسألة .

قال البغوي : " ﴿ **وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾ أي أعتزل ما تعبدون من دون الله ، قال مقاتل : كان اعتزاله إياهم أنه فارقهم من كوثي ، فهاجر منها إلى الأرض المقدسة ﴿ **وَأَدْعُو رَبِّي** ﴾ أي أعبد ربي ﴿ **عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا** ﴾ أي عسى ألا أشقى بدعائه وعبادته كما أنتم تشقون بعبادة الأصنام " [1] .

---

(١) تفسير البغوي ج٣ ص١٦٦ ، وكوثي البلدة التي نشأ بها نبي الله إبراهيم عليه السلام.

وانظر كذلك إلى تفسير ابن الجوزي ، وديدنه أن يستقصي الآراء في تفسيره ، ولم يذكر الطلب كأحد الاحتمالات ، بل تردد المعنى عنده بين يعبدون ويسمون ، قال : " وفي معنى ﴿ تَدْعُونَ ﴾ قولان : أحدهما : تعبدون ، والثاني : أن المعنى وما تدعونه ربا ﴿ وَأَدْعُو رَبِّي ﴾ أي وأعبده ﴿ عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا ﴾ أي أرجو أن لا أشقى بعبادته كما شقيتم أنتم بعبادة الأصنام "[١].

وقال ابن كثير : " وقوله ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي ﴾ أي أجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله ﴿ وَأَدْعُو رَبِّي ﴾ أي وأعبد ربي وحده لا شريك له "[٢].

ومثل هذه الآية في استبدال كلمة يدعو الله بكلمة يعبد الله قوله تعالى في سورة الكهف ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۞ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ۞ هَؤُلَاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۞ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ ﴾ الكهف/١٣-١٦ .

قال الشوكاني : " ﴿ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا ﴾ أي لن نعبد معبودا آخر غير الله لا اشتراكا ولا استقلالا "[٣].

---

(١) زاد المسير ج٥ ص ١٧٦- ١٧٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص ١٣٠ .

(٣) فتح القدير ج٣ ص ٣٢٤ .

٢- ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۞ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۞ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ الجن/ ٢٠ .

فالصراع بين رسول الله وقريش على وحدانية الله في العبادة ولم يقصد من كملة يدعو إلا ذلك ، ولذا انتهت الآيات بقوله ﴿ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾ .

قال الطبري : " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : ... ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا ﴾ أيها الناس ﴿ مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ ولا تشركوا به فيها شيئا ، ولكن أفردوا له التوحيد وأخلصوا له العبادة ، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ، ... عن قتادة قوله ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله فأمر الله نبيه أن يوحد الله وحده ...

وقوله ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ يقول : وأنه لما قام محمد رسول الله ﷺ يدعو الله يقول : لا إله إلا الله ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ﴾ لبدا ...

عن ابن عباس قوله ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ يقول : لما سمعوا النبي ﷺ يتلو القرآن ... ... عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قول الجن لقومهم ﴿ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ

عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ ، قال : لما رأوه يصلي وأصحابه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده ... " [١] .

قال البغوي : " ﴿ **لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ** ﴾ يعني النبي ﷺ ﴿ **يَدْعُوهُ** ﴾ يعني يعبده ويقرأ القرآن ، وذلك حين كان يصلي ببطن نخلة ويقرأ القرآن " [٢] .

ذكر ابن الجوزي عند تفسير المساجد أربعة أقوال ثم قال بعد أولها : " فأمر الله عز وجل المسلمين أن يخلصوا له إذا دخلوا مساجدهم " ، وبعد ثانيها : " فيكون المعنى لا تسجدوا عليها لغيره ، وبعد القول الثالث : " فلا تسجدوا عليها لغير خالقها " ، وبعد الرابع : " والمعنى : أخلصوا له ، ولا تسجدوا لغيره " ، فكأنه يفسر ﴿ **فَلَا تَدْعُوا** ﴾ بمعني فلا تسجدوا ، ومن الواضح أن السجود عبادة ، ثم قال بعد ذلك : " ﴿ **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ** ﴾ يعني محمدا ﷺ ﴿ **يَدْعُوهُ** ﴾ أي يعبده وكان يصلي ببطن نخلة " [٣] .

وقال ابن كثير : " عن ابن عباس قال : قال الجن لقومهم ﴿ **لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا** ﴾ قال لما رأوه يصلي وأصحابه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده ... ﴿ **إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي** ﴾ أي إنما أعبد ربي وحده لا شريك له وأستجير به وأتوكل عليه ﴿ **وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا** ﴾ " [٤] .

٣- ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

---

(١) تفسير الطبري ، المجلد الرابع عشر ، ج٢٩ ص ١٤٤ -١٤٦ .

(٢) تفسير البغوي ج٤ ص٣٧٣ .

(٣) زاد المسير ج ٨ ص١٣٣- ١٣٤ .

(٤) تفسير ابن كثير ج٤ ص ٤٦١ .

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴾ يونس/١٠٤- ١٠٦ .

وهذه الآيات جمعت بين تعبيرين هما : العبادة من دون الله والدعاء من دون الله بما يظهر منه ترادف العبارتين ، لذا قال الطبري عند تفسير الآية الأخيرة : " يقول تعالى ذكره ولا تدع يا محمد من دون معبودك وخالقك شيئا لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة ولا يضرك في دين ولا دنيا يعني بذلك الآلهة والأصنام ، يقول : لا تعبدها راجيا نفعها أو خائفا ضرها فأنها لا تنفع ولا تضر فإن فعلت ذلك فدعوتها من دون الله ﴿ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴾ " [١] .

وقال البغوي : " ﴿ وَلاَ تَدْعُ ﴾ ولا تعبد ﴿ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ ﴾ إن أطعته ﴿ وَلاَ يَضُرُّكَ ﴾ إن عصيته ﴿ فَإِن فَعَلْتَ ﴾ فعبدت غير الله ﴿ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴾ الضارين لأنفسهم الواضعين العبادة في غير موضعها " [٢] .

وقال ابن الجوزي : " قوله تعالى ﴿ وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ ﴾ إن دعوته ﴿ وَلاَ يَضُرُّكَ ﴾ إن تركت عبادته " [٣] .

وقال ابن كثير : " يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ : قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من صحة ما جئتكم به من الدين الحنيف الذي أوحاه الله إلي ، فأنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له ، وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم ، ثم إليه مرجعكم فإن كانت آلهتكم التي تدعون من

---

(١) تفسير الطبري ، المجلد السابع ، ج١١ ص ٢٢٨ -٢٢٩ .

(٢) تفسير البغوي ج٢ ص٣١٣ .

(٣) زاد المسير ج٤ ص ٥٤ .

دون الله حقا ، فأنا لا أعبدها ، فادعوها فلتضرني ، فإنها لا تضر ولا تنفع ، وإنما الذي بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له " [(١)] .

والعجيب أن ابن الوهاب يستدل بهذه الآية التي تتحدث عن دعاء العبادة على أن دعاء غير الله دعاء مسألة شرك كما في رسالته (التوحيد) .

٤- ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴾ النساء/١١٧ .

والقرينة الواضحة في هذه الآية قوله تعالى ﴿ وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا ﴾ ، فلم تفسر إلا بعبادة الشيطان المذكورة في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾ ، فلا شك أن مشركي قريش لم يكونوا يدعون بمعنى يسألون الشيطان ويطلبون منه شيئا ، فعبادة الشيطان هنا ليست بمعنى إقامة الطقوس له ولكن بمعنى طاعته والخضوع له ولرغاباته كما في قوله ﷺ (تعس عبد الدرهم والدينار) أي الخاضع لهما .

قال الطبري : " عن السدي ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا ﴾ يقول : يسمونهم إناثا : لات ، ومناة ، وعزى ، ... يقول جل ثناؤه : فحسب هؤلاء الذين أشركوا بالله وعبدوا ما عبدوا من دونه من الأوثان والأنداد حجة عليهم في ضلالتهم وكفرهم وذهابهم عن قصد السبيل أنهم يعبدون إناثا ويدعونها آلهة وأربابا " [(٢)] .

قال البغوي : " قوله تعالى ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا ﴾ نزلت في أهل مكة ، أي : ما يعبدون كقوله تعالى ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي ﴾ بدليل قوله تعالى

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٥٠ .

(٢) تفسير الطبري ، المجلد الرابع ، ج٥ ص ٣٧٧ - ٣٨٠ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ ، قوله ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ من دون الله ... ... ﴿ وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴾ أي وما يعبدون إلا شيطانا مريدا ، لأنهم إذا عبدوا الأصنام فقد أطاعوا الشيطان " [١] .

قال ابن الجوزي : " ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا ﴾ إن بمعنى ما ، ويدعون بمعنى يعبدون ... وفي المراد بالشيطان ثلاثة أقوال : أحدها : شيطان يكون في الصنم ... ، والثاني : أنه إبليس وعبادته : طاعته ... والثالث : أنه أصنامهم التي عبدوا " [٢] .

قال ابن كثير : " وقال ابن جرير عن الضحاك في الآية : قال المشركون للملائكة بنات الله وإنا نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، قال : فاتخذوهن أربابا وصورهن جواري ... وقوله ﴿ وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴾ أي هو الذي أمرهم بذلك وحسنه وزينه لهم ، وهم إنما يعبدون إبليس في نفس الأمر كما قال تعالى ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾ " [٣] .

٥- ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۞ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا ﴾ غافر/٧٣- ٧٤ [٤] .

قال الطبري : " ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۞ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ يقول : ثم قيل : أين الذين كنتم تشركون بعبادتكم إياها من دون الله من

(١) تفسير البغوي ج١ ص ٣٨٣- ٣٨٤ .

(٢) زاد المسير ج٢ ص ١٢١- ١٢٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ج١ ص ٥٦٨ - ٥٦٩ .

(٤) ومثل هذه الآية قوله تعالى ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ فصلت/٤٨، لذا قال البغوي : " ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ ﴾ يعبدون (مِّن قَبْلُ) في الدنيا " ، ج٤ ص١٠٥ من تفسيره .

آلهتكم وأوثانكم حتى يغيثوكم فينقذونكم مما أنتم فيه من البلاء والعذاب ، لان المعبود يغيث من عبده وخدمه ، وإنما يقال هذا لهم توبيخا ... فقالوا : ضلوا عنا، يقول : عدلوا عنا فأخذوا غير طريقنا ، وتركونا في هذا البلاء ، بل ما ضلوا عنا ولكنا لم نكن ندعو من قبل في الدنيا شيئا : أي لم نكن نعبد شيئا " (١) .

قال البغوي : " ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۞ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ يعني الأصنام ﴿ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ فقدناهم فلا نراهم ﴿ بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا ﴾ قيل : أنكروا ، وقيل : معناه بل لم نكن ندعو من قبل شيئا ينفع ويضر ، وقال الحسين بن الفضل : أي لم نكن نصنع من قبل شيئا أي ضاعت عبادتنا لها ،كما يقول من ضاع عمله : ما كنت أعمل شيئا " (٢) .

قال ابن كثير : " وقوله تعالى ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۞ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي قيل له أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله هل ينصرونكم اليوم ﴿ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ أي ذهبوا فلم ينفعونا ﴿ بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا ﴾ أي جحدوا عبادتهم كقوله جلت عظمته ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ " (٣) .

آيات الدعاء فيها بمعنى دعاء عبادة وإن توهم خلاف ذلك

قد يقال إن وجود كلمة الاستجابة في الآية التي فيها ذكر للدعاء يرجح أن المعنى المستعمل فيه كلمة الدعاء بمعنى الطلب والسؤال ، ولكن مع ذلك

---

(١) تفسير الطبري المجلد ١٢ ، ج٢٣ ص ١٠٦- ١٠٧ .

(٢) تفسير البغوي ج٤ ص ٩٣ .

(٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص ٩٥ .

فسرت في أكثر الموارد من قبل المفسرين بدعاء العبادة لقرائن خاصة ، وإليك نماذج لها :

١- ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾ غافر / ٦٠ .

وكلمة الدعاء في الآية فسرت بالعبادة في أثر صحيح مروي عن بعض الصحابة ، فقد روى الحاكم عن جرير بن عبدالله البجلي (رض) في قول الله عز وجل ﴿ **ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ قال : " اعبدوني أستجب لكم " ، قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، قال الذهبي : على شرط مسلم [(١)] .

والبعض يريد أن يستفيد من الآية أن الدعاء عبادة بمعنى أنها أحد مصاديق العبادة ، ولكن الذي تراه في كلمات المفسرين أنهم اعتبروا كلمة الدعاء هنا قصد بها العبادة على نحو المرادف لها ، لا أنها استعملت بمعنى الطلب و الطلب من مصاديق العبادة كما تخيل البعض استئناسا بقوله تعالى ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي** ﴾ ، فالحق أن كلمة دعاء في المقطع الأول من الآية يجب أن تفسر بالعبادة ، لا أن كلمة العبادة في المقطع الثاني أشير به إلى دعاء المسألة كما يتوهم البعض .

وهذا تجده صريحا في خبر آخر صحيح روي عن رسول الله ﷺ فهم منه المفسرون ما نقوله هنا لا ما فهمته الوهابية ، قال القرطبي : " قوله تعالى ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ الآية ، روى النعمان بن بشير قال : سمعت النبي ﷺ يقول : الدعاء هو العبادة ، ثم قرأ ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي**

---

(١) المستدرك على الصحيحين ج٢ ص ٣٠١ .

أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ ، قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ، فدل هذا على أن الدعاء هو العبادة ، وكذا قال أكثر المفسرين ، وأن المعنى : وحدوني واعبدوني أتقبل عبادتكم وأغفر لكم " (١) ، فدعا معناه عبد ، لا أن الدعاء بمعنى الطلب والطلب مصداق للعبادة .

وقال الطبري : " وقوله ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ يقول تعالى ذكره ويقول ربكم : أيها الناس [لكم] ادعوني يقول اعبدوني وأخلصوا لي العبادة دون من تعبدون من دوني من الأوثان والأصنام وغير ذلك ﴿ **أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ يقول أجب دعاءكم فأعفو عنكم وأرحمكم وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك :

... عن ابن عباس قوله ﴿ **ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ يقول : وحدوني أغفر لكم.

... عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : " الدعاء هو العبادة " ، وقرأ رسول الله ﷺ ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ...** ﴾ .

وقوله ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي** ﴾ يقول : إن الذين يتعظمون عن إفرادي بالعبادة وإفراد الألوهة لي " (٢) .

قال البغوي : " ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ أي اعبدوني دون غيري أجبكم وأغفر لكم ، فلما عبر عن العبادة بالدعاء جعل الإثابة استجابة " (٣) .

---

(١) الجامع لحكام القرآن ، المجلد الثامن ، ج١٥ ص ٢٩٢ .

(٢) تفسير الطبري ، المجلد الثاني عشر ، ج٢٤ ص ٩٨ – ١٠٠ .

(٣) تفسير البغوي ج٤ ص ٩١ .

وعبارته صريحة في أن العبادة عبر عنها بكلمة الدعاء ، لا أن الدعاء هنا بمعنى الطلب والمسألة ومن ثم هي من مصاديق العبادة .

قال ابن الجوزي : " ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ فيه قولان : أحدهما : وحدوني واعبدوني أثبكم ، قاله ابن عباس ، والثاني : سلوني أعطكم ، قاله السدي ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ ، فيه قولان : أحدهما : عن توحيدي ، والثاني : عن دعائي ومسألتي " [1] .

قال الشوكاني في تفسيره : " ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ قال أكثر المفسرين : المعنى وحدوني واعبدوني أتقبل عبادتكم وأغفر لكم ، وقيل : المراد بالدعاء السؤال بجلب النفع ودفع الضر ، قيل : الأول أولى ، لأن الدعاء في أكثر استعمالات الكتاب العزيز هو العبادة ، قلت : بل الثاني أولى ، لأن معنى الدعاء حقيقة وشرعا هو الطلب " [2] .

٢- ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾ الرعد/١٤.

قال الطبري : " يقول تعالى ذكره لله من خلقه الدعوة الحق والدعوة هي الحق كما أضيفت الدار إلى الآخرة في قوله ﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ ﴾ وقد بينا ذلك فيما مضى وإنما عنى بالدعوة الحق توحيد الله وشهادة أن لا إله إلا الله ، وبنحو الذي قلنا تأوله أهل التأويل ذكر من قال ذلك ... عن ابن عباس ﴿ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾ قال : لا إله إلا الله ... عن علي (رض) ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾ قال : التوحيد ... ،

(١) زاد المسير ج٧ ص ٨٧ .

(٢) فتح القدير ج٤ ص٥٧١ .

وقوله ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ يقول تعالى ذكره والآلهة التي يدعونها المشركون أربابا وآلهة ، وقوله ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ يقول من دون الله ، وإنما عنى بقوله ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ الآلهة أنها مقصرة عنه وأنها لا تكون إلها ، ولا يجوز أن يكون إلا الله الواحد القهار ... ، وقوله ﴿ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ ﴾ يقول : لا تجيب هذه الآلهة التي يدعوها هؤلاء المشركون آلهة بشيء يريدونه من نفع أو دفع ضر " [1] .

قال البغوي : " ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾ أي لله دعوة الصدق ، قال رضي الله عنه : دعوة الحق التوحيد ، وقال ابن عباس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وقيل : الدعاء بالإخلاص والدعاء الخالص لا يكون إلا لله عز وجل ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ أي يعبدون الأصنام من دون الله تعالى " [2] .

قال ابن الجوزي : " قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ يعني الأصنام يدعونها آلهة ، قال أبو عبيدة : المعنى والذين يدعون غيره من دونه ، قوله تعالى ﴿ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ ﴾ أي لا يجيبونهم ... ... ، قوله تعالى ﴿ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ فيه قولان أحدهما : وما دعاء الكافرين ربهم إلا في ضلال لأن أصواتهم محجوبة عن الله رواه الضحاك عن ابن عباس ، والثاني : وما عبادة الكافرين الأصنام إلا في خسران وباطل ، قاله مقاتل " [3] .

قال ابن كثير : " قال علي بن أبي طالب (رض) ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾ قال : التوحيد رواه ابن جرير ، وقال ابن عباس وقتادة ومالك عن محمد بن المنكدر

---

(١) تفسير الطبري ، المجلد الثامن ، ج ١٣ ص ١٦٨ – ١٧٠ .

(٢) تفسير البغوي ج٣ ص ٩ ، ولا أعرف لم يسقط اسم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ؟!

(٣) زاد المسير ج٤ ص ٢٤٢– ٢٤٣ .

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾ لا إله إلا الله ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ﴾ الآية أي ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله " (١) .

٣- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ ۞ إِنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ۞ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلآ أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ الأعراف / ١٩٤- ١٩٧ .

فالحديث في ﴿ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ ﴾ عن دعاء عبادة .

قال الطبري : " يقول جل ثناؤه لهؤلاء المشركين من عبدة الأوثان موبخهم على عبادتهم ما لا يضرهم ولا ينفعهم من الأصنام إن الذين تدعون أيها المشركون آلهة من دون الله وتعبدونها شركا منكم وكفرا بالله ﴿ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ ... فإن كنتم صادقين أنها تضر وتنفع وأنها تستوجب منكم العبادة لنفعها إياكم فليستجيبوا لكم إذا دعوتموهم فإن لم يستجيبوا لأنها لا تسمع دعاءكم فأيقنوا بأنها لا تنفع ولا تضر " (٢) .

قال ابن كثير : " هذا إنكار على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة لا تملك شيئا من الأمر ولا تضر ولا تبصر ولا تنتصر لعابديها " (٣) .

---

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٥٢٥ .

(٢) تفسير الطبري ، المجلد السادس ، ج ٩ ص ٢٠١ .

(٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٢٨٧ .

وقوله تعالى ﴿ فَادْعُوهُمْ ﴾ مع ادعاء ظهوره في دعاء المسألة ، لكن مع ذلك فقد نقل البغوي عن ابن عباس تفسيره بدعاء العبادة فكأن المعنى فاعبدوهم ، قال البغوي : " ﴿ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أنها آلهة ، قال ابن عباس : فاعبدوهم هل يثيبونكم أو يجازوكم إن كنتم صادقين أن لكم عندها منفعة " [1] .

٤- ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۞ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ الأحقاف / ٤-٦ .

الآيات بينت معنى قوله تعالى ﴿ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ بما في آخرها أي قوله تعالى ﴿ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ .

قال الطبري : " يقول تعالى ذكره : قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله من قومك : أرأيتم أيها القوم الآلهة والأوثان التي تعبدون من دون الله أروني أي شيء خلقوا من الأرض " [2] .

قال ابن كثير في تفسيره : " ﴿ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أي أرشدوني إلى المكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ أي ولا شرك لهم في السماوات ولا في

(١) تفسير البغوي ج٢ ص ١٨٧ .

(٢) تفسير الطبري ، المجلد الثالث عشر ، ج٢٦ ص ٤ .

الأرض وما يملكون من قطمير ، إن الملك والتصرف كله إلا لله عز وجل ، فكيف تعبدون معه غيره وتشركون به ؟ " [(١)] .

ولا ينبغي ادعاء أن كلمة (**أَسْتَجِبْ لَكُمْ**) في الآية قرينة واضحة على أن المقصود دعاء المسألة ، لأن من الواضح أن البشر مارسوا عباداتهم وطقوسهم - والتي عبر عنها في القرآن بالدعاء - كي يتقربوا إلى الآلهة ويكونوا محظوظين عندهم مستجابي الدعاء ، فلذا من الطبيعي أن يقال لهم اعبدوا الله وحده بمعنى اذكروه وصلوا له كي يستجيب لكم ويقضي حوائجكم ، فإنما يستجاب للمصلي الصائم المزكي .

والمعنى في قوله تعالى ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ** ﴾ ومن أضل ممن يعبد من دون الله من لا تحدث عبادته أي ردة فعل عند المعبود ، فلا يكون هذا العابد محظيا مستجاب الدعاء عند المعبود لأنه جماد غافل عن عبادته له .

وما روي عنه ﷺ: " من سره أن يستجاب له عند الكرب والشدائد فليكثر الدعاء في الرخاء " [(٢)] يقرب ما نريده قوله هنا ، فهو يستجاب له في الشدائد أي عندما تضيق عليه الأمور وتشتد عليه الحاجة ولكن بشرط أن يكون في حال الرخاء منشغلا بعبادته الله في حال الرخاء وهو ما عبر عنه في الخبر بقوله ﷺ: فليكثر الدعاء حال الرخاء .

وبمعناه ما رواه الكافي عن الصادق عليه السلام : " من تقدم في الدعاء استجيب له إذا نزل به البلاء وقالت الملائكة صوت معروف ولم يحجب عن السماء ، ومن

---

(١) تفسير ابن كثير ج٤ ص ١٦٦ .

(٢) المستدرك على الصحيحين ج١ ص٧٢٩ قال الحاكم : حديث صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي .

لم يتقدم في الدعاء لم يستجب له إذا نزل البلاء وقالت الملائكة : إن هذا الصوت لا نعرفه " [١] .

يدعو مع الله أو من دون الله بمعنى يتخذ أو يعبد إلها مع الله .

الآيات التي نذكرها هنا هي في الغالب مرددة بين معنى اتخاذ إله من دون الله أو بمعنى عبادة غير الله ، واحتمال النداء والطلب فيها إما معدوم أو موهوم .

١- ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما ﴾ الفرقان/٦٨ .

ما يدل على أن الكلمة هنا بمعنى اتخذ وجعل هو تكرار ما يرادف ذلك في القرآن كقوله تعالى ﴿ **وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ** ﴾ الذاريات/٥١ ، وكذلك ما رواه البخاري في سبب نزول الآية عن عبدالله يبين أن يدعون بمعنى يجعلون ويزعمون إن لله شريكا ، قال : سألت أو سئل رسول الله ﷺ : أي الذنب عند الله أكبر ؟ ، قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك ، قلت : ثم أي ؟ قال : ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ، قلت : ثم أي ؟ قال : أن تزاني بحليلة جارك ، قال : ونزلت هذه الآية تصديقا لقول رسول الله ﷺ ﴿ **وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ** ﴾ " [٢].

قال ابن حجر : " قوله ﴿ **وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ** ﴾ أشار بإيرادها إلى ما وقع في بعض طرق الحديث المرفوع في الباب كما تقدم في تفسير سورة الفرقان ، ففيه بعد قوله " أن تزاني بحليلة جارك " ونزلت هذه الآية

---

(١) الكافي ج٢ ص ٤٧٢ ، وصححه المجلسي في مرآة العقول ج١٢ ص ٢٢ .

(٢) صحيح البخاري ج٦ ص ١٣٧- ١٣٨ .

تصديقا لقول رسول الله ﷺ ﴿ **وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ** ﴾ الآية ، وكأن المصنف أشار بها إلى تفسير الجعل المذكور في الآيتين قبلها وأن المراد الدعاء إما بمعنى النداء وإما بمعنى العبادة وإما بمعنى الاعتقاد " [١] .

قال الطبري : " يقول تعالى ذكره : والذين لا يعبدون مع الله إلها آخر فيشركون في عبادتهم إياه ، ولكنهم يخلصون له العبادة ويفردونه بالطاعة ... ، عن عبدالله قال : سألت النبي ﷺ : ما الكبائر ؟ قال : أن تدعو لله ندا وهو خلقك ، وأن تقتل ولدك من أجل أن يأكل معك ، وأن تزني بحليلة جارك ، وقرأ رسول الله من كتاب الله ﴿ **وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ** ﴾ " [٢] .

قال ابن الجوزي : " وقوله ﴿ **يَدْعُونَ** ﴾ معناه يعبدون " [٣] .

٢- ﴿ **فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ** ﴾ الشعراء/٢١٣ .

يدل على ذلك قول ابن الجوزي وما رواه عن ابن عباس : " قوله تعالى ﴿ **فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ** ﴾ ، قال ابن عباس : يحذر به غيره يقول : أنت أكرم الخلق عليّ لو اتخذت من دوني إلها لعذبتك " [٤] ، ففسر ﴿ **فَلَا تَدْعُ** ﴾ بقوله : لو اتخذت من دوني إلها .

وكذلك الطبري فسرها بالعبادة : " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ ﴿ **فَلَا تَدْعُ** ﴾ يا محمد ﴿ **مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ** ﴾ أي لا تعبد معه معبودا غيره ﴿ **فَتَكُونَ**

---

(١) فتح الباري ج١٣ ص ٤٩٤ .

(٢) تفسير الطبري المجلد ١١ ، ج١٩ ص ٥٢- ٥٣ .

(٣) زاد المسير ج٦ ص ٢٧ .

(٤) المصدر السابق ج٦ ص ٥٥ .

مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ فينزل بك من العذاب ما نزل بهؤلاء الذين خالفوا أمرنا وعبدوا غيرنا " [١] .

قال ابن كثير في تفسيره : " يقول تعالى آمرا بعبادته وحده لا شريك له ومخبرا أن من أشرك به عذبه " [٢] .

ومثل آية الشعراء هنا قوله تعالى في سور القصص ﴿ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ القصص/٨٨ .

قال الطبري عند تفسيرها : " يقول تعالى ذكره ولا تعبد يا محمد مع معبودك الذي له عبادة كل شيء معبودا آخر سواه وقوله ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ يقول : لا معبود تصلح له العبادة إلا الله الذي كل شيء هالك إلا وجهه " [٣] .

٣- ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ الصافات/ ١٢٥ .

قال الطبري مفسرا قول إلياس عليه السلام في الآية : " يقول حين قال لقومه في بني إسرائيل : ألا تتقون الله أيها القوم ، فتخافونه وتحذرون عقوبته على عبادتكم ربا غير الله وإلها سواه ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ ، يقول : وتدعون عبادة أحسن من قيل له خالق ، ... ... قال ابن زيد في قوله ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ قال : بعل صنم كانوا يعبدون ، كانوا ببعلك ، وهم وراء

(١) تفسير الطبري ، المجلد الحادي عشر ، ج١٩ ص ١٤٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص ٣٦٢ .

(٣) تفسير الطبري ، المجلد الحادي عشر ، ج١٩ ص ١٥٥ .

دمشق ، وكان البعل الذي كانوا يعبدون ، وقال آخرون : كان بعل امرأة كانوا يعبدونها ... " [١] .

قال البغوي : " ﴿ أَتَدْعُونَ ﴾ أتعبدون ﴿ بَعْلًا ﴾ وهو اسم صنم لهم كانوا يعبدونه ، ولذلك سميت مدينتهم بعلبك ... ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ فلا تعبدونه " [٢] .

وقال ابن كثير في تفسيره : " وقوله تعالى ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ أي أتعبدون صنما ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ۞ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له " [٣] .

٤- ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ الأنعام / ٥٢ .

قال الطبري : " واختلف أهل التأويل في الدعاء الذي كان هؤلاء الرهط الذين نهى الله نبيه ﷺ عن طردهم يدعون ربهم به ، فقال بعضهم : هي الصلوات الخمس ، ذكر من قال ذلك : ... عن ابن عباس : قوله ﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ يعني يعبدون ربهم بالغداة والعشي يعني الصلوات المكتوبة ... وقال آخرون : هي الصلاة ، ولكن القوم لم يسألوا رسول الله ﷺ طرد هؤلاء الضعفاء عن مجلسه ولا تأخيرهم عن مجلسه وإنما سألوه تأخيرهم عن الصف الأول ... وقال آخرون : بل معنى دعائهم كان ذكرهم الله تعالى ... وقال آخرون : بل كان ذلك تعلمهم القرآن وقراءته ...

---

(١) تفسير الطبري ، المجلد ١٢ ، ج٢٣ ص ١١٠ - ١١١ ، والظاهر أن الصحيح كانوا ببعلبك .

(٢) تفسير البغوي ج٤ ص ٣٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ج٤ ص ٢٢ .

وقال آخرون : بل عنى بدعائهم ربه عبادتهم إياه ... عبيد بن سليمان قال : سمعت الضحاك يقول في قوله ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ قال : يعني يعبدون ألا ترى أنه قال ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ يعني تعبدونه ...

والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن الله تعالى نهى نبيه محمدا ﷺ أن يطرد قوما كانوا يدعون ربهم بالغداة والعشي ، والدعاء لله يكون بذكره وتمجيده والثناء عليه قولا وكلاما ، وقد يكون بالعمل له بالجوارح الأعمال التي كان عليهم فرضها وغيرها من النوافل التي ترضي والعامل لها عابده بما هو عامل له ، وقد يجوز أن يكون القوم كانوا جامعين هذه المعاني كلها فوصفهم الله بذلك بأنهم يدعونه بالغداة والعشي لأن الله قد سمى العبادة دعاء فقال تعالى ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ " [(١)] .

قال ابن كثير : " وقوله ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ أي يعبدونه ويسألونه ﴿ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ ، قال سعيد بن المسيب ومجاهد والحسن وقتادة : المراد به الصلاة المكتوبة ، وهذا كقوله ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ أي أتقبل منكم " [(٢)] .

ولهذا الاستظهار قال ابن الجوزي في الآيات التي بعدها أي قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ الأنعام/٥٦ : " وفي معنى ﴿ تدعُونَ ﴾ قولان : أحدهما تدعونهم آلهة ، والثاني تعبدون قاله ابن عباس ، فتردد المعنى بين التسمية والعبادة " [(٣)] .

---

(١) تفسير الطبري ، المجلد الخامس ج٧ ص ٢٦٥ – ٢٦٩ ، والأقوال ذكرها في زاد المسير ج٣ ص ٣٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص ١٣٩ .

(٣) زاد المسير ج٣ ص ٤٠ .

ومثل الآية المذكورة قوله تعالى ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ الكهف/٢٨ .

٥- ﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا ﴾ الأنعام/ ٧١ .

قال الطبري : " يقول له تعالى ذكره : قل يا محمد لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان والأنداد والآمرين لك بإتباع دينهم وعبادة الأصنام معهم : أندعو من دون الله حجرا أو خشبا لا يقدر على نفعنا أو ضرنا ، فنخصه بالعبادة دون الله ، وندع عبادة الذي بيده الضر والنفع والحياة والموت " [١] .

قال ابن الجوزي : " قوله تعالى ﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ ﴾ أي أنعبد ما لا يضرنا إن لم نعبده ، ولا ينفعنا إن عبدناه وهي الأصنام " [٢] .

٦- ﴿ وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ الأنعام/ ١٠٨ .

وفي سبب النزول المذكور دليل على أن يدعون بمعنى يعبدون ، قال ابن الجوزي : " في سبب نزولها قولان : أحدهما : إنه لما قال للمشركين ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ قالوا : لتنتهين يا محمد عن سب آلهتنا وعيبها أو لنهجون إلهك الذي تعبده فنزلت هذه الآية ... ومعنى ﴿ يَدْعُونَ ﴾ يعبدون وهي الأصنام " [٣] .

---

(١) تفسير الطبري ، المجلد الخامس ، ج٧ ص ٣٠٦ .

(٢) زاد المسير ج٣ ص٥١ .

(٣) المصدر السابق ج٣ ص ٧٨ - ٧٩ .

٧- ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ ﴾ الأعراف/٣٧ .

قال الطبري :

" يقول قالت الرسل أين الذين كنتم تدعونهم أولياء من دون الله وتعبدونهم ... فقالوا : ضل عنا أولياؤنا الذين كنا ندعو من دون الله " [١] .

قال البغوي : " ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ ﴾ تعبدون ﴿ مِن دُونِ اللّهِ ﴾ سؤال تبكيت وتقريع " ، وكذلك قال ابن الجوزي [٢] .

٨- ﴿ أَلا إِنَّ لِلّهِ مَن فِي السَّمَاوَات وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ يونس/٦٦ .

قال الطبري : " ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء ﴾ يقول جل ثناؤه وأي شيء يتبع من يدعو من دون الله يعني غير الله وسواه شركاء ومعنى الكلام : أي شيء يتبع من يقول لله شركاء في سلطانه وملكه كاذبا والله المنفرد بملك كل شيء في سماء كان أو أرض " [٣] .

قال ابن كثير : " ثم أخبر تعالى أن له ملك السماوات والأرض وأن المشركين يعبدون الأصنام وهي لا تملك شيئا لا ضرا ولا نفعا ولا دليل لهم على عبادتها بل إنما يتبعون ظنونهم وتخرصهم وكذبهم وإفكهم " [٤] .

---

(١) تفسير الطبري ، المجلد الخامس ، ج ٨ ص ٢٢٦ .

(٢) تفسير البغوي ج٢ ص١٣٢ ، زاد المسير ج٣ ص١٤٨ .

(٣) تفسير الطبري ، المجلد السابع ، ج١١ ص ١٨٢ .

(٤) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٤٤٠ .

٩- ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ هود/١٠١.

قال الطبري : " ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ يقول : فما دفعت عنهم آلهتهم التي يدعونها من دون الله ويدعونها أربابا من عقاب الله " (١) .

قال ابن كثير : " ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ ﴾ أوثانهم التي يعبدونها ويدعونها ﴿ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ ما نفعوهم ولا أنقذوهم لما جاء أمر الله بإهلاكهم " (٢) .

١٠- ﴿ وَإِذَا رَأى الَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَاءهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَؤُلاء شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ النحل/٨٦ .

قال الطبري : " يقول تعالى ذكره : وإذا رأى المشركون بالله يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دون الله من الآلهة والأوثان وغير ذلك قالوا : ربنا هؤلاء شركاؤنا في الكفر بك ، والشركاء الذين كنا ندعوهم آلهة من دونك " (٣) .

قال البغوي : " ﴿ وَإِذَا رَأى الَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ يوم القيامة ﴿ شُرَكَاءهُمْ ﴾ أوثانهم ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا هَؤُلاء شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوْ مِن دُونِكَ ﴾ أربابا ونعبدهم ﴿ فَأَلْقَوْا ﴾ يعني الأوثان ﴿ إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ ﴾ أي قالوا لهم ﴿ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ في تسميتنا آلهة ما دعوناكم إلى عبادتنا " (٤) .

---

(١) تفسير الطبري ، المجلد السابع ، ج١٢ ص ١٤٧ .
(٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٤٧٥ .
(٣) تفسير الطبري ، المجلد الثامن ، ج١٤ ص ٢٠٨- ٢٠٩ .
(٤) تفسير البغوي ج٣ ص٦٧ .

قال ابن الجوزي : " قوله تعالى ﴿ وَإِذَا رَأى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءهُمْ ﴾ يعني الأصنام التي جعلوها شركاء لله في العبادة ، وذلك أن الله يبعث كل معبود من دونه فيقول المشركون ﴿ رَبَّنَا هَؤُلاء شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوْ ﴾ أي نعبد من دونك " [١] .

قال ابن كثير : " ثم أخبر تعالى عن تبري آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها فقال ﴿ وَإِذَا رَأى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءهُمْ ﴾ أي الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا هَؤُلاء شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي قالت لهم الآلهة كذبتم ما نحن أمرناكم بعبادتنا كما قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۞ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ " [٢] .

١١- ﴿ قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ الإسراء/٥٧ .

روى الطبري : " عن ابن عباس قوله ﴿ قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً ﴾ قال : كان أهل الشرك يقولون : نعبد الملائكة وعزيرا وهم الذين يدعون ، يعني الملائكة والمسيح وعزيرا .

(١) زاد المسير ج٤ ص ٣٦٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٦٠٢- ٦٠٣ .

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** ﴾ ، يقول تعالى ذكره : هؤلاء الذين يدعوهم هؤلاء المشركون أربابا ﴿ **يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ** ﴾ يقول : يبتغي المدعوون أربابا إلى ربهم القربة والزلفة ، لأنهم أهل إيمان به والمشركون يعبدونهم من دون الله " (١) .

وقد روى مسلم ما يوضح أن يدعون في الآية بمعنى يعبدون عن عبدالله بن مسعود ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ** ﴾ ، قال : كان نفر من الإنس يعبدون نفرا من الجن ، فأسلم النفر من الجن ، واستمسك الإنس بعبادتهم ، فنزلت ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ** ﴾ " (٢) .

قال البغوي : " ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ** ﴾ يعني الذين يدعونهم المشركون أنهم آلهة يعبدونهم " (٣) .

قال ابن الجوزي : " وفي معنى ﴿ **يَدْعُونَ** ﴾ قولان : أحدهما : يعبدون أي يدعونهم آلهة وهذا قول الأكثرين ، والثاني : أنه بمعنى يتضرعون إلى الله في طلب الوسيلة " ، ونقل عن ابن الأنباري أن ﴿ **يَدْعُونَ** ﴾ يدعونهم آلهة " (٤) .

قال ابن كثير : " وقوله تعالى ﴿ **وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ** ﴾ لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء فبالخوف ينكف عن المناهي وبالرجاء يكثر من الطاعات " (٥) .

---

(١) تفسير الطبري ، المجلد التاسع ، ج١٥ ص ١٣٠ .

(٢) صحيح مسلم ج٤ ص٢٣٢١ ، رواه البخاري في صحيحه ج٦ ص ١٠٧ .

(٣) تفسير البغوي ج٣ ص ٩٩ .

(٤) زاد المسير ج٣ ص٥ ص ٣٧- ٣٨ .

(٥) تفسير ابن كثير ج٣ ص ٥٠ .

١٢- ﴿ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ۞ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴾ الحج/١٢- ١٣

قال الطبري في تفسيره : " وإن أصابت هذا الذي يعبد الله على حرف فتنة ، ارتد عن دين الله يدعو من دون الله آلهة لا تضره إن لم يعبدها في الدنيا ، ولا تنفعه في الآخرة إن عبدها " [1] .

قال البغوي : " ﴿ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ ﴾ إن عصاه ولم يعبده ﴿ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ﴾ إن أطاعه وعبده ﴿ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾ عن الحق والرشد " [2] .

قال ابن الجوزي : " ﴿ يَدْعُو ﴾ هذا المرتد ، أي يعبد ﴿ مَا لَا يَضُرُّهُ ﴾ إن لم يعبده ﴿ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ﴾ إن أطاعه " [3] .

١٣- ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ الحج/٦٢.

قال الطبري : " يقول لهم تعالى ذكره : أفتتركون أيها الجهال عبادة من منه النفع وبيده الضر وهو القادر على كل شيء وكل شيء دونه وتعبدون الباطل الذي لا تنفعكم عبادته " [4] .

قال ابن الجوزي : " والمعنى : وأن ما يعبدون ﴿ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ " [5] .

(١) تفسير الطبري ، المجلد العاشر ، ج١٧ ص ١٦٣ .
(٢) تفسير البغوي ج٣ ص ٢٣٣ .
(٣) زاد المسير ج٥ ص ٣٠١ .
(٤) تفسير الطبري ، المجلد العاشر ، ج١٧ ص ٢٥٧ .
(٥) زاد المسير ج٥ ص ٣٢٦ .

١٤- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ الحج/٧٣ .

قال الطبري : " ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا ﴾ يقول : إن جميع ما تعبدون من دون الله من الآلهة والأصنام لو اجتمعت لم يخلقوا ذبابا في صغره وقلته "[(١)] ، وقال ابن الجوزي: " ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ ﴾ أي تعبدون ﴿ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ "[(٢)] .

قال ابن كثير : " ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ ﴾ أي لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به ﴿ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ ﴾ أي أنصتوا وتفهموا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ أي لو اجتمع مع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك "[(٣)] .

١٥- ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ العنكبوت/٤١- ٤٢ .

قال الطبري في تفسيره : " فتأويل الكلام إذ كان الأمر كما وصفنا : إن الله يعلم أيها القوم حال ما تعبدون من دونه من شيء ، وأن ذلك لا ينفعكم ولا يضركم "[(٤)] .

---

(١) تفسير الطبري ، المجلد العاشر ، ج١٧ ص ٢٦٥ .

(٢) زاد المسير ج٥ ص ٣٢٨.

(٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص ٢٤٥- ٢٤٦ .

(٤) تفسير الطبري ، المجلد الحادي عشر ، ج٢٠ ص ١٨٧ .

قال ابن الجوزي : " قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي هو عالم بما عبدوه من دونه لا يخفى عليه ذلك والمعنى أنه يجازيهم على كفرهم " [١] .

قال ابن كثير : " ثم قال تعالى متوعدا لمن عبد غيره وأشرك به أنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ويعلم ما يشركون به من الأنداد وسيجزيهم وصفهم ، إنه حكيم عليم " [٢] .

١٦- ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۞ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾ فاطر/١٣- ١٤ .

قال الطبري : " وقوله ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ يقول تعالى ذكره : والذين تعبدون أيها الناس من دون ربكم ... " [٣] ، وباقي الآية ظاهر في دعاء المسألة .

١٧- ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ فاطر/ ٤٠ .

قال ابن الجوزي : " قوله تعالى ﴿ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ ﴾ المعنى : أخبروني عن الذين عبدتم من دون الله واتخذتموهم شركاء بزعمكم بأي شيء أوجبتم لهم الشركة في العبادة ؟ أبشيء خلقوه من الأرض أم شاركوا خالق السماوات في خلقها ؟ " [٤] .

---

(١) زاد المسير ج٦ ص ١٣٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص ٤٢٤ .

(٣) تفسير الطبري ، المجلد الثاني عشر ، ج ٢٢ ص ١٤٩ .

(٤) زاد المسير ج٦ ص ٢٦٨ .

١٨- ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾ الزمر/٣٨ .

قال الطبري : " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ ... فقل : أرأيتم أيها القوم هذا الذي تعبدون من دون الله من الأصنام والآلهة ... " (١) .

قال ابن الجوزي : " ثم أخبر أنهم مع عبادتهم يقرون أنه الخالق ، ثم أمر أن يحتج عليهم بأن ما يعبدون لا يملك كشف ضر ولا جلب خير " (٢) .

قال ابن كثير : " وقوله تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ يعني المشركين كانوا يعترفون بأن الله عز وجل هو الخالق للأشياء كلها ومع هذا يعبدون معه غيره مما لا يملك له ضرا ولا نفعا ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾ " (٣) .

١٩- ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾ غافر/ ٢٠ .

قال الطبري : " وقوله ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾ يقول : والأوثان والآلهة التي يعبدها هؤلاء المشركون بالله من قومك من دونه لا يقضون بشيء ، لأنها لا تعلم شيئا ولا تقدر على شيء " (٤) .

(١) تفسير الطبري ، المجلد الثاني عشر ، ج٢٤ ص ١٠ .

(٢) زاد المسير ج٧ ص ٥٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤ ص ٥٩ .

(٤) تفسير الطبري ، المجلد الثاني عشر ، ج٢٤ ص ٦٩ .

٢٠- ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّـهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي ﴾ غافر / ٦٦ .

قال ابن كثير : " يقول تبارك وتعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين إن الله عز وجل ينهى أن يعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان ، وقد بين تبارك وتعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه " [1] .

٢١- ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُون ﴾ الزخرف / ٨٦ - ٨٧ .

قال الطبري : " وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله تعالى ذكره أخبر أنه لا يملك الذين يعبدهم المشركون من دون الله الشفاعة عنده لأحد إلا من شهد بالحق " [2] .

قال البغوي : " ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ ﴾ وهم عيسى وعزير والملائكة فإنهم عبدوا من دون الله " [3] .

خلاصة وحصيلة العرض السابق

المهم بهذا العرض يظهر سخف الاستدلال على شرك من يدعو الأنبياء أو الأولياء دعاء مسألة بمثل قوله تعالى ﴿ أَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّـهِ أَحَدًا ﴾ الجن/١٨ أو قوله تعالى ﴿ وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ

(١) تفسير ابن كثير ج٤ ص ٩٤ .

(٢) تفسير الطبري ، المجلد الثالث عشر ، ج٢٥ ص ١٣٥ .

(٣) تفسير البغوي ج٤ ص١٣٢ ، ومثله ابن الجوزي في (زاد المسير) ج٧ص ١٤٧ .

يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴾ يونس/١٠٦ كما في استدلالات ابن عبدالوهاب [١] ، فمن الواضح أنها آيات تتحدث عن دعاء العبادة لا دعاء المسألة ، ولا يشك أحد بأن من يدعو غير الله دعاء عبادة مشرك .

ابن تيمية يصرح بكل ما سبق

ولقد ذكر ابن تيمية ما سبق كله ، وأقر بتنوع الآيات التي فيها مفردة الدعاء ، فيقصد بها تارة دعاء العبادة وتارة أخرى دعاء المسألة وتارة تبقى الآية مرددة بين الاحتمالين ، نعم هو حاول أن يقول إن الآيات المرددة بين الاحتمالين استعملت في معنى جامع بينهما كما ادعى أن هناك تلازما بين الأمرين ، قال :

" المعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضر ، فهو يدعو للنفع والضر دعاء المسألة ، ويدعو خوفا ورجاء دعاء العبادة ، فعلم أن النوعين متلازمان ، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة ، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة .

وعلى هذا ، فقوله ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ البقرة/١٨٦ يتناول نوعي الدعاء وبكل منهما فسرت الآية ، قيل : أعطيه إذا سألني ، وقيل : أثيبه إذا عبدني ، والقولان متلازمان ، وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه ، بل هذا استعماله في حقيقته المتضمنة للأمرين جميعا ، فتأمله فإنه موضوع عظيم النفع ، وقلما يفطن له ، وأكثر آيات القرآن دالة على معنيين فصاعدا فهي من هذا القبيل ...

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ **قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ** ﴾ الفرقان/٦٠ أي دعاؤكم إياه ، وقيل : دعاؤه إياكم إلى عبادته فيكون المصدر مضافا إلى المفعول

---

(١) شرح كشف الشبهات ص ٩٣ ، والتوحيد ص ٣٢ .

ومحل الأول مضافا إلى الفاعل ، وهو الأرجح من القولين ، وعلى هذا فالمراد به نوعي الدعاء ، وهو في دعاء العبادة أظهر ، أي : ما يعبأ بكم لولا أنكم ترجونه ، وعبادته تستلزم مسألته فالنوعان داخلان فيه .

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ غافر/٦٠ فالدعاء يتضمن النوعين ، وهو في دعاء العبادة أظهر ، ولهذا أعقبه ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي** ﴾ الآية ، ويفسر الدعاء في الآية بهذا وهذا .

وروى الترمذي عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول – على المنبر : إن الدعاء هو العبادة ، ثم قرأ قوله تعالى ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ الآية ، قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

وأما قوله تعالى ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ** ﴾ الحج/٧٣ وقوله ﴿ **إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا** ﴾ النساء/١١٧ ، وقوله ﴿ **وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ** ﴾ فصلت/٤٨ ، وكل موضع ذكر فيه دعاء المشركين لأوثانهم ، فالمراد به دعاء العبادة المتضمن دعاء المسألة فهو في دعاء العبادة أظهر لوجوه ثلاثة :

أحدها : إنهم قالوا ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى** ﴾ الزمر/٣ فاعترفوا بأن دعاءهم إياهم عبادتهم لهم .

الثاني : أن الله – تعالى – فسّر هذا الدعاء في موضع آخر كقوله تعالى ﴿ **وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۞ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ** ﴾ الشعراء/٩٢- ٩٣ وقوله ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا**

﴿ وَارِدُونَ ﴾ الأنبياء/٩٨ وقوله تعالى ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ الكافرون/٢ فدعاؤهم لآلهتهم هو عبادتهم .

الثالث : أنهم كانوا يعبدونها في الرخاء فإذا جاءتهم الشدائد دعوا الله وحده وتركوها ، ومع هذا فكانوا يسألونها بعض حوائجهم ويطلبون منها ، وكان دعاؤهم لها دعاء عبادة ودعاء مسألة .

وقوله تعالى ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ غافر/١٤ هو دعاء العبادة ، والمعنى : اعبدوه وحده واخلصوا عبادته لا تعبدوا معه غيره .

وأما قول إبراهيم عليه السلام ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء ﴾ إبراهيم/٣٩ فالمراد بالسمع ههنا السمع الخاص ، وهو سمع الإجابة والقبول لا السمع العام ، لأنه سميع لكل مسموع وإذا كان كذلك ، فالدعاء – دعاء العبادة ودعاء الطلب – وسمع الرب – تعالى – له إثباته على الثناء وإجابته للطلب فهو سميع هذا وهذا .

وأما قول زكريا عليه السلام ﴿ وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ مريم/٤ فقد قيل : إنه دعاء المسألة والمعنى : أنك عودتني إجابتك ولم تشقني بالرد والحرمان ، فهو توسل إليه – سبحانه وتعالى – بما سلف من إجابته وإحسانه وهذا ظاهر ههنا .

وأما قوله تعالى ﴿ قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ ﴾ الإسراء/١١ ، فهذا الدعاء المشهور أنه دعاء المسألة ، وهو سبب النزول ، قالوا : كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدعو ربه فيقول مرة : (يا الله) ومرة : (يا رحمن) ، فظن المشركون أنه يدعو إلهين ، فأنزل الله هذه الآية .

وأما قوله ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ الطور/٢٨ ، فهذا دعاء العبادة المتضمن للسلوك رغبة ورهبة ، والمعنى : إنا كنا نخلص له العبادة ، وبهذا استحقوا أن وقاهم الله عذاب السموم لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجي وغيره ، فإنه – سبحانه – يسأله من في السماوات والأرض ﴿ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا ﴾ الكهف/١٤ أي : لن نعبد غيره ، وكذا قوله ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ الصافات/١٢٥ .

وأما قوله : ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءكُمْ فَدَعَوْهُمْ ﴾ القصص/ ٦٤ فهذا دعاء المسألة ، يكبتهم الله ويخزيهم يوم القيامة بآرائهم أن شركاءهم لا يستجيبون لهم دعوتهم ، وليس المراد اعبدوهم ، وهو نظير قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ الكهف/ ٥٢ "[١] .

تميز في استدلالات ابن تيمية

ولالتفات ابن تيمية إلى تعدد معاني كلمة دعا في القرآن لا تجده يستدل بالآيات لمجرد وجود كلمة الدعاء أو أحد مشتقاتها فيها ، بل هو يقتصر في الاستدلال على الآيات التي يراها ظاهرة في دعاء المسألة كما في الآية الأخيرة التي ذكرها في حديثه المنقول آنفا ، فهذا ما تجده في قوله : " وهذا ونحوه مما يبين إن الذين يدعون الأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم من المشركين الذين يدعون غير الله كالذين يدعون الكواكب والذين اتخذوا الملائكة والنبيين أربابا قال تعالى ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللّهِ ... ﴾ ... ، وقال تعالى ﴿ قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ وقال تعالى ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ... ... ﴾ ومثل ذلك كثير في القرآن ينهى أن يدعى غير الله لا من الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم فإن هذا شرك أو ذريعة إلى الشرك "[٢] .

---

(١) مجموعة الفتاوي ج ١٥ ص ١٠- ١٢ ، والظاهر أن كلمة (بآرائهم) تصحيف والصحيح (بإرائتهم) .

(٢) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص ٣٢ - ٣٣ .

ولكن الإشكال الذي يرد على ابن تيمية هنا هو أن ظاهر الآيتين هنا وآية ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءكُمْ ﴾ ومنطوقها جميعا أن الله يستهزئ بهم ويطلب منهم أن يدعوا آلهتهم ويطلبوا منها أن تنقذهم ، فيدركوا أنها لا تنفعهم في أوقات الشدة وأهمها يوم القيامة .

فكيف يعد هذا المقدار من المنطوق القرآني دليلا على أن ما أوجب وقوعهم في الشرك هو دعاؤهم الآلهة دعاء المسألة ؟! فالقرآن يقول للمشركين الذين عبدوا الآلهة في الدنيا : اسألوا معبوداتكم التي كنتم تعبدونها في الدنيا وتطلبون نفعها وترجون شفاعتها لنرى هل تستجيب لكم وتنفعكم في شيء ، كيف يكون لهذا المقدار من الآية دلالة على أن ما أوجب وقوعهم في الشرك هو دعاء الآلهة دعاء المسألة وطلب الحاجة منها ؟!

وحصيلة البحث أنك ترى غير ابن تيمية يستدل بالآيات العديدة التي تنهى عن دعاء غير الله وتذم المشركين لدعائهم غير الله بنفس النحو الذي تنهي عن عبادة غير الله مما أوجب يقينا في نظرهم بأن دعاء غير الله - دعاء المسألة - يساوي عبادة غير الله ، ولكن مشكلتهم أن الآيات التي يستدلون بها تتحدث عن دعاء العبادة لا دعاء المسألة .

وأما ابن تيمية فهو يستدل بآيات تتحدث عن دعاء المسألة ، ولكن المقدار الذي فيها أن الله يستهزئ بهم ويطلب منهم دعاء آلهتهم المزعومة والاستنجاد بها ، فأين الدليل على أن الطلب والاستنجاد بها هو الذي حقق الشرك ، بل الآية تريد أن تنبههم وتذكرهم بعقيدتهم الباطلة بأن الآلهة تشفع لهم في مثل هذه النازلة ، فتقول الآيات استهزاء بهم اطلبوا منها أن تشفع لكم لنرى هل

يؤثر ذلك وينجيكم ، فأين نفهم أن شركهم تحقق هنا بسبب دعاء المسألة الذي دعي إليه استهزاء ؟!

نعم الآيات تذم ما كانوا يفعلون في الدنيا من اتخاذ الآلهة من دون الله ، ولكن بعبارة هي ﴿ **ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِه** ﴾ ، وهي مطلب يتكرر في القرآن بصيغة أخرى في قوله تعالى ﴿ **وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ** ﴾ الكهف/٥٢ وبصيغة ثالثة في قوله تعالى ﴿ **وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء** ﴾ الأنعام/٩٤ ، فالآيات تتحدث عن الآلهة التي كانوا يعبدون ، ولكن من أي مقطع يستفاد بأن موجب الشرك هو دعاء تلك الآلهة دعاء المسألة ؟!

وأقرب الآيات لها من حيث المعنى قوله تعالى ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ الأعراف/١٩٤ ، فإن الذين زعمتم من دون الله هناك بمعنى الذين تدعون من دون الله هنا ، وهذا يجعله بمعنى قوله تعالى ﴿ **أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا** ﴾ مريم/٩١ ، نعم ﴿ **فَادْعُوهُمْ** ﴾ هو بمعنى النداء ودعاء المسألة وهو بقصد الاستهزاء بهم ، فكيف يستنبط منه تحديد الأمر الذي أوجب سقوطهم في الشرك .

ويحتمل أن الخلل هنا نبع من ربط الأمر بعقيدة المشركين بأن الأصنام تشفع وأن الشفاعة موجب الشرك ، وقد تحدثنا عن هذا الخلل وبينا خطأ اعتبار الشفاعة معيار للشرك فيما سبق عند الحديث آيتي الزلفى والشفعاء ، وقلنا إن الشرك في عبادة تلك الأصنام لا في الاعتقاد بأنها تشفع ، وأما اعتقادهم بأنها تشفع ضلالة نبعت من أنهم اعتقدوا بشفاعتها من دون دليل وبرهان من الله ، فالله لم يأذن بذلك ، فالشفاعة أمرها بيد الله كما يتكرر في عدة آيات .

ويفهم من ذلك أن الله يمكن أن يجعل الشفاعة لبعض البشر ، فإذا كان الشرك يتحقق بمجرد اتخاذ الشفيع ، فكيف يمكن أن يأذن الله به ؟ ألن يكون إذناً وأمرًا بالشرك ، فهل يعقل مثل ذلك وقد ذكر في كتابه العزيز ﴿ **وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ آل عمران / ٨٠ .

هل هناك تلازم بين نوعي الدعاء يمكن أن ينفعهم في الاستدلال ؟

هناك عبارة قالها ابن تيمية ينبغي الوقوف عندها ، وهي قوله : " المعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضر ، فهو يدعو للنفع والضر دعاء المسألة ، ويدعو خوفا ورجاء دعاء العبادة ، فعلم أن النوعين متلازمان ، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة ، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة " وهي في أول العبارة المنقولة آنفا ، فهل يمكن أن يكون هذا دليلا معقولا يكفي للاستدلال بالآيات التي قصدت دعاء العبادة ؟

وقال الفوزان : " والعلاقة بين دعاء العبادة ودعاء المسألة ، أن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة ، فإذا قال : ﴿ **الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ۞ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ** ﴾ يلزم من هذا أنه يسأل الله سبحانه وتعالى ، ودعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة بمعنى أن دعاء العبادة داخل في دعاء المسألة ، فالذي يسأل الله حوائجه يتضمن هذا أنه يعبد الله بذلك "[1] .

وصرح بمثل ذلك آخر من أصحاب هذه الرؤية فقال : " فتبين من تعريف العبادة أن الدين كله داخل في مفهوم العبادة بدون استثناء فالأعمال الاعتقادية

---

(١) إعانة المستفيد ج١ ص ٢٦٨ .

واللفظية والبدنية والمالية كلها من أنواع العبادة ، وأجل ذلك دعاء المسألة فهو مع كونه داخلا في العبادة وواحدا من أفرادها فهو من أجل تلك الأنواع ، ودعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة فهما متلازمان " [1]

والقول بأن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة ، ودعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة كلام غير واضح ، والمعقول منه أن من يرى موجودا ما مستحقا لدعاء عبادة لا شك أنه يراه أهلا لأن يسأل دعاء مسألة ، وأما إذا قصدوا أن دعاء العبادة حينما يحدث يلزم منه حدوث دعاء مسألة فغير صحيح ، إذا قد يسبح المرء ربه ، وليس في ذلك دعاء مسألة حتى يقال لزم من دعاء العبادة دعاء المسألة ، فلا أعرف كيف يلزم من قول ﴿ **الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ وهو من دعاء العبادة دعاء المسألة ؟!!

والقول بأن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة أبعد عن التعقل ، فهل المقصود أن كل من يدعو دعاء مسألة ففعله هذا يتبطن دعاء عبادة للمدعو ؟! بمعنى إذا سألت حاجة من أخيك فدعاء المسألة هذا يتضمن دعاء عبادة له ، أو أن ما ذكره عز وجل في قوله تعالى ﴿ **فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ** ﴾ القصص/ ١٥ وهو دعاء مسألة يعنى أن استغاثة الذي من شيعته تضمنت دعاء عبادة لموسى عليه السلام ؟! نعم يحتمل وجود من يعبد الله بدعائه دعاء مسألة كما نعبد الله نحن بالصلاة والصيام ، لكن أين مثل هذا الإنسان في الواقع الخارجي ؟! فالذي يسأل الله حوائجه يسأله لأنه رب قادر على كل شيء ، ولا يقصد عبادة الله بذلك أبدا ، كما لا يتضمن سؤال غيره شيئا من العبادة لذلك الغير.

---

(١) الواسطة بين الله وخلقه ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

هل للمقولة السابقة معنى معقول ؟! لا أعرف ، على أصحاب هذه الرؤية توضيح الأمر !!

الخلل الثاني

هل يمكن أن يعد دعاء المسألة شركا ؟!

انتقال البحث من دعاء العبادة إلى دعاء المسألة خروج عن بحث الألوهية

إن الخلل كل الخلل في أنهم جعلوا الشرك نوعين شرك ربوبية وشرك ألوهية ، ثم جاءوا إلى أمر لم يتضح دخوله في النوع الأول أو الثاني ومع ذلك اعتبروه شركا ، ونقصد به دعاء المسألة الذي تحدثنا عنه قبل قليل .

وبتقريب آخر نقول : لا شك بأن المسلم لو دعا غير الله دعاء عبادة عد مشركا ، ولكن مشكلة أصحاب هذا الرأي أنهم أقاموا دعواهم بأن المسلمين وقعوا في شرك الألوهية - التي هي الشرك في العبادة - على فرضية اعتبار الدعاء أحد أجلى مصاديق العبادة ، ثم قسموا الدعاء إلى دعاء عبادة ودعاء مسألة بما ظاهره خروج دعاء المسألة عن عنوان العبادة ، فكان عليهم بيان وجه بقائه – دعاء المسألة - تحت عنوان شرك العبادة بعد ذلك ، فلم يفعلوا بل اقتصروا على تقييده بطلب ما لا يقدر عليه إلا الله ، ومجرد تقييده بذلك لا يدخله في سلك العبادة كما سيتبين .

والنتيجة مع خروج دعاء المسألة عن عنوان الألوهية والعبادة أو على الأقل عدم اتضاح اندراجه تحت ذلك العنوان ، كيف يمكن إدراج دعاء غير الله دعاء مسألة تحت شرك الألوهية والعبادة ؟!

فإذا أردنا أن نحكم بشركية دعاء غير الله دعاء مسألة فإما أن نبين وجه دخوله في العبادات أو نخضعه للنوع الآخر من الشرك أي شرك الربوبية - بعد أن

نبين الوجه والدليل على دخوله تحت النوع الآخر – وإن لم يفلحوا في إثبات شيء من ذلك لن يكون دعاء المسألة من الشرك في شيء .

وأما أن يقروا بأن دعاء المسألة غير دعاء العبادة ومع ذلك يصرون على إبقائه تحت عنوان شرك الألوهية وشرك العبادة دون بيان الوجه والدليل على ذلك فهذا العجب الذي صدر مَن هؤلاء .

هل سيندرج دعاء المسألة في العبادات بتقييده بما لا يقدر عليه إلا الله

نعم هم وضعوا لدعاء المسألة الشركي قيدا وهو أن يتعلق السؤال والطلب بما لا يقدر عليه إلا الله ، لكن السؤال المهم هنا هل هذا التقييد يرجع دعاء المسألة إلى حظيرة شرك الألوهية والعبادة ويعد بمجرد ذلك عبادة ؟!

هذا ما لم يتضح من كلماتهم ، فلن يرجع البحث إلى بحث العبادة والألوهية بمجرد هذا القيد ما لم يتحقق مع هذا الدعاء قصد الخضوع العبادي الخاص الذي نجده في الصلاة وغيره من العبادات ، والفرضية الأخيرة لا واقع له في الخارج فليس دعاء المسألة عبادة كما الصلاة عبادة على نحو يتقرب به إلى الله تقربنا بالصلاة والصيام .

ومن غير الواضح إدخالهم إياه في شرك الربوبية وإلا لأدرجوه هناك ، نعم يمكن أن يدخل في شرك الربوبية لو افترضنا أن من يسأل دعاء المسألة ينطلق من الاعتقاد بالقدرات الذاتية للمسئول والمدعو على نحو مستقل عن قدرة الله عز وجل ودون إذنه فهنا سيتحقق الشرك في الربوبية .

وعلى ذلك سيضيع المعيار الذي حكموا على أساسه بشرك من يدعو غير الله دعاء المسألة ، فهل أخل الداعي بتوحيد الألوهية أو توحيد الربوبية ؟! هذا ما لا يمكن تحديده في كومة كلماتهم .

تقييد دعاء المسألة الشركي في كلماتهم

وإليك بعض أقوالهم التي تقيد دعاء المسألة الشركي .

قال ابن عثيمين : " الدعاء ينقسم إلى قسمين :

الأول : دعاء عبادة مثاله الصوم والصلاة ... وهذا القسم كله شرك ... .

الثاني : دعاء المسألة فهذا ليس كله شركا بل فيه تفصيل ، فإن كان المخلوق قادرا على ذلك فليس بشرك ... ... ، وأما من دعا المخلوق بما لا يقدر عليه إلا الله فإن دعوته شرك مخرج عن الملة " (١) .

وقال الفوزان : " الاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى ، فهذه هي الشرك الأكبر لأنها صرف للعبادة لغير الله سبحانه وتعالى .

أما الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه المخلوق الحاضر عنده ، كاستغاثة الإنسان بغيره في الحرب ليساعده ويناصره على عدوه فهذا جائز كما قال الله تعالى عن موسى عليه السلام ﴿ **فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ** ﴾ ، فالاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه – كالاستغاثة بالأموات والغائبين – شرك أكبر ، لأنه يستغيث بمن لا يقدرون على شيء أبدا ، فالذين يستغيثون بالأضرحة وبالأولياء وبالصالحين والأموات أو يستغيثون بالغائبين من الجن أو بالشياطين كل هذا من النوع الممنوع " (٢) .

فلا بد لهم من البحث عن مخرج ، لأن جواز دعاء غير الله دعاء مسألة من مسلمات الدين بل الفطرة الإنسانية ، بل تقوم عليه النصوص ، فدعاء البشر

---

(١) القول المفيد ج١ ص ١٢٠– ١٢١ .

(٢) إعانة المستفيد ج١ ص٢٦٧

لغيرهم واستغاثتهم ببعضهم من المباحات الواضحة والضرورية ، خاصة بعد وضوح الخروج عن بحث شرك الألوهية أصلا .

التقييد يبدأ من كلمات ابن عبدالوهاب نفسه

والارتباك فيما يتعلق بدعاء المسألة يبدأ من ابن عبدالوهاب نفسه ، فهو وإن كان ظاهر كلامه السابق أنه يرى الشرك في مطلق الدعاء ، وذلك عندما قال في المنع من طلب الشفاعة النبي ﷺ : " فإن قال : النبي ﷺ أعطي الشفاعة ، وأنا أطلبه مما أعطاه الله ؟ فالجواب : أن الله أعطاه الشفاعة ، ونهاك عن هذا فقال : ﴿ **فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** ﴾ فإذا كنت تدعو الله أن يشفع نبيه فيك فأطعه في قوله ﴿ **فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا** ﴾ " [(١)] .

ولكنه يرجع ويعترف بأنه لا يمكن منع مطلق الدعاء – ما دام الحديث عن خصوص دعاء المسألة – بل المنع لنوع منه ، فقال : " ولهم شبهة أخرى وهو ما ذكره النبي ﷺ أن الناس يوم القيامة يستغيثون بآدم ثم بنوح ثم بإبراهيم ثم بموسى ثم بعيسى فكلهم يعتذر حتى ينتهوا إلى رسول الله ﷺ قالوا : فهذا يدل على أن الاستغاثة بغير الله ليست شركا .

والجواب : أن نقول سبحان من طبع على قلوب أعدائه ، فإن الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه لا ننكرها ، كما قال الله تعالى في قصة موسى ﴿ **فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ** ﴾ القصص/١٥ ، وكما يستغيث الإنسان بأصحابه في الحرب أو غيره في أشياء يقدر عليها المخلوق ، ونحن

---

(١) شرح كشف الشبهات ص٩٢ – ٩٣ .

أنكرنا استغاثة العبادة التي يفعلونها عند قبور الأولياء أو في غيبتهم في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله "[1] .

وأكد ابن عثيمين في شرح على ذلك قائلا : " وقد أجاب عنها بجوابين :
الأول : أن هذه استغاثة بمخلوق فيما يقدر عليه وهذا لا ينكر لقوله تعالى في قصة موسى ﴿ **فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ** ﴾ .

الثاني : أن الناس لم يستغيثوا بهؤلاء الأنبياء الكرام ليزيلوا عنهم الشدة ، ولكنهم يستشفعون بهم عند الله – عز وجل – ليزيل هذه الشدة ، وهناك فرق بين من يستغيث بالمخلوق ليكشف عنه الضر والسوء ومن يستشفع بالمخلوق إلى الله ليزيل الله عنه ذلك "[2] .

المهم أنك ترى تخصيص الدعاء الممنوع والموجب بالشرك دعاء وطلب الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله كما هو مقتضى قول ابن عبدالوهاب : " ونحن أنكرنا استغاثة العبادة التي يفعلونها عند قبور الأولياء أو في غيبتهم في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله " .

إن المسلم الذي يدعو صاحب القبر بمعنى يسأله ويطلب منه إما يريد شفاعة صاحب القبر عند الله أو أنه يرى أن له قدرة مثل قدرة المسيح على فعل المعجز بإذن الله فيطلب منه ، وقد يكون مخطئا مبتدعا فلا نريد نفي هذا الوصف بل ما يهمنا في هذه المرحلة نفي وصف الشرك ، نعم من يرى أن صاحب القبر قادر

---

(١) شرح كشف الشبهات ص ١٢٥ – ١٢٦ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢٦ .

على نحو مستقل عن الله ومن دون إذنه عز وجل مشرك ولكنه من شرك الربوبية وليس الألوهية .

ففيما سبق عندما قيل لابن عبدالوهاب : إننا نطلب الشفاعة من النبي ﷺ ، رد بقوله : لا تطلبها منه لأن الله نهاك والطلب هنا شرك ، فاعتبر أن مجرد الطلب من غير الله شرك .

وأما هنا فلم يمنع مطلق الطلب والدعاء بل الشرك عنده يتحقق في خصوص طلب ما لا يقدر عليه إلا الله من غيره ، وكما ترى إذا كان الحديث عن طلب الشفاعة من النبي ﷺ ، فمن الواضح أن الشفاعة المطلوبة من النبي ﷺ ليست مما لا يقدر عليه إلا الله بل هو في مقدور النبي كما أن الإغاثة في مقدور موسى عليه السلام .

ولذا ينبغي أن يقال له : سبحان من طبع على قلوب أعدائه ، فإن الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه لا تنكرها ، والشفاعة بمعنى أن يدعى رسول الله ﷺ ويطلب منه سؤال الله كي يقضي حاجة المؤمن المستشفع هو أمر في مقدوره ﷺ ، فلم يطلب منه ﷺ إلا هذا المقدور ، فكيف يصبح الطالب هنا مشركا وأما الطالب المستغيث بموسى عليه السلام لا يعد مشركا ؟! هل الموت هو الذي حول الأمر إلى الشرك مع أن الداعي يعتقد حياة الميت حياة برزخية تمكنه من السماع والطلب من الله ، وتحدثت عدة نصوص عن حياة النبياء في قبورهم .

والمهم يظهر من عبارة ابن عبدالوهاب هنا حديث عن الأمور الخارقة والتي ليست إلا في مقدور الله إذ قال : " ونحن أنكرنا استغاثة العبادة التي يفعلونها عند قبور الأولياء أو في غيبتهم في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله " ، فالحديث عمن طلب ما لا يقدر عليه إلا الله ، وهكذا عبارة ابن عثيمين وهو

يتحدث عن دعاء المسألة قال : " وأما من دعا المخلوق بما لا يقدر عليه إلا الله فإن دعوته شرك مخرج عن الملة " .

وهناك عبارات أخرى لهم يظهر منها أن الحديث عن ما لا يقدر عليه المدعو بما يشمل الأمور التي في مقدور البشر غير أن المدعو لا يقدر عليه لموته أو غيبته لا أنه يشترط أن يكون الأمر المطلوب من الخوارق التي لا يقدر عليها إلا الله .

ولذا قال ابن عثيمين : " وكلام المؤلف رحمه الله ليس على إطلاقه بل يقيد بما لا يقدر عليه المستغاث به إما لكونه ميتا أو غائبا أو يكون الشيء مما لا يقدر على إزالته إلا الله تعالى ، فلو استغاث بميت ليدافع عنه أو بغائب أو بحي حاضر لينزل المطر فهذا كله من الشرك ، ولو استغاث بحي حاضر فيما يقدر عليه كان جائزا " [1] .

فكما تلاحظ هناك شيء آخر وهو أن الأمر قد يكون في مقدور الإنسان وليس من المعاجز ولكن المدعو لا يقدر عليه لموته أو لغيبته ، فيدخل مثل هذا الدعاء في الشرك .

ونحن نقسم الحديث على ضوء الاحتمالين أي المعنى الأول لما يقدر عليه إلا الله وهي الخوارق والمعنى الثاني أي عدم القدرة لموت أو غيبة ، وإن كان لا يصح لغة إطلاق عبارة لا يقدر عليه إلا الله على المعنى الثاني .

أولا : ما لا يقدر عليه إلا الله لأنه من الخوارق

فالمشكلة الأولى التي يواجهها هذا التقييد للدعاء الممنوع والشركي هي أنها لن تنطبق على طلب الشفاعة من المدعو لأنه في مقدور البشر مع أن الوهابية تعتبره من الشرك ؟

(١) شرح كشف الشبهات ج١ ص ٢٦٠

والمشكلة الثانية هي قيام الأدلة الواضحة الصريحة على أن الأنبياء تمكنوا من فعل أمور خارقة لا يقدر عليها إلا الله أصالة وطلب منهم فعل تلك الخوارق من دون أن يتهموا الطالب بالشرك ، فصريح الخبر الذي رواه مسلم في صحيحه أن الناس يطلبون من الأنبياء ويستغيثون بهم يوم القيامة ، وفي الخبر قول رسول الله ﷺ : " فيأتوني " ، فهل هناك معنى لهذا إلا الطلب منه ﷺ يعني يأتوني ويطلبون مني ، فكيف يدعي أنه لا يجوز أن تطلب منه الأمور الخارقة التي ليست إلا في مقدور الله وإلا كانت شركا بالله ، فهل الشفاعة هي التي أوقعت المشركين في الشرك و مع ذلك جازت في هذا الخبر ؟! فكلمة الشفاعة بنفسها مذكورة إذ فيه أن الله عز وجل يقول لرسوله ﷺ : " اشفع تشفع " .

ومفاد الحديث أن رسول الله ﷺ يخرج الناس من النار إلى الجنة ، فقد قدره الله على عمل غير مقدور للبشر أصالة لا أنه دعا الله فقط ، ففي آخر الخبر قال : " قال رسول الله ﷺ فيأتوني ، فأستأذن على ربي ، فيؤذن لي ، فإذا أنا رأيته وقعت ساجدا ، فيدعني ما شاء الله فيقال : يا محمد ارفع رأسك ، قل تسمع ، سل تعطه ، اشفع تشفع ، فأرفع رأسي ، فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ربي ثم أشفع ، فيحد لي حدا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ... "[1] .

ويكفي مثالا على ذلك قدرة المسيح عليه السلام على إحياء الموتى إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله ، ولا شك أن المسلم لا يطلب مثل تلك الأمور التي هي لله إلا أن يعتقد أن المدعو أعطي القدرة من الله عز وجل وبإذنه كالقدرة التي أعطيت للمسيح عليه السلام والمذكورة في قوله تعالى ﴿ **أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ**

(١) صحيح مسلم ج١ ص ١٨١ .

كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِىءُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ ﴾ آل عمران/ ٤٩ ، وهكذا بالنسبة لسليمان عليه السلام إذ قال تعالى ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ ﴾ ص/ ٦٣ ، فوجود مثل تلك القدرات أمر مصرح به في القرآن ، فكيف يمكن تكفير مسلم لاعتقاده بذلك وترتيب الأثر على تلك العقيدة .

ولا يعقل أن يقال وبكل بساطة إن الدعاء وطلب الشفاء حرام على المرضى الذين عاشوا زمن المسيح عليه السلام بل لو طلب الأكمة والأبرص الشفاء من عيسى عليه السلام كان مشركا .

وإذا أراد مكابر أن يصر على ذلك ، نقول له يكفيك أن الذي عنده علم من الكتاب أتى بعرش ملكة سبأ بطلب من سليمان عليه السلام كما في قوله تعالى ﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا المَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ النمل/ ٣٨ فاستجاب الذي عنده علم من الكتاب لطلب سليمان وقام بذلك كما في قوله تعالى ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي ﴾ النمل/ ٤٠ ، فهل أشرك نبي الله سليمان عليه السلام بطلبه هذا ؟! هذا فضلا عن أن بحث جواز طلب ذلك ممن ثبت أن الله قدره على فعل الخارق لا يدخل إلا في بحث الثابت في النصوص من غير الثابت أي بحث السنة والبدعة لا بحث الشرك والتوحيد .

والغريب إن ابن عبدالوهاب أقر بذلك كله – عند جوابه على إشكال أورده – في قصة جبريل وإبراهيم عليهما السلام فقال : " ولهم شبهة أخرى وهي قصة إبراهيم عليه السلام لما ألقي في النار اعترض له جبريل في الهواء فقال : ألك حاجة ؟ فقال إبراهيم : أما إليك فلا ، قالوا : فلو كانت الاستغاثة بجبريل شركا لم يعرضها على إبراهيم .

فالجواب : إن هذا من جنس الشبهة الأولى ، فإن جبريل عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه ، فإنه كما قال الله تعالى فيه ﴿ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ النجم/٥ ، فلو أذن الله له أن يأخذ نار إبراهيم وما حولها من الأرض والجبال ويلقيها في المشرق أو المغرب لفعل ، ولو أمره أن يضع إبراهيم في مكان بعيد عنهم لفعل ، ولو أمره أن يرفعه إلى السماء لفعل ، وهذا كرجل غني له مال كثير يرى رجلا محتاجا فيعرض عليه أن يقرضه أو أن يهبه شيئا يقضي به حاجته فيأبى ذلك الرجل المحتاج أن يأخذ ويصبر إلى أن يأتيه الله برزق لا منة فيه لأحد ، فأين هذا من استغاثة العبادة والشرك لو كانوا يفقهون " [(١)] .

والواضح من جوابه الأخير إنه يقر بأن جبريل قادر هنا وبإذن الله على ما لا يقدر عليه عادة إلا الله ، ولم يجد محيصا من أن يجيب بذلك ولا يمكنه أن يجيب كما أجاب في الاستغاثة بالأنبياء بأنهم يسألون الله أن يفرج عن الناس ، لأن العمل ليس في مقدورهم المباشر .

والأهم في هذا الجواب أنه يعني عدولا عن تقييد تحقق الشرك في الدعاء بكون الأمر المدعو له مما لا يقدر عليه إلا الله [(٢)] إلى القول بأن المخرج عن شرك الدعاء والمانع من تحققه هو ثبوت قدرة المدعو على مثل الأمر ولو كان مثل القدرات الخارقة الثابتة لجبريل عليه السلام والمذكورة في قول ابن عبدالوهاب : " فإن جبريل عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه ، فإنه كما قال الله تعالى فيه ﴿ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ ، فلو أذن الله له أن يأخذ نار إبراهيم وما حولها من الأرض والجبال ويلقيها في المشرق أو المغرب لفعل ... الخ "، فينبغي أن يعدل القيد

---

(١) شرح كشف الشبهات ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٢) المذكور في قول ابن عبدالوهاب : " ونحن أنكرنا استغاثة العبادة التي يفعلونها عند قبور الأولياء أو في غيبتهم في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله " كشف الشبهات ص ١٢٦ .

ويقال دعاء المسألة شرك في الخوارق التي لا يقدر عليها إلا الله و لم يثبت قدرة المدعو عليها بتمكين الله له .

ولذا يتضح الإشكال على مثل عبارة ابن عثيمين وهو يتحدث عن دعاء المسألة وقوله : " وأما من دعا المخلوق بما لا يقدر عليه إلا الله فإن دعوته شرك مخرج عن الملة " [١] ، فكيف يطلق القول بأن دعاء المخلوق بما لا يقدر عليه إلا الله شرك ولا يفصل في ذلك مع إقرارهم بأن جبريل قدره الله على أمور لا يقدر عليها إلا الله ولم يعتبروا الطلب منه شركا ؟!

ألا ينبغي أن يفصل هنا ويقول : وأما من دعا المخلوق بما لا يقدر عليه إلا الله ، فإن اعتقد بأن الله أعطاه هذه القدرة بإذنه فهذا ليس من الشرك وهو دعاء جائز كما هو الحال في قصة جبريل وإبراهيم عليهما السلام وكما لو طلب أحد من المسيح أن يحيى الميت ، ولكنه قد يصيب في عقيدته تلك كما في اعتقاد المسلمين في المسيح عليه السلام ، وقد يخطئ خطأ فاحشا كما لو اعتقد أن القطب الصوفي الفلاني له قدرات كقدرات المسيح عليه السلام ، لا أن يحكم بكفره وشركه لخطئه هذا .

نعم إذا اعتقد بأن ذلك الموجود يفعل ذلك مستقلا عن الله ودون إذنه كان مشركا بلا شك وبإجماع المسلمين ، ولكنه من شرك الربوبية لا شرك الألوهية كما ذكرنا .

ثانيا : ما لا يقدر عليه المدعو لموته أو غيبته

فهذا التقييد الآخر للدعاء الشركي في كلماتهم ، ويقصد به خصوص طلب الأمر المقدور عليه من الميت لو كان حيا كالشفاعة تمييزا له عن المورد السابق ،

(١) القول المفيد ج١ ص ١٢١ .

وقد أدرج ابن تيمية هذا المورد كما قلنا سابقا في البدعة لا في الشرك ، ونكرر عبارته قال : " وقد ذكر علماء الإسلام وأئمة الدين الأدعية الشرعية وأعرضوا عن الأدعية البدعية فينبغي اتباع ذلك والمراتب في هذا الباب ثلاث :

إحداها : أن يدعو غير الله وهو ميت أو غائب سواء كان من الأنبياء والصالحين أو غيرهم ، فيقول : يا سيدي فلان أغثني أو أنا أستجير بك أو أستغيث بك أو انصرني على عدوي ... ، فهذا شرك بهم وإن كان يقع كثير من الناس في بعضه .

الثانية : أن يقال للميت أو الغائب من الأنبياء والصالحين : ادع الله لي أو ادع لنا ربك أو اسأل الله لنا ... ، فهذا أيضا لا يستريب عالم أنه غير جائز وأنه من البدع التي لم يفعلها أحد من سلف الأمة ... " [(١)] .

فكما تلاحظ فقد عد المرتبة الأولى شركا ، وأما المرتبة الثانية - وهو ما نتحدث عنه هنا - فقد عدها من البدع وليس من الشرك .

وهنا نقول أولا : هل يعقل ما قالته الوهابية هنا ؟! فيكون موت أو حياة المستغاث به ضابطة الشرك ومميزا للتوحيد عن الشرك مع افتراض أن الميت كان قادرا على الأمر حال الحياة وقبل الموت ؟ فالحي إذا طلب منه شيء لن يتحقق الشرك ، ولكن نفس الطلب إذا كرر حال موته تحقق الشرك ، لا مجرد أن السائل قام بعمل وطلب سفهي .

وثانيا : نقول هنا ما قلناه في الأمور الخارقة التي لا يقدر عليها إلا الله ، إذ كما ثبت أن الله أعطى بعض مخلوقاته الشريفة كالملائكة والأنبياء القدرة على بعض الخوارق كذلك نقول إن من الأمور الخارجة عن المعتاد التي أعطيت لبعض

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ص١٦٤ - ١٦٥ .

الأنبياء والأولياء هو القدرة على سماع الأحياء حال موته بل والرد عليهم ، وإليك تفصيل ذلك .

الخلفية المنطقية والشرعية لمخاطبة الأموات

إذ الآيات والروايات صريحة في وجود الحياة البرزخية وبعضها صريح في وجود من هو قادر على معرفة ما يقع عن الأحياء في عالم الدنيا بل بعضهم قادر على الرد علينا وإن لم نشعر نحن به .

فمن يستشفع بالميت ينطلق من الاعتقاد بأن له حياة برزخية يسمع بها الأحياء ويستند في ذلك على الآيات والروايات ، وإذا ثبت أنه يسمع ويرد ، فهذا يعني أنه يمكن له أن يخاطب ربه ويستشفع لطالب الشفاعة ، وكل من يدعو بعض الأنبياء والأولياء ويطلب منهم الشفاعة حال موتهم ينطلق من ذلك وإن أمكن أن يكون مخطئا بسبب خطأ الأدلة ، وأما مشركا فلا .

فأما الآيات فأهمها قوله تعالى ﴿ **وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۞ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ آل عمران / ١٩٦- ١٧٠ .

وقد روى مسلم في صحيحه تحت باب (بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون) عن مسروق قال : سألنا عبدالله (هو ابن مسعود) عن هذه الآية ﴿ **وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ قال : أما إنا قد سألنا عن ذلك ، قال : أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم اطلاعه ، فقال : هل تشتهون

شيئا ؟ قالوا : أي شيء نشتهي ؟ ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا ، قالوا : يا رب ، نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا " [1] .

قال القرطبي : " وقد اختلف العلماء في هذا المعنى ، فالذي عليه المعظم هو ما ذكرناه وأن حياة الشهداء محققة ... وصار قوم إلى أن هذا مجاز والمعنى أنهم في حكم الله مستحقون للتنعيم في الجنة ... وقال آخرون : أرواحهم في أجواف طير خضر وأنهم يرزقون في الجنة ويأكلون ويتنعمون وهذا هو الصحيح من الأقوال لأن ما صح به النقل فهو الواقع ، وحديث ابن عباس نص يرفع الخلاف ، وكذلك حديث ابن مسعود ، خرجه مسلم " [2] .

والذي يدل على أن هؤلاء الشهداء يدركون ويسمعون كلام من في الدنيا ما رواه البغوي عن عبيلة بن عميرة قال : " مر رسول الله ﷺ حين انصرف من أحد على مصعب بن عمير وهو مقتول ، فوقف عليه ودعا له ثم قرأ ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ** ﴾ الأحزاب/٢٣ ، ثم قال رسول الله ﷺ : أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة ، ألا فأتوهم وزوروهم وسلموا عليهم ، فوالذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه " [3] .

والروايات الصحيحة تدل وبنحو جلي على أن للأنبياء عليهم السلام حياة برزخية مميزة بعد موتهم ، لذا تجد الحافظ البيهقي يكتب رسالة بعنوان (حياة الأنبياء

(١) صحيح مسلم ج٣ ص ١٥٠٢- ١٥٠٣ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ، المجلد الثاني ، ج٤ ص ٢٥٣ -٢٥٤ ، وحديث ابن عباس قال عنه في صفحة سابقة : " وفي مصنف أبي داود بإسناد صحيح عن ابن عباس " .

(٣) تفسير البغوي ج١ ص ٢٩٣ .

صلوات الله عليهم بعد وفاتهم) [١] ، وقد وردت الأحاديث الصحيحة أنه ﷺ يسمع سلام المسلمين عليه ؟! منها الحديث الذي رواه أحمد في مسنده عن أبي هريرة قوله ﷺ : " ما من أحد يسلم علي إلا رد الله إلي روحي حتى أرد عليه السلام " [٢] ، صححه الألباني في (السلسلة الصحيحة) ونقل رأي بعض العلماء في سنده قائلا : " قال الحافظ العراقي في (تخريج الإحياء) : سنده جيد ، وأما النووي فقال في (الرياض) : إسناده صحيح ووافقه المناوي في (التيسير) " [٣] .

بل ثبت سماع الموتى غير الصالحين كما في الخبر الذي رواه البخاري في صحيحه عن ابن عمر ، قال : " اطلع النبي ﷺ على أهل القليب ، فقال : وجدتم ما وعد ربكم حقا ، فقيل له : تدعو أمواتا ، فقال : ما أنتم بأسمع منهم ولكن لا يجيبون " [٤] ، ولا يجيبون هنا يعنى أنهم لا يستطيعون أن يشعرونا بحياتهم وإدراكهم وإلا فالنص السابق صريح بأن رسول الله بل الشهداء ﷺ يجيبون ويردون السلام .

والمهم أن يتضح أن أصل دعاء النبي ﷺ والطلب منه ليس من قبيل دعاء المشركين لآلهتهم من دون الله ، بل يمكن أن يقوم الدليل على سماع النبي ﷺ لكلامنا كما هو الحال في السلام عليه فيكون الأمر من السنة ويمكن أن لا يقوم الدليل عليه فيكون بدعة ، وما دام للأنبياء حياة برزخية خاصة يمكن أن يقوم

---

(١) طبع من قبل مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة (١٤٢٢هـ – ٢٠٠١) بتحقيق الدكتور الغامدي .

(٢) مسند أحمد ج ١٦ ص ٤٧٧ قال محقق الكتاب : إسناده حسن ... وأخرجه أبو داود (٢٠٤١) وسنن البيهقي ٥/ ٢٤٥ ، وكذلك صححه الألباني في (صحيح الجامع) وقال : إسناده حسن عن أبي هريرة ج ٢ ص ٩١١ .

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة ج٥ ص ٣٣٨ .

(٤) صحيح البخاري ج٢ ص ١٢٢ .

الدليل أن الاستشفاع بهم وطلب الدعاء منهم أمر جائز بلا فرق بين حال حياتهم ومماتهم .

والمقصود أنه لا يمكن إطلاق القول بأن الميت لا يقدر على شيء ، كيف وقد صرح الخبر بأن رسول الله ﷺ وهو في قبره يتمكن من الدعاء لنا ، وهل رد السلام علينا إلا دعاء منه ﷺ لنا ؟! فلو قصد المسلم بسلامه على خاتم الرسل ﷺ طلب وتحصيل دعائه وسلامه ﷺ ، فهل طلبه هذا طلب لشيء مقدور للميت أو غير مقدور ؟

فعلى أصحاب هذه الرؤية للشرك - الذين ادعوا تحققه بدعاء الميت والطلب منه - أن يسألوا أنفسهم : هل يعقل أن يكون الفاصل والمائز بين التوحيد والشرك هو حياة وموت المدعو المستشفع به ؟

فإن أقصى ما يمكن أن يقال إن الطالب من الميت - إذا طلب شفاعته ودعاءه - يقوم بعمل سفهي غير مجد لأن الميت لا يسمع ولا يستجيب حتى يطلب من الله قبول شفاعته في الطالب وقضاء حاجته لا أنه يشرك بالله بهذا الطلب ، فالموت يفرق بين الدعاء المجدي والدعاء غير المجدي أو يفرق بين الدعاء السني والدعاء البدعي ، وأما أن يكون مميزا بين الدعاء التوحيدي والدعاء الشركي فهذا ما يوجب العجب من هؤلاء ، كيف تمكنوا من تعقله ؟! لكنه صريح قول ابن عبدالوهاب : " ونحن أنكرنا استغاثة العبادة التي يفعلونها عند قبور الأولياء أو في غيبتهم في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله ، وذلك أن تأتي عند رجل صالح حي يجالسك ويسمع كلامك فتقول له : ادع الله لي ، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه ذلك في حياته ، وأما بعد موته فحاشا وكلا

أنهم سألوه ذلك عند قبره ، بل أنكر السلف الصالح على من قصد دعاء الله عند قبره فكيف بدعائه نفسه " [١] .

عموما في الحالتين أي سواء كان الدعاء الممنوع هو طلب الخوارق أو الممنوع هو الطلب من غير القادر لموت أو غيبة سيعود الخلاف مع غيرهم حول تمكين الله للمدعو وعدمه خلافا في الثابت من الشرع من غيره لا خلافا في التوحيد والشرك ، وإلا لا يمكن لمسلم أن يدعو غير الله في أمر لا يقدر عليه إلا الله أصالة إلا بسبب اعتقاده أن الله مكّن ذلك المدعو فأصبح قادرا بإذن الله – مخطئا كان في اعتقاده أو مصيبا – وفي الحالتين الحديث عن قدرة غير اعتيادية أعطيت من قبل الله عز وجل للمدعو سواء كانت من قبيل سماع الميت وقدرته على الإجابة أو من قبيل الأمور الخارقة التي هي في الأصل ليست إلا في قدرة الله ولكن الله مكن بعض عباده منها .

التوحيد والشرك يعرفان بالعقل ولا مدخل للنصوص فيهما

والحقيقة تكمن في أن العقل بنفسه يعرف بطلان الاعتقاد بوجود إله آخر مع الله مستقل في تأثيره على الكون وهو ما يعرف بشرك الربوبية ، كما أنه مستقل في معرفة بطلان أن يقصد الإنسان غير الله بالعبادات أي ما يعرف بشرك الألوهية لأنه خضوع لا يصح إلا لمن منه أصول النعم وهو الله لا رب سواه ولا إله معه .

وعليه إذا أدرك العقل تحقق ضابطة شرك أكبر في مورد – سواء كان شركا في الربوبية أو شركا في الألوهية – فلا يمكن أن يأتي النص كي يجيز ذاك الشرك ، كيف وقد قال عز وجل ﴿ **وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا**

---

(١) شرح كشف الشبهات ص ١٢٧ .

أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ آل عمران / ٨٠ ، كما إنه استقل بعدم تحقق ضابطة الشرك بنوعيه لا يمكن للنص الشرعي أن يجعله شركا .

ففي مثل موردنا إذا استقل العقل بالحكم على أن دعاء المسألة ليس من الشرك في شيء ، فلا يمكن أن يأتي بعد ذلك دليل أو نص يعتبره شركا في خصوص ما لا يقدر عليه المدعو دون ما يقدر عليه ، وإذا استقل بالحكم على أن دعاء المسألة شرك فلا يمكن أن يأتي الدليل ويجيزه في خصوص ما يقدر عليه المدعو ، كما هو الحال في دعاء العبادة الذي لا يمكن أن يجيزه الشرع في أية حالة ما دام العقل متحققا من شركيته .

دعاء المسألة يمكن أن يصبح شركا إذا قيد بأحد القيدين الآتين

وبناء على ما سبق لا ننفي إمكان دخول دعاء المسألة تحت عنوان الشرك ، ولكن ليس بمجرده بل إذا صاحب دعاء المسألة أمر آخر يدخله في شرك الربوبية أو شرك الألوهية ، والعقل كما قلنا قبل قليل هو الذي يستقل في الحكم بشركيته بسبب ما لازمه ، وذلك عند تحقق ضابطة أحد نوعي الشرك إما شرك الربوبية أو شرك الألوهية .

فهو يدخل في شرك الربوبية إذا اعتقد الداعي السائل أن هذا الموجود قادر على قضاء حاجاته بشكل مستقل عن الله وفي عرض قدرة الله تعالى ، فهذا شرك بلا شك ، فلو سأل أحدهم غير الله أمرا لا يقدر عليه إلا الله واعتقد أنه بمقدور ذلك الغير من دون أن يمكنه الله بل بقدرته الذاتية المستقلة عن الله أصبح مشركا شرك ربوبية ، وسبب الشرك هنا في الحقيقة ليس دعاء المسألة وإنما اعتقاد السائل الذي يرجع إلى شرك الربوبية لا الألوهية .

وهذا ما يدل عليه القرآن صريحا ، فتقييدنا لشركية دعاء المسألة بالاعتقاد بربوبية المدعو الذاتية المستقلة عن الله مصرح به في قوله تعالى ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ ﴾ آل عمران / ٤٩ ، فمن الواضح من الآية الكريمة أن تقييد القدرات الخارقة للعادة بإذن الله أي بتمكين الله وعدم استقلاليته كان السبب الأساسي في عدم اعتبار ذلك شركا ، وبالتالي إذا لم يكن الاعتقاد بقدرة ذلك المسئول - على فعل الخوارق - مقيدا بإذن الله ، كما لو اعتقد استقلاليته في ذلك أصبح شركا في الربوبية .

وبناء على ما سبق فالصحيح أن من شرك الربوبية أن يطلب الإنسان من موجود غير الله قضاء حاجته انطلاقا من الاعتقاد بأنه قادر على ذلك بذاته وبدون إذن الله ، وأما إذا اعتقد أنه بإذن الله كما هو حال المسيح عليه السلام فهذا الإنسان لم يشرك شرك ربوبية لأنه يعتقد بأن الخالق المدبر هو الله وما المسيح عليه السلام إلا عبد مكنه الله من بعض الخوارق .

نعم قد يكون مبتدعا إذا لم يعتمد على دليل معتبر في ذلك ، ومخطئا إذا اعتمد على دليل باطل تخيل صحته ، وقد يكون مصيبا إذا أفاد الدليل الصحيح ثبوت ذلك لأحد عباده المكرمين كما أفادت الآيات ثبوت ذلك للمسيح عليه السلام.

ويمكن أن يدخل دعاء المسألة تحت عنوان شرك الألوهية إذا رافق الدعاء القصد العبادي الخاص يعني اعتبر الداعي دعاءه - دعاء المسألة - عبادة مثل الصلاة والصوم يتقرب به إلى الله ويعبده بهذا السؤال والطلب ، وهذا بعيد فلا نجد بين البشر من يعتبر دعاء المسألة عبادة فضلا عن أن يتخذ كذلك من قبل بعض المسلمين .

نهاية

هذا تمام ما أردنا بيانه من نقاط الخلل المتعددة في الرؤية الوهابية للتوحيد والشرك ، وقصدنا الحديث عن الشرك وبيان بطلان دعواهم بوقوع المسلمين في ذلك ولم نقصد نفي وصف البدعة عن بعض الأعمال ، كما قصدنا بيان بطلان سعيهم لتلبيس فكرتهم بلباس الآيات والقرآن ودعواهم أن ما يذهبون إليه من فهم للتوحيد والشرك هو من واضحات القرآن الكريم ، فلذا أكدنا على مناقشة العديد من الآيات التي يستندون إليها خطا في فهمها أو في تطبيقها على المسلمين .

وكما ترى نقاط الخلل في المنظومة الوهابية متعددة :

فهناك خلل في اعتبار المشركين موحدين في الربوبية وتخصيصهم بشرك العبادة .

وهناك خلل فيما يرتبط بفهم معنى العبادة التي أشرك بها المشركون .

وهناك خلل في موجب الشرك في العبادة هل هو الشفاعة أو الأعمال العبادية .

وهناك خلل وخلط في اعتبار مطلق الدعاء عبادة أو قل خلط بين دعاء العبادة ودعاء المسألة .

وخللهم الأخير في محاولة اعتبار دعاء غير الله دعاء مسألة شركا بتقييده بقيود لا تنفع في ذلك .

تم بحمد الله تعالى

عبدالله إبراهيم دشتي

الكويت في ١٧ جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ

تاريخ انهاء التعديلات والاعداد للطبعة الثانية

قائمة المراجع

بعد القرآن الكريم

١. **الاحتجاج** : للعلامة أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي ، تحقيق الشيخ البهادري والشيخ هادي به ، دار الأسوة للطباعة والنشر ، قم – إيران ، الطبعة الثانية ١٤١٦ هـ .

٢. **الاستيعاب** : يوسف بن عبدالبر القرطبي الأندلسي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان الطبعة الأولى ١٩٩٥م ، تحقيق عادل عبدالموجود وعلي معوض .

٣. **الأشباه والنظائر** : عبالرحمن السيوطي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى عام ١٤٠٣ هـ .

٤. **الإصابة في تمييز الصحابة** : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٩٦م .

٥. **أصول السرخسي** : محمد بن أحمد السرخسي ، تحقيق أبي الفداء الأفغاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٩٣ .

٦. **إعانة الطالبين** : السيد البكري الدمياطي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٩٧م .

٧. **إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد** : صالح بن فوزان الفوزان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٠م .

٨. **إكمال المعلم بفوائد مسلم** : القاضي عياض بن موسى ، دار الوفاء في مصر ، ومكتبة الرشد في الرياض ، الطبعة الأولى ١٩٩٨م .

٩. **آلاء الرحمن** : الشيخ محمد جواد البلاغي ، الناشر مكتبة الوجداني ، قم – إيران ، الطبعة الثانية .

١٠. **الإمام في بيان أدلة الأحكام** : عبدالعزيز السلمي ، تحقيق رضوان مختار بن غريبة ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت – لبنان ، ١٤٠٧ هـ .

١١. **بحارالأنوار** : العلامة محمد باقر المجلسي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م .

١٢. **البحر الرائق شرح كنز الدقائق** : زين الدين بن إبراهيم بن محمد المشهور بابن نجيم ، تحقيق الشيخ زكريا عمرات ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٩٧م .

١٣. **بداية المجتهد ونهاية المقتصد** : محمد بن أحمد بن رشد القرطبي ، منشورات الشريف الرضي ، قم – إيران ، ١٤٠٦ هـ .

١٤. **بدايع الصنائع** : علاء الدين أبو بكر بن مسعود الكاشاني ، المكتبة الحبيبة ، باكستان ، الطبعة الأولى عام ١٩٨٩م .

١٥. **البيان في تفسير القرآن** : السيد أبوالقاسم الموسوي الخوئي ، المطبعة العلمية ، قم – إيران .

١٦. **تاج العروس** : محمد بن مرتضى الزبيدي ، دار صادر – بيروت ، الطبعة الأولى ، المطبعة الخيرية ، مصر ١٣٠٦هـ .

١٧. **التبيان في تفسير القرآن** : الشيخ محمد بن الحسن الطوسي ، تقديم الشيخ آقا بزرك التهراني ، دار إحياء التراث الاسلامي ، بيروت – لبنان

١٨. **التحرير والتنوير** : الشيخ محمد طاهر ابن عاشـور ، مؤسسـة التـاريخ ، بيروت – لبنان ، الطعبة الأولى ٢٠٠٠ م .
١٩. **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمـذي** : الحـافظ محمـد المبـاركفوري ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٠ م .
٢٠. **التربية الإسلامية** : للصف الأول الثـانوي في دولـة الكويـت ، الطبعـة الأولى ١٤٢٣ هـ .
٢١. **التسهيل لعلوم التنزيل** : محمد بن أحمـد بـن جـزي الغرنـاطي ، تحقيـق الدكتور عبدالله الخالدي ، دار الأرقم ، بيروت – لبنان ، بعد ١٩٩٥ .
٢٢. **تفسير ابن أبي حاتم** : عبد الرحمن بن محمد الرازي ، مكتبة الباز – مكة المكرمة – الرياض ، الطبعة الثانية ١٩٩٩م ، تحقيق أسعد الطيب .
٢٣. **تفسير ابن كثير** : تفسير القرآن العظيم ، إسماعيل بن كـثير الدمـشقي ، دار المعرفة – بيروت – لبنان ، الطبعة الثامنة ١٩٩٦م .
٢٤. **تفسير البغوي** : الحسن بن سعيد الفراء البغوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٩٣م .
٢٥. **تفسير البيضاوي** : المسمى بأنوار التنزيل ، عبدالله بن عمر البيـضاوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٩٩م .
٢٦. **التفسير الحديث** : ترتيب السور حسب النزول ، محمد عـزة دروزة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثانية ٢٠٠٠م .
٢٧. **تفسير الخازن** : علي بن محمـد البغـدادي الـشهير الخـازن ، دار الكتـب العلمية ، بـيروت – لبنـان ، الطبعـة الأولى ١٩٩٥م ، تحقيـق عبدالـسلام شاهين .

٢٨. **تفسير السمرقندي** : بحر العلوم ، نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي ، تحقيق الدكتور محمود مطرجي ، دار الفكر للملايين ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٩٧م .

٢٩. **تفسير الصافي** : الفيض الكاشاني ، دار الكتب الإسلامية ، تحقيق السيد محسن الأميني ، طهران – إيران ، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ .

٣٠. **تفسير الطبري** : وهو جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، محمد بن جرير الطبري ، دار الفكر بيروت – لبنان ١٩٩٥م ، تحقيق صدقي العطار .

٣١. **تفسير العياشي** : محمد بن مسعود بن عياش السلمي ، تحقيق السيد هاشم الرسولي المحلاتي ، المكتبة العلمية الإسلامية ، تهران – إيران ، كتب مقدمته السيد الطباطبائي عام ١٣٨٠ هـ .

٣٢. **تفسير الفخر الرازي** : محمد بن عمر الرازي ، تقديم الشيخ خليل الميس ، دار الفكر ، بيروت – لبنان ، طبعة عام ١٩٩٥م .

٣٣. **تفسير القمي** : علي بن إبراهيم القمي ، تحقيق السيد طيب الجزائري ، مؤسسة دارالكتاب للطباعة والنشر ، قم- إيران ، ١٤٠٤ هـ

٣٤. **تفسير النسفي** : مدراك التنزيل وحقائق التأويل ، عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي ، تحقيق الشيخ زكريا عميرات ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الألوى ١٩٩٥م .

٣٥. **تفسير مقاتل بن سليمان** : مقاتل بن سليمان ، تحقيق د. عبدالله محمود شحاتة ، دار إحياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ٢٠٠٢ .

٣٦. **تقريب التهذيب** : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثانية ١٩٩٥م ، تحقيق مصطفى عطا .

٣٧. **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والمسانيد** : الحافظ يوسف بن عبدالله بن عبدالبر القرطبي ، تحقيق محمد عبدالقادر عطا ، درا الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٩م .

٣٨. **تهذيب اللغة** : لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، إشراف محمد عوض مرعب ، الطبعة الأولى ٢٠٠١ م .

٣٩. **التوحيد** : الشيخ الصدوق ، مؤسسة النشر الإسلامي ، تحقيق السيد هاشم الطهراني

٤٠. **التوحيد** : لابن عبدالوهاب ، طبعاته المتعددة ، منها طبعة وزارة الشؤون الإسلامية بالتعاون مع مؤسسة إبراهيم الإبراهيم الخيرية ، المملكة العربية السعودية .

٤١. **التوحيد والشرك في القرآن الكريم** : العلامة الشيخ جعفر السبحاني ، انتشارات أسوة ، إيران ، الطبعة الثانية ١٩٩٢م .

٤٢. **تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد** : سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب ، عالم الكتب ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٩٩م .

٤٣. **تيسير الكريم الرحمن** : الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي ، جمعية إحياء التراث الإسلامي ، الكويت ، الطبعة الأولى ١٩٩٧ م .

٤٤. **الجامع لأحكام القرآن** : محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، دار الفكر ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٣م .

٤٥. **الجواهر الحسان** : عبدالرحمن الثعالبي ، تحقيق أبومحمد الغماري الإدريسي الحسني ، دارالكتب العلمية ،بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٩٦م .

٤٦. **جواهر الكلام** : الشيخ محمد حسن النجفي ، دار إحياء التراث العربي ، تحقيق الشيخ عباس القوجاني ، بيروت – لبنان ، طبعة عام ١٩٨١ .

٤٧. **حاشية ابن عابدين** : وهو حاشية رد المحتار لابن عابدين ، تحقيق مكتب البحوث والدراسات ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، سنة ١٩٩٥م .

٤٨. **حاشية الطحاوي على مراقي الفلاح** : أحمد الطحطاوي الحنفي ، مكتبة البابلي الحلبي ، مصر ، الطبعة الثالثة ١٣١٨ هـ .

٤٩. **الحدائق الناضرة** : الشيخ يوسف البحراني ، تحقيق محمد تقي الأيرواني ، دارالأضواء ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثانية ١٩٨٥م .

٥٠. **حياة الأنبياء صلوات الله عليهم بعد وفاتهم** : الحافظ أحمد بن الحسين البيهقي ، تحقيق الدكتور أحمد بن عطية الغامدي ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة – السعودية ، الطبعة الثانية ٢٠٠١م .

٥١. **الخصال** : الشيخ الصدوق ، تحقيق علي أكبر الغفاري ، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين ، قم – إيران ، سنة ١٤٠٣ هـ .

٥٢. **الخلاف** : الشيخ محمد بن الحسن الطوسي ، تحقيق جماعة من المحققين ، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة ، طبعة عام ١٤٠٧ هـ .

٥٣. **الدر المنثور** : جلال الدين السيوطي ، دار الفكر – بيروت – لبنان ١٩٩٣م .

٥٤. **دعاوى المناوئين** : إعداد عبدالعزيز محمد بن علي العبداللطيف ، دار الوطن للنشر ، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ .

٥٥. **ذكرى الشيعة** : محمد بن جمال الدين مكي العاملي المعروف بالشهيد الأول ، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ، ١٤١٩.

٥٦. **روح المعاني : روح المعاني في تفسر القرآن** : محمود الآلوسي ، دار الفكر ، بيروت – لبنان ، طبعة ١٩٩٧م ، تحقيق محمد حسين عرب .

٥٧. **الروض الأنف** : أبي القاسم عبدالرحمن بن عبدالله الخثعمي السهيلي ، تعليق مجدي بن منصور بن سيد الشورى ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ١٩٩٧م .

٥٨. **الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية** : تحقيق السيد كلانتر ، الانتشار العلمية ، قم – إيران ، الطبعة الثانية ١٣٩٥ .

٥٩. **زاد المسير** : عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٩٤م ، تحقيق أحمد شمس الدين .

٦٠. **زبدة التفاسير** : فتح الله الكاشاني ، تحقيق ونشر مؤسسة المعارف الاسلامية ، قم – إيران ، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ .

٦١. **سبيل الهدى والرشاد في بيان حقيقة توحيد رب العباد** : د. محمد بن عبدالرحمن الخميس ، مكتبة الصحابة ، الإمارات – الشارقة .

٦٢. **سلسلة الأحاديث الصحيحة** : محمد ناصر الدين الألباني ، مكتبة المعارف – الرياض – المملكة العربية السعودية ١٩٩٥م .

٦٣. **سنن الترمذي** : محمد بن عيسى الترمذي ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار إحياء التراث العربي .

٦٤. **السنن الكبرى** : أحمد بن الحسين البيهقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٩٤م تحقيق محمد عطا .

٦٥. **سيرة ابن هشام** : عبدالملك بن هشام ، دار الكتاب العربي ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثانية ١٩٨٩م ، تحقيق عمر تدمري .

٦٦. **شرح أصول الكافي** : للمولى محمد صالح المازندراني ، ضبط وتصحيح السيد علي عاشور ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت –لبنان ، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م .

٦٧. **شرح صحيح مسلم** : النووي ، دار الكتاب العربي ، بيروت – لبنان ١٩٨٧م .

٦٨. **شرح كشف الشبهات** : محمد بن صالح العثيمين ، دار الثريا للنشر ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، الطبعة الثالثة ١٩٩٧ م ، إعداد فهد السليمان ، وعليه اعتمدنا في النقل من كشف الشبهات للشيخ ابن عبدالوهاب .

٦٩. **الصحاح** : إسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت – لبنان ، الطبعة الرابعة ١٩٨٧م .

٧٠. **صحيح البخاري** : محمد بن إسماعيل البخاري ، دار الجيل – بيروت – لبنان ، الطبعة السلطانية ١٣١٣هـ .

٧١. **صحيح الجامع الصغير** : محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي، بيروت – لبنان ، عام ١٣٨٨ هـ .

٧٢. **صحيح مسلم** : مسلم بن الحجاج النيسابوري ، دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان ١٩٩٩م .

٧٣. **علل الشرائع** : الشيخ الصدوق ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ، تحقيق حسن الأعلمي .

٧٤. **عمدة القاري** : محمود بن أحمد العيني ، دار الفكر ، بيروت – لبنان ، إشراف صدقي العطار ، سنة ٢٠٠٢ .

٧٥. **عون المعبود شرح سنن أبي داود** : محمد شمس الحق العظيم آبادي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٩٨ .

٧٦. **العين** : لأبي عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان .

٧٧. **فتح الباري** : ابن حجر العسقلاني ، مؤسسة مناهل العرفان – بيروت – دمشق ، مكتبة الغزالي .

٧٨. **فتح القدير** : محمد بن علي الشوكاني ، دار ابن كثير – دمشق ، بيروت الطبعة الثانية ١٩٩٨م .

٧٩. **فيض القدير** : محمد المناوي ، دار الفكر بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٩٦م .

٨٠. **قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة** : أحمد بن تيمية الحراني ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، مقدمة محب الدين الخطيب .
٨١. **القاموس المحيط** : محمد بن يعقوب الفيروزآبادي .
٨٢. **القول المفيد على كتاب التوحيد** : الشيخ محمد بن صالح العثيمين ، دار ابن الجوزي ، الدمام – المملكة العربية السعودية ، الطبعة الثالثة ١٩٩٩م
٨٣. **الكافي** : محمد بن يعقوب الكليني ، دار الأضواء – بيروت – لبنان ١٩٨٥م ، تحقيق علي أكبر الغفاري .
٨٤. **الكشاف** : جار الله الزمخشري ، دار المعرفة – بيروت – لبنان .
٨٥. **كشف اللثام** : للفاضل الهندي ، تحقيق مؤسسة النشر الإسلامي ، الناشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة ، قم- إيران ، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ .
٨٦. **الكشف والبيان** : المعروف بتفسير الثعلبي ، أبي إسحاق أحمد المعروف بالإمام الثعلبي ، تحقيق ابن عاشور ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ٢٠٠٢ .
٨٧. **كلمة التقوى** : الشيخ محمد أمين زين الدين ، قم – إيران ، الطبعة الثانية سنة ١٤١٣ هـ .
٨٨. **الكليات** : أبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي ، تحقيق د. عدنان درويش ومحمد المصري ، مؤسسة الرسالة ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثانية ١٩٩٣
٨٩. **اللباب في علوم الكتاب** : عمر بن علي بن عادل الحنبلي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٩٨م ، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض .

٩٠. **لسان العرب** : محمد بن مكرم بن منظور ، نشر أدب الحوزة ، قم – إيران ١٤٠٥هـ .

٩١. **مجمع البحرين** : الشيخ فخر الدين الطريحي ، المكتبة الرضوية ، طهران – إيران ، الطبعة الثانية ١٣٦٢ هـ .

٩٢. **مجمع البيان** : الشيخ أبوعلي فضل بن الحسن الطبرسي ، منشورات مكتبة أية الله العظمى المرعشي ، قم – إيران ، أوفست على طبعة مطبعة العرفان صيدا سنة ١٣٣٣هـ .

٩٣. **المجموع في شرح المهذب** : أبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي ، تحقيق الدكتور محمود مطرجي ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٩٦م .

٩٤. **مجموعة التوحيد** : مجموعة رسائل ، الناشر المكتبة السلفية لصاحبها محمد عبدالمحسن الكتبي ، المدينة المنورة .

٩٥. **مجموعة الفتاوى** : تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني ، دار الجيل ، الطبعة الأولى ١٩٩٧، تحقيق عامر الجزار وأنور الباز .

٩٦. **المحرر الوجيز** : للقاضي أبي محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي ، تحقيق المجلس العلمي بفاس ، طبعة عام ١٩٧٥م .

٩٧. **المحكم والمحيط الأعظم** : علي بن إسماعيل بن سيده ، تحقيق عبدالحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ٢٠٠٠ .

٩٨. **مدراج السالكين** : محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية ، تحقيق محمد حامد الفقي ، دار الكتاب العربي ، بيروت – لبنان ، الطبعة الثانية عام ١٩٧٣م.

٩٩. **مرآة العقول** : العلامة المجلسي ، دار الكتب الإسلامية ، طهران – إيران، الطبعة الثانية ، تحقيق السيد هاشم الرسولي .
١٠٠. **مروج الذهب** : علي بن الحسين المسعودي ، الشركة العالمية للكتاب ، بيروت- لبنان ، طبعة عام ١٩٨٩م .
١٠١. **مسالك الأفهام إلى تنقيح شرائع الإسلام** : زين الدين بن علي العاملي الشهيد الثاني ، تحقيق مؤسسة المعارف الإسلامية ، الأولى ١٤١٣ هـ .
١٠٢. **المستدرك على الصحيحين** : محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري ، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ١٩٩٠م ، تحقيق مصطفى عطا .
١٠٣. **مستند الشيعة في أحكام الشريعة** : المولى أحمد النراقي ، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ، مشهد – إيران ، ١٤١٥ هـ .
١٠٤. **مسند أحمد** : أحمد بن حنبل ، مؤسسة الرسالة – بيروت – لبنان ١٩٩٩م ، تحقيق شعيب أرناؤوط .
١٠٥. **مسند الحميدي** : الحافظ عبدالله بن الزبير الحميدي ، تحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ١٩٨٨م
١٠٦. **مصطلحات الفقه** : الشيخ علي المشكيني ، الناشر : نشر الهادي ، قم – إيران ، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ .
١٠٧. **معاني الأخبار** : الشيخ محمد بن علي الصدوق ، تحقيق علي أكبر الغفاري ، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية ، قم - إيران ، ١٣٧٩ هـ .

١٠٨. **معجم مقاييس اللغة** : أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت – لبنان ، عناية الدكتور محمد عوض مرعب ، الطبعة الأولى ٢٠٠١ م .

١٠٩. **المغني** : عبدالله بن أحمد بن قدامة ، تحقيق جماعة من العلماء ، دار الكتاب العربي ، بيروت – لبنان .

١١٠. **مفردات غريب القرآن** : الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ، دار المعرفة ، تحقيق محمد سعيد كيلاني .

١١١. **المكاسب المحرمة** : الإمام الخميني ، مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع ، قم إيران ، الطبعة الثالثة ١٤١٠ هـ .

١١٢. **من لا يحضره الفقيه** : محمد بن علي بن بابويه الصدوق ، تحقيق السيد حسن الخرسان ، دارالأضواء ، بيروت - لبنان ، الطبعة السادسة ١٩٨٥ .

١١٣. **منتهى المطلب** : العلامة الحلي ، تحقيق قسم الفقه في مجمع البحوث الإسلامية ، الناشر مجمع البحوث الإسلامية ، مشهد – إيران ، الطبعة ا لأولى ١٤١٢ هـ .

١١٤. **المنثور في القواعد** : بدرالدين محمد الزركشي ، تحقيق د. تيسير فائق أحمد محمود، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – الكويت ، الطبعة الثانية عام ١٤٠٥ هـ .

١١٥. **منهاج السنة** : ابن تيمية ، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ، طبعة قديمة في أربعة أجزاء .

١١٦. **منهج الرشاد لمن أراد السداد** : الشيخ جعفر الجناجي النجفي (كاشف الغطاء) ، تحقيق السيد مهدي الرجائي ، المجمع العالمي لأهل البيت ، قم – إيران ، ١٤١٤ هـ .

١١٧. **الموافقات في أصول الشريعة** : إبراهيم بن موسى الشاطبي ، تحقيق الشيخ عبدالله دراز ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان .

١١٨. **مواهب الرحمن في تفسير القرآن** : السيد عبدالأعلى السبزواري ، مؤسسة المنار ، الطبعة الثالثة ١٤١٤ هـ .

١١٩. **الموطأ** : مالك بن أنس ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان .

١٢٠. **الميزان في تفسير القرآن** : السيد محمد حسين الطباطبائي ، مطبوعات إسماعيليان ، قم – إيران ، الطبعة الثالثة ١٩٧٣ .

١٢١. **نزهة الناظر في الجمع بين الأشباه والنظائر** : يحيى بن سعيد الحلي ، تحقيق السيد أحمد الحسيني ونور الدين الواعظي ، مطبعة الآداب ، النجف الأشرف – العراق ، ١٣٨٦ هـ .

١٢٢. **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور** : إبراهيم بن عمر البقاعي ، تحقيق عبدالرزاق غالب المهدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٩٥م .

١٢٣. **النكت والعيون** : تفسير علي بن محمد الماوردي ، تحقيق السيد بن عبد المقصود بن عبدالرحيم ، دار الكتب العلمية ومؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت – لبنان .

١٢٤. **النهاية في غريب الحديث والأثر** : مبارك بن محمد بن الأثير ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ن الطبعة الأولى ١٩٩٧م ، تخريج صلاح عويضة .

١٢٥. **نيل الأوطار** : محمد بن علي الشوكاني ، تحقيق محمد سامر هاشم ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٩٥م .

١٢٦. **الواسطة بين الله وخلقه** : إعداد د. المرابط بن محمد الشنقيطي ، دار الفضيلة للنشر والتوزيع ، الرياض – السعودية ، الطبعة الأولى ٢٠٠٣ م

١٢٧. **الوسيط في تفسير القرآن المجيد** : علي بن أحمد الواحدي ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٩٤م ، تحقيق عادل الموجود وآخرون .

الفهرس

الباب الأول :

أولا : المدخل اللغوي القرآني

ثانيا : العرض القرآني لعقيدة المشركين

الفصل الثالث : المسلمون لم يشركوا في الألوهية (العبادة)

الباب الأول :

العبادة لغة واصطلاحاً

الفصل الثالث : المسلمون لم يشركوا في الألوهية (العبادة)

الباب الأول :

العبادة لغة واصطلاحاً

الباب الثاني :

ماهي العبادة التي أشرك بها المسلمون

الباب الثالث :

المبحث الأول : هل تتحقق عبادة غير الله بالشفاعة والتوسل ؟

الخلل الأول :

الخلل الثاني :

هذا الكتاب

ينقسم الناس وِفْق الرؤية الإسلاميّة إلى مسلمين موحّدين، و مشركين عبدة للأوثان، و أهل كتاب و هم اليهود والنصارى، و من أخطر الأحكام التي تترتّب على الشرك، ما في قوله تعالى:

﴿ فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ (التوبة/٥).

مع التسالم على أنّ ذلك بعد دعوتهم الى الإسلام، و خلاف عند البعض في شمول الحكم لكلّ أنواعهم، أم مقيّد ببعضهم، كما أنّ لأهل الكتاب أحكاماً أُخرى، و لا نقصد التفصيل في ذلك

بل ما يهمّنا هنا أن ننبّه إلى خطورة موضوع الكتاب، ففي الثلاثة قرون الأخيرة نشأت رؤية جديدة للتوحيد و الشرك قلبت الموازين، فأخرجت جُلّ المسلمين المقرّين بالشهادتين و اليوم الآخر عن الإسلام واعتبرتهم مشركين، و يترتّب على ذلك أن يُطبّق عليهم الحكم الوارد في الآية الكريمة، كلّ ذلك لأنّهم يزورون الأضرحة و المشاهد المشرّفة للأولياء.

فالدعوى دعوى عظيمة، يقشعرّ منها جلد المسلم، فكيف آمن بها هذا العدد من الشباب المسلم خلال القرون الأخيرة ؟! هل أخطأ المسلمون ـ بما فيهم جيل الصحابة و التابعين ـ في فهم التوحيد و الشرك ، قبل القرن الثامن الهجري؟! أم أخطأ من أسّس هذه الرؤية في ذلك القرن، و من تبعه في أرض الجزيرة في تاريخنا الحديث؟! و ليته كان مجرّد خطأ، بل جرت دماء المسلمين التي أراقتها هذه الرؤية أنهاراً، و ما زالت.

على كلّ سياسيّ واع يعيش في عصر المفخّخات و الأحزمة الناسفة التي توجّه ضدّ المصلّين في المساجد، وضدّ عامّة الناس في الأسواق، أن يعلم أنّ هذا الخلل في فهم التوحيد و الشرك، له الدور الأساس في تهيئة مثل هؤلاء الإنتحاريين، لذا فإنّ تصحيح تصوّرات الشباب المسلم، و فهمهم للتوحيد و الشرك القرآني، أهمّ الخطوات التي يجب أن يخطوها من يريد المعالجة الشافية و إنهاء هذا الإرهاب الفظيع.

والخطوة الأُولى في هذا السبيل أن نفهم كيف وقع مثل هذا الخطأ الفادح؟ و كيف استطاع أرباب هذه الرؤية أن يُلبِسوا الأمر لباس الحقّ، ويلقّنوه الشباب المسلم المتحمّس؟! و بعدها ستنجح الوقاية وينجح العلاج.

إنّه في التلبيس القرآنيّ للفكرة الغريبة؟

وهذا ما يكشفه هذاالكتاب، فهو خطوة لوقاية السليم، وعلاج من أُصيب.



نشر باقيات

مركز التوزيع

مكتبة فدك

أصالة الماضي وحداثة الحاضر

قم - ايران - شارع صفائيه - ياساز الامام المهدي

هاتف: ٧٧٣٢٦٣١ - ٧٨٣٣٦٢٤ فاكس: ٧٧٤٧٦٩٥

9 789646 168961